السِّيادة الوطنيَّة إرادةً وهويَّةً

أ د. عقيل حسين عقيل

أستاذ التنميّة البشريَّة والخدمة الاجتماعيَّة

كلية الآداب\ جامعة طرابلس

2024م

جدول المحتويات

المقدِّمةُ 4

السِّيادةُ 6

الخلافُ مِن أجلِ السِّيادة:
12
السِّيادة بين كسرٍ وصون:
15
الإرادةُ
28
الإرادة قوّة:
34
الإرادة قوَّة قرار:
37
امتلاك الإرادة ارتقاءً:
40
الإرادة وعيًا تُمكِّن من الإدراك:
43
الإرادة تهيّؤ فعَّال:
47
الإرادة تغرس الثِّقة:
52
مبدأ غرس الثِّقة أرادة:
59
الإرادة ثِّقة تمكّن من الاتزان الوجداني:
62
الإرادة عن ثِّقة اعتبار خصوصيَّة:
66

الإرادة ثِّقة صحوة ذاكرة:
70
الإرادة ثِّقة ترسِّخ المكانة:
74
الإرادة ثِّقة تؤهِّب للاستبصار:
78
تقويض الإرادة:
84
الإرادة تحدّي صِّعاب:
96
امتلاكُ الإرادةِ يخيف:
101
المشاركة الإراديَّة:
109
الإقدام على الفعل الإرادي:
115
سيادة الهويَّة
118
سيادة العقدُ الاجتماعي:
129
الفتن تسقط السِّيادة:
139
استردادُ السِّيادة:
142

العالمُ سيتغير والمستقبل للإسلامِ:
146
استرداد السِّيادة استنارةً:
149
السِّيادة تُحدثُ النُّقلة:
171
صُنع المستقبل نُقلة:
181
السِّيادةُ نُقلة ارتقاء:
193
السِّيادةُ نُقلة التَّحدّي:
199
المؤلِّفُ في سطورٍ
213
صدر للمؤلّف
215
المؤلَّفاتُ المنشورة
217

المقدِّمةُ

السِّيادة قيمة خيّرة لا توهب إلَّا من الله تعالى، أمَّا على المستوى البشري؛ فإنَّها تحتاج إلى جهدٍ حتى يتمّ نيلها، وهذا يعني أنَّها تتطلّب الجهد الذي يستند على القول الحقّ، والفعل الحقّ، والعمل الحقّ، والسُّلوك الحقّ، وتكون السِّادة على المستوى الفردي سيادة قيميَّة تملِّكن صاحبها

مِن نيل التقدير مِنَ الآخرين، وهكذا تكون الجماعة على القيم الخيِّرة والفضائل الحميدة، والعمل المشترك النَّافع الذي يعطها قيمة بما تفرض به سيادتها احترامًا وتقديرًا، وبما تقوم به من مناشطٍ وعملٍ من أجللها والآخرين ذوي العلاقة.

أمَّا على المستوى المجتمعي أو الدَّولة فأمر السيَّادة أمرٌ وطني يتعلّق بسيادة المواطن في وطنه، وسيادة الشَّعب من حيث مدى ممارسته لحقوقه، وأدائه لواجباته الوطنيَّة، ومدى حمله لمسئوليَّاته وتحمّله لما يترتّب عليها من أعباء جِسام؛ ومن هنا يصبح أمر السِّيادة متعلّق بنظام الحكم، وممارسة الدِّيمقراطيَّة بأسلوب شفَّاف، ومدى بسط السيّادة على تراب الوطن، وكيفيَّة تداول السُّلطة بين أفراد الشَّعب وجماعاته وتنظيماته الحيويَّة المحرّكة لعجلة التنمية والنّهوض، ومدى تقدير الغير لهذه السِّيادة من حيث احترام حدود الوطن وعدم التمدد على حساب حرّيَّة الشَّعب سواء أكان التمدد سياسيًا أم اقتصاديًا أم اجتماعيًا، أم أخلاقيًّا أم ثقافيًّا.

ومن هنا كان الاهتمام في هذا المؤلَّف بتشخيص أحوال الإنسان الوطنيَّة قيميًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا، وكيف يمكن له أن يكون مواطنًا فعَّالًا في وطنه، وكيف يمكن أن يكون مشاركًا منتجًا ومبدعًا، وكيف له أن يقبل بتحدّي الصِّعاب من أجل أن ينهض ويتقدّم ويبلغ مأموله ويفوز به.

ولذا فقد تمَّ التركيز في هذا المؤلَّف على مفهوم الإرادة ومدى أهميَّتها عندما تكون بيد المواطن الذي لا يمكن أن يكون سيِّدًا بدون أن يمتلك إرادته الحرَّة؛ وهي الإرادة التي

بها يتمكّن من حمل المسئوليَّة تجاه كل ما يؤدّي به إلى ترسيخ سيادته مواطنًا حرًّا في بلاده.

وهكذا كان للضّرورة البحثيَّة أنْ لا يتم الاغفال عن أهميَّة الهويَّة الوطنيَّة وكيفيَّة ترسيخها وصونها؛ كونها الوجه الثَّاني لعملة السيِّادة التي بدونها يصبح المواطن نكرة، والوطن مجهولًا وكأنَّه لا يزيد عن كونه خيمة من شعر الماعز أو وبر الإبل وقد بنيت في الصّحراء، وأهلها على الفاقة والحاجة؛ حيث لا نهوض ولا إعمار.

أ د. عقيل حسين عقيل

طرابلس ليبيا

2024م

السِّيادةُ

السِّيادة لا تكون إلَّا بيد مَن يمتلكها (امتلاك زمام أمر)؛ حيث لا إمكانيَّة للتغييب والاقصاء، ولا امكانيَّة لأحدٍ أن يمثِّل مَن لم يفوّضه بذلك أو ينتخبه له. إنَّها تلك المعاني التي تجعل للوطن حرمة، وللمواطن حُرمة، وللقيم الخيّرة حُرمة، وللإرادة حُرمة، وللهويَّة حُرمة.

والسِّيادة عبر التَّاريخ صُنع كرامة؛ بغاية تأصيل الفضائل في الأقوال والأفعال والسُّلوكيَّات الإنسانيَّة، وهي الذّاكرة الأخلاقيَّة التي ترسم شخصيّة الإنسان المنتمي اجتماعيًّا ووطنيًا، وهي القيمة الخيِّرة التي لا تترسّخ قيمة المواطنة إلَّا بها.

ومن هنا فالسِّيادة هي كبرياء الشُّعوب والأمم، وهي القيمة التي لا تؤصَّل الشُّعوب تاريخًا إلَّا بها، مما يجعل الشّرف والوطن والأمَّة والدّين من المكوّنات الرَّئيسة لذات الإنسان الذي يقبل أن يموت في سبيلها.

وعليه: فشعوب العالم وأممه عبر التَّاريخ تناضل من أجل استقرار أمنها وسلامة دولها وسيادة أوطانها؛ ذلك لأنَّ الحياة بين الشُّعوب والأمم بين مدّ وجزر، فمن يمتلك القوَّة لا يرى لحدود الأوطان أهميَّة، ولا لكرامة الشُّعوب حُرمة؛ فيقتل وينهب ويستعمر احتلالًا، وفي المقابل الشُّعوب تنفض الغبار عن ظهورها فتثور وتنهض وتحرّر أوطانها؛ ومن ثمّ تحكم؛ فتسعى لاسترداد قوّتها وسيادتها بين اختلاف داخلي وخلاف مع الخارجي.

ومع ذلك كَتبَ التَّاريخ شهادته لمن أراد حرّيَّة من أجل دينه وسيادته، وكذلك كَتَب شهادته لمن أراد أن تقوم الدَّولة الدِّينيّة، كما أنّه كَتب شهادته لمن يريد أن تقوم الدَّولة القوميَّة، وهكذا هو يكتب لمن يريدها دولة وطنيَّة ذات سيادة.

وللتميز بين سيادة هذه وتلك، أقول:

إنَّ الدَّولة الدَينيَّة لا تؤسّس إلَّا على وحدة الدّين سيادة، أمَّا الدَّولة القوميَّة فلا تؤسّس إلَّا على وحدة الأصل (الدّم) سيادة، أمَّا الدَّولة الوطنيَّة فهي الدَّولة التي لا تؤسّس إلَّا على وحدة تراب الوطن، وسيادة الشّعب بمختلف أديانه، وأعراقه، وأعرافه، وانتماءاته، ولغاته، واتجاهاته؛ فلا أحد في الوطن أفضل من الآخر.

ولأنَّ بسيادة السِّيادة الوطنيَّة تُصان كرامة الشُّعوب وتُحفظ، فإنَّ أيّ مساس بها يعدُّ مساسًا بكل الشُّعوب وإن اختلفت أو تخالفت، مما يجعل الاعتداء على سيادة أيّ شعب وكأنَّه الاعتداء على سيادة الشُّعوب كلها، ومن هنا شعوب العالم ودوله يتعاضدون من أجل استرداد السِّيادة لأيِّ شعب ثم الاعتداء على سيادته.

ولأنَّنا مع الاختلاف والخلاف من أجل الوطن، فإنَّنا لا نكون معهما إلَّا لأنَّنا نميّز بينهما (خلافٍ واختلاف)؛ فالاختلاف من أجل الوطن هو الاختلاف المستظل تحت مظلّة ممارسة الحرّيَّة بأسلوب ديمقراطي؛ فأنا على سبيل المثال: لا نختلف عنك أنت في شيء كوننا أبناء الوطن الواحد، ولهذا مِن حقّي كما هو مِن حقّك أن تكون حريصًا على وحدة ترابه، وسلامة أمنه، وسيادة شعبه، ولكن أنا لن أكون أنت إن قرّرت التفريط في هذه أو تلك، وهنا سأكون مختلفًا معك، وإن أقدمت على فعلٍ يسيء للوطن سأكون مخالفًا لك بالتمام، وهنا يكمن الفارق بين مفهوم الاختلاف والخلاف على الوطن أو من أجله.

وكما أنَّ الاختلاف مجازٌ من أجل الحرّيَّة والسِّيادة الوطنيَّة؛ فكذلك الخلاف من أجلها مجازٌ؛ ولذا فمن يختلف

معك في الوطن له الحقّ في الاختلاف، ولا ينبغي معه الخلاف بما أنّه يختلف معك من أجل الوطن وسيادة شعبه، ولكن إن خالفك في شيء يكون على حساب الوطن فمن حقّ الوطن عليك أن تخالفه فيه، ومع ذلك لا ينبغي أن تيأس من عودته إليك من أجل الوطن؛ ولذلك أعمل على تصحيح المعلومات الخاطئة لديه بالمعلومات الصائبة لديك.

إذن: ينبغي أن نميّز بين أمرين من أجل الوطن:

ـ الأمر الأوَّل: داخل الوطن لكلِّ مواطن حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تُحمل؛ ولذلك فمن حقّ أيّ مواطن أن يختلف معك من أجل أن يمارس حقوقه، أو يؤدّي واجباته، أو يحمل مسئوليَّاته، ولا حقّ لك من هذه الزّاوية أن تخالفه في شيء منها، مع تقدير الجميع للقدرات، والمهارات، والاستعدادات، والتخصص، والخبرة، والتجربة، ولكلٍّ حسب ما يستطيع من أجل مصلحة الوطن وسلامة سيادته، وليس من أجل مصلحة مواطنٍ على حساب الوطن وسيادة شعبه.

ـ الأمر الثَّاني: من يخالفك على سيادة الوطن ليجعله وطنًا تابعًا لأوطان الآخرين فعليك بالخلاف معه، أي: عليك بالخلاف على الوطن؛ فالخلاف على الوطن لا يجاز إلّا من أجل الوطن وسيادته، أمّا الاختلاف في الوطن فهو المجاز لكلّ مواطن سيادة.

وكما أنَّ الاختلاف في الوطن حقّ تجيزه حقوق وواجبات ومسؤوليَّات المواطنة فكذلك الخلاف على الوطن حقّ مجاز بالمعطيات ذاتها، ودون إكراه، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .

ومع أنَّ الدَّولة الوطنيَّة بين اختلاف وخلاف، فإنَّها هي الدَّولة العصريّة التي فيها تختفي التفرقة بين المواطنين وبخاصّة إذا كان شعب الدَّولة الوطنيَّة ليس على دين واحد، أو أنّهم ليسوا من دمٍ واحدٍ؛ ولذا فإن كان المواطنون على دين واحد فالتطابق بين الوطن والمواطنين يكون تطابقًا تامًّا، ولا استغراب أن تكون الدَّولة دينية، وكذلك تقوم الدَّولة القوميَّة إن كان التطابق بين الوطن والمواطنين الذين جميعهم من أصل واحد (وحدة الدّم).

أمَّا إذا كان التنوّع والاختلاف الدّيني والعِرقي والثَّقافي هو السّائدة بين بني الوطن؛ فلا شكّ أنّ الدَّولة الوطنيَّة هي الحلّ سيادة، ومن هنا يصبح الاختلاف في الوطن مشرّعًا ومدسترًا، ويصبح الخلاف عليه هو الآخر مشرّعًا ومدسترًا.

ولأنَّ في الاختلاف تنوّعًا معرفيًا فخطوطه غير متوازية بالتّمام؛ ولذا فكلّ ما هو مشكوك في أمره أو تلحقه الظنون فهو موضع اختلاف إلى أن يتمّ التبيّن الذي من بعده تُتّخذ المواقف، ثمَّ تُصدر القرارات عن وعي ودراية.

ومع أنَّ الاختلاف في الوطن يجب أن يؤدّي إلى اللقاء والتحاور والتفاهم، فإنَّه في الأنظمة الدّكتاتوريّة على غير ذلك؛ فهي أنظمة ذات رأي واحدٍ، ولونٍ واحد، ورئيس واحد، وقائدٍ واحد، ومفكر لا مفكّر معه، وإمام لا إمام معه، وخليفة

لا خليفة معه، وشيخ قبيلة لا شيخ معه، ولهذا كان الخلاف معهم عبر التَّاريخ على أشدّه من أجل السِّيادة؛ ذلك لأنَّ رؤوس النُظم الدّكتاتوريَّة لا تقبل بوجود مساحة للاختلاف إلّا وأن تكون مساحة تسمح للبعض أن يمتدّ فيها على حساب البعض الآخر.

أمَّا في الأوطان ذات الأنظمة الدّيمقراطيَّة فالاختلاف بين بني الوطن حقّ تكفله الشّرائع والدّساتير؛ ذلك لأنَّه الاختلاف الذي لا يؤدّي إلّا إلى الالتقاء والتحاور والتفاهم ورسم السِّياسات الوطنيَّة من أجل السِّيادة.

وفي المقابل الخلاف في تلك الأوطان لا يكون إلّا بين المخالفين للشرائع والدّساتير ممّا يجعل خلافهم خلافًا مع سيادة الوطن، ومثل هذا الخلاف لا يكون إلّا من قِبل أعداء الوطن؛ ولذلك يسود الخلاف بين الأعداء، وفي المقابل يسود الاختلاف بين من تجمعهم المعطيات العرقيّة والدينيّة و القيميَّة والأخلاقيّة والوطنيَّة، أي: من أجل الدين يلتقي المختلفون، ومن أجل وحدة الدّم يلتقي المختلفون، ومن أجل القيم الحميدة يلتقي المختلفون، ومن أجل الأخلاق الكريمة يلتقي المختلفون، وهكذا من أجل السِّيادة الوطنيَّة يجتمع المواطنون المختلفون ويلتقون من أجله وطن للجميع.

ومن هنا فالاختلاف يمكن أن يؤدّي إلى الخلاف، أمَّا الخلاف فلا شيء من بعده إلّا القتال إن لم يكن للعفو والصّفح والتسامح والتصالح مساحة للامتداد.

ولأنَّ وراء فرض الرّأي سلب سيادة وإرادة، فالخلاف لا بدَّ وأن يكون سائدًا بين المتخالفين، حتى تُسترد السِّيادة

طوعًا أو كرهًا، ومن هنا سيظل الخلاف سائدًا كلّما حاول أن يسود ظالم أو متجبّر؛ ولذا فـالخلاف قطيعة، أمّا الاختلاف فمجالات الاتصال والتلاقي فيه أبوابه مفتّحة، من أجل التفاهم على المصالح المشتركة والمستقبل الوطني والسِّيادة التي لا تسود إلَّا بالعموم.

وعليه: فالاختلاف لا يزيد عن كونه عدم اتفاق يستوجب اتفاقًا فإن تمّ الاتفاق خرج المختلفون برؤية مشتركة، وإن لم يتفقوا سيكون السعي مستمرًّا من أجل معرفة علل الاختلاف؛ ولذلك كلّما وُجد اختلاف وجب الاتفاق، وكلّ ما وُجد خلاف كانت المصادمات على أشدّها ممّا يستوجب تدخّلاً وحلّاً. {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[1].

في هذه الآية الكريمة قال شعيب عليه الصَّلاة والسَّلام: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ) ولم يقل: (وما أريد أن اختلف معكم)، فالأولى: لا تستوجب خلافًا مع ما بُعِثَ شعيب من أجله، فشعيب يدعو لما أُمِرَ به وهو الحقّ، ولأنّه على الحقّ فلا يمكن له أن يخالفه، وفي المقابل سيختلف مع الكافرين حتى يؤمنوا بالحقِّ الذي جاء به شعيب نبيًّا لله تعالى.

ومع أنَّ الاختلاف لا يكون عائقًا أمام تحقيق الأهداف المشتركة واجبة البلوغ سيادة، فإنَّه عائق أمام من لا يريد تحقيقها؛ ولذا فالنّاس مع أنَّهم في الأصل أمّة واحدة، فإنَّهم بعد الرّسالات السماوية اختلفوا، ومن ثمّ تخالفوا بعد أن أصبح البعض مؤمنًا، والبعض الآخر كافرًا، {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا

[1] هود 88.

أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}[2]، ومن هنا فلا سيادة آمنة والنَّاس على الخلاف[3].

الخلافُ مِن أجلِ السِّيادة:

الخلافُ على الوطن يجعلُ أصواتَ الاعتراضِ بين المواطنين تَرتَفعُ، وكأنَّ الأمرَ لا تحسمه حُجَّة، أمَّا الاختلافُ إن ساد بين المواطنين من أجلِ سيادتهم، سادوا في أوطانهم سادةً، وفي المقابل إن تَخالَفُوا على سيادتهم وَهَنُوا، وساد على حساب سيادتهم سادةٌ، ومن ثمَّ يُعدُّ (الاختلاف) بين النَّاس قاعدةً، أمَّا (الخلاف) فلا يكون إلَّا استثناءً.

ومع أنَّ الخلافَ علّةٌ في ذاته، فإنَّ العللَ من خلفه أكثر؛ إذ لا يحل الخلاف بشعبٍ إلَّا وعدم الاتفاق يكون سائدًا، ولا يسود الظُّلم والفساد، والحرمان، والتهميش إلَّا والخلاف سائدًا، وفي المقابل ينعدم الخلاف بسيادة العدالة بين الشَّعب وممارستهم الحريَّة بأسلوبٍ ديمقراطي.

ومن ثمَّ لن يعد الوطنُ كما يراه البعض صنمًا مثل ذلك الصَّنمُ في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعُبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهن كُلَّما رغب مطلبًا تحدَّث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول الكاهُنُ: إنَّ الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العُبَّاد مطلبه؛ بغاية نيلهم رضا الإله (الصَّنم)، وهنا بالطبع لن يعود المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد

[2] يونس 19.

[3] عقيل حسين عقيل، استرداد السيادة، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2022م، ص 44 – 52.

ينتظرون رضا المعبود من دون الله، حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب.

هكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن مِلكٌ لجميع مواطنيه سادة، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم، فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ) ما يجعل الفارق منعدمًا بين النَّاطق باسم الصَّنم، والنَّاطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صنمٍ.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب (أيّ حزبٍ) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، وأجل بقائه كاهنًا لصنمٍ لا ينطق.

وعليه: رحم الله شهداء الوطن، مع العلم أنَّه لا شهداء من أجل الوطن إنْ لم يكن الوطن للجميع سكنًا آمنًا، وعيشًا رغدًا، وسيادة وكرامة؛ وعندما يمتلك الشَّعب الوطن كلَّه تُصبح التضحيات كلُّها من أجلهم سيادة: (من أجل سيادة الشَّعب)، وعندما يمتلكه الحاكم فلا تضحيَّات إلَّا من أجل الكاهن؛ ولذا علينا أن نؤكِّد: أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، وبذلك تصبح التَّضحيات واجبةُ الأداء، والموتُ من أجله يخلق الحياة ويعد السِّيادة كلما سُلبت، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين أيَّهما

أولى: الموتُ من أجل الشَّعب؟ أم الموتُ من أجل سيادة الوطن؟

لا شكَّ أن خيار الإجابة هنا أصبح بيِّنًا، ولكن عندما يكون السّؤال:

أيهما أولى: التضحية من أجل الصَّنم؟ أم التضحية من أجل الكاهن؟

إذا قلت: لا إجابة؛ فأنت قد أجبت، وإن قلت إجابةً فستجد نفسك بين فكي كاهن الوطن، وكتائبه ذات الأنياب، وحينها ليس لك بدٌّ إلَّا الاعتراف بأنَّك لا تزيد عن كونك عاملًا في مزرعة الكاهن، الذي له حريَّة التصرُّف في مزرعته بيعًا، واستغلالًا، أو أن يتركها أرضًا بورًا، وكلُّ هذا كي لا تحلم بأنَّ لك سيادة، أو أنَّك مواطنٌ حرٌّ في وطنك، وإن صدَّقت نفسك في غير ذلك فستكتشف يومًا أنَّك أوَّل من كَذَبَ على نفسهِ.

ولهذا فالكاهن الذي يُنصِّب نفسه كاهنًا على الوطن لن يكون الوطن في زمانه إلَّا صنمًا، ومن ثمَّ فلن تجد التضحيات مكانًا لها لتحلَّ فيه.

وعليه:

فمن يرى نفسه في الوطنِ خليفةً، أقول: لقد انتهى زمن الخلافة؛ إذ لا وجود لخليفةٍ قد صَاحَبَ رسول الله -عليه الصَّلاة والسَّلام-، كما هو حال: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)، ولهذا فالأحزاب التي تدَّعي أنَّها الخليفة، أو إنَّها قادرة على إعادة نظام الخلافة (هو كما هو)، فهي كمن يرى نفسه قادرًا على إيقاف حركة التَّاريخ عند دائرة من

دوائره دون غيرها؛ وذلك من خلال إدارة عجلته إلى الخلف، حتى يقف عند ذلك العصر، الذي كان فيه نظام الخلافة مناسبًا في دائرة النسبيَّة، وهو ذاته النظام الذي لن يكون مناسبًا لعصر الدَّولة الوطنيَّة ، وفي المقابل مَن يرى نظام الخلافة مناسبًا فَرؤاهُ لا تزيد عن كونها رؤية كاهن يريد أن يخدع النَّاس ويرهقهم بمطالب الإله (الصَّنم)، وإذا ما تحقق ذلك فلن يكون إلَّا على حساب السِّيادة الوطنيَّة، التي لا ينبغي أن يكون شيئًا على حسابها.

ومن ثمَّ أقول: لقد انتهى زمن الأصنام، وكُهَّانها برسالة محمَّد رسول الكافَّة -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأنَّ لكلِّ دائرة من دوائر التَّاريخ خصوصيَّة ينبغي أن تُقدَّر، وأن تؤخذ العِبر منها؛ بتجنُّب ما يجب تجنُّبه، والأخذ بما ينبغي أخذه.

ومن هنا أقول لمن يريد إعادة نظام الخلافة الرَّاشدة: عليك بإعادة أبي بكر الصّدِيق، وعمر بن الخطَّاب -رضي الله عنهما- أحياء على قيد الحياة، وفي المقابل من يريد أن يكون خليفة في عصره فعليه بالدَّولة الوطنيَّة خليفة؛ حيث الحقوق تمارس عن إرادةٍ، والواجبات تؤدَّى عن رغبة، والمسئوليَّات تُحْمَلُ مع تحمُّل ما يترتَّب عليها من أعباء جسام، ومن ثمَّ فلا خليفة في الوطن إلَّا الشَّعب وسيادته الحرَّةُ دون سواه.

السِّيادة بين كسرٍ وصون:

السِّيادة الوطنيَّة لا تكون على أرض الواقع إلَّا كرامة متحقّقة؛ إذ الحقوق تمارس، والواجبات تؤدّى، والمسئوليَّات تحمل، والدّستور كفيل بضبط العلاقات السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة رقابةً وتقويمًا، ولا إقصاء ولا تغييب

ولا تهميش، والحريَّة تمارس بكل شفافيّة مما يجعل القيم بين أبناء الشعب متجسدة في القول والفعل والعمل، وكذلك تكون حاجات النَّاس مشبعة؛ حيث الملكيّة حق للجميع دون أن يتمدد مواطن على حريّة مواطن آخر، ومن ثمّ لا كلمة فصل بين النَّاس إلَّا العدالة المستندة على الدّستور المستمد من العرف والدين.

ومن هنا فالسِّياسة الوطنيَّة لم تكن علمًا مقولبًا، بل هي فن الخروج عن المقولب دون إضاعة للوقت ولا إضاعة للسُّبل المؤدّية إلى تحقيق الرّؤية المرسّخة للسّيادة، ولأنَّها السِّياسة المرسّخة للسّيادة فالخروج عن المقولب سياسة يستوجب أسلوب يخرج الشعرة من العجين بغاية الحفاظ على الهوية.

ولأنَّ ميادين السِّياسة واسعة وذات اتجاهات ومرامي مختلفة ورؤى متخالفة، وأهواء متنوّعة، ورغبات متضادة؛ فالنسيج السّياسي بها يستوجب الأخذ من كلِّ صغيرةٍ كبيرةٍ.

إذن: لا سياسة إلَّا والغايات من ورائها، ومن وراء الغايات مأمولات، ومن ثمَّ فالبعيد من الغايات بالنسبة إلى السّياسي لا يكون إلَّا قريبًا، والقريب في مستهدفاتها من أجل السِّيادة الوطنيَّة قابل لأن يستبدل من أجل المأمول ولو كان بعيدًا.

أمّا المبادئ السِّياسيَّة والأخلاقيّة فلا تزيد عن كونها قنطرة عبور لتجاوز الأماكن الوعرة؛ ولذا فاختصار الطرق يمكّن من بلوغ الغايات، فمكيافيلّي على سبيل المثال: يُغلّب السِّياسة على الأخلاق؛ ولذا فهو يتنكر صراحة لجميع

الفضائل الأخلاقيَّة حين يبرر استعمال كلّ الوسائل لتحقيق الغايات السِّياسيَّة وفقًا لقاعدة: (ما هو مفيد فهو ضروري).

وعليه: فمفهوم السِّياسة يعني: تسيير شؤون الأفراد والجماعات ودواليب الدَّولة بحكمة مع استيعاب للمختلف والمخالف دون التفات إلى الخلف، ولا توقّف عند النوايا، وبمنطق السِّياسة؛ فالسّياسيّون يقبلون بتقديم التنازلات القريبة من أجل الغايات الممكّنة من النفوذ وتفاديًا للشّر؛ فكما قال تولستوي: إنَّ الشرّ لا يقتل الشّرّ كما أنّ النّار لا تطفئ النَّار، ولهذا في السِّياسة المجانبة قبل المواجهة، وإيقاظ ضمائر النّاس يحول بين المظالم وإيقاد نار الفتنة.

ولأنّها السِّياسة؛ فإنَّها بين السِّياسيين الكبار بين لين وشدّة، ميدانها النضال السّلمي والاجتهاد مع مواجهة الحُجَّة بالحجّة، وهذا الجناح على رأسه: مهاتما غاندي، ومارتن لوثر كينغ، ونيلسون مانديلا، وهي عند هتلر وستالين وموسوليني وفرانكو وغيرهم من الطّغاة والديكتاتوريين الذين أباحوا استخدام أشنع أساليب القمع والاضطهاد من أجل غايات رسموها لأنفسهم، لا تزيد عن كونها غاية لتبرير الوسيلة كما جاءت في كتاب الأمر لمكيافيلي.

ولأنَّ السِّياسة بين لين وشدّة؛ كان السّاسة منقسمين بين هذه وتلك، فمنهم من كان عادلًا حتى قُتل في عدله كما هو حال الخليفة عمر ابن الخطاب، وهناك من كان ليّنا متسامحًا حتى قُتل في لينه وتسامحه كما هو حال غاندي، وهناك من كان على عهده فأوفى كما هو حال الرّئيس السوداني الأسبق عبد الرّحمن سوار الذّهب الذي قاد ثورة

شعبيّة على النميري وسلّم السّلطة للحكومة المنتخبة في العام التّالي.

وفي المقابل كان الكُثر من الأشدّاء الطّغاة والدّكتاتوريين؛ حيث مات من مات منهم على ظلمه، وقُتل من قُتل بأسباب طغيانه، وانتحر من انتحر، وسقط من سقط كرها.

وبين هؤلاء الليّنين وأولئك الطّغاة جاءت حكمة إبراهام لنكولن: (عندما ينتزع الرّاعي عنزة من براثن ذئب تعدّه العنزة بطلًا، أمَّا الذّئب فيعدّه ديكتاتوريًّا).

ولأنَّها السِّياسة؛ فمن دخل ميادينها قَبِل بأن يكون له مخالفون، وأعداء، وبطانة ظلّ، وقليل من النَّاصحين، وأقل بكثير من المناصرين؛ ولذا فإن قَبِل بذلك قبِل بالاختلاف والخلاف سياسة، وإن رفض ذلك فلا مستقبل له في ميادين السِّياسة، وهنا يقول شارل ديغول: (أحترم من يقاومونني، لكنّني لا أستطيع احتمالهم).

والسِّياسة دوائر متداخلة؛ فبأسبابها تمارس الحرّيَّة التي بها يؤسِّر النّاس وتسود السِّيادة، وبالأسباب ذاتها حريّة النّاس تقيّد؛ فيُسجن البعيد الذي لم يقبل بانحناء ظهره، ويفرج عن القريب الذي قَبِل بانحنائه؛ ولذا كما قال مارتن لوثر كينغ: (لا يستطيع أحدٌ ركوب ظهرك إلّا إذا انحنيت). ويقول لنكولن: (انهضوا أيّها العبيد فإنّكم لا ترونهم كبارًا إلّا لأنّكم ساجدون). فمن يقبل بانحناء ظهره لغير الله لن يستطيع من بعده رفع رأسه، وفي المقابل من يقبل أن يكون نظيف الجانب لا يطأطئ رأسه، ولكنّ إن قبِل بذلك فعليه بدفع

الثّمن؛ فكما يقولون: (التوب الأبيض لا يقبل التشويه، وكلّما كان التوب أكثر نصعًا كانت اللطخة عليه أكثر وضوحًا).

ولأنَّها السِّياسة؛ فالسِّياسة أم السّلطان وربّ الحكومة التي إن تمكّن منها من تمكّن معرفةً ووعيًا أصبحت دواليب السِّياسة بين يديه، وإن مُكّن منها من مُكّن من طرف الحاكم فلا يكون إلّا أداة طائعة لأمره؛ إذ لا رأى له ولا رؤية ولا خطّة، ومن ثمّ لا تستطيع الحكومة أن تنهض بالبلاد، وهنا يقول روزفلت: (أفضل العقول ليست في الحكومة، فلو كان الأمر كذلك لكانت الشركات قد استقطبتهم للعمل بها، فالحكومة لا تحلّ المشاكل، بل تدعمها).

وعليه: عندما تصبح الحكومة وإجراءاتها داعمة للمشاكل لا شكّ أنّها ستكون أكبر مستفزٍّ وأكبر محفّزٍ للشّعب على التمرّد والثّورة والتظاهر في الميادين العامّة، ويكون السّاسة المعارضون مختبئين خلف المتظاهرين، حتى يُحسم الأمر انتصارًا وتُصبح أصواتهم مرتفعة من على منصّات الخطابة، وكذلك من خلال شاشات التلفزة، كما تصبح أسماؤهم بالخطّ العريض متصدّرة عناوين الصّحف، وفي المقابل هؤلاء المتصدّرين إن لم يُحسم الأمر لصالحهم فسيكونون آخذين بمقولة هاري ترومان: (إذا كنت لا تستطيع إقناع الخصم، حاول أن تسبب لهم الارتباك).

ولكن إن تمكّنوا من إدارة شؤون الدَّولة، فخطابهم تارة بين صواب وخطأ، وتارة أخرى بين يسار ويمين، وتارة ثالثة بين حلال وحرام، هكذا هي السِّياسة مختلفة باختلاف اتجاهات السّاسة، وهكذا هم يتبدّلون، وفي هذا الشأن قال

نيكيتا خروشوف: (السّاسة هم أنفسهم في كلّ مكان يَعِدون ببناء الجسور حتى لو لم يوجد نهر).

ومع أنَّ السِّياسة هي السِّياسة، فإنَّ اتجاهات وأفكار السِّياسيين تتبدّل؛ فهم ساسة كما يكتمون سرّا به يبوحون، وفي المقابل هم يغضبون ممن يبوح بسرّ من أسرارهم، وقد يدفّعونه الثّمن غاليًا، ولهذا يقول سقراط: (أكتم سرّ غيرك كما تحبّ أن يكتم غيرك سرّك، وإذا ضاق صدرك بسرّك فصدر غيرك به أضيق).

وعليه: فإنَّ القِمَمَ السُّلطانيَّة متى ما رأت نفسها قمّمًا سقطت، ولكن إن عرفت أنَّ الشّعب يراها قمّمًا، فعليها بالاعتزال قبل أن يغيّر الشّعب رأيه؛ فرأي الشَّعب لابدّ أن يتغيّر بتغيّر اتجاهات وسياسات ورؤى الحكَّام وحكوماتهم، وهكذا هي السِّياسة التي مثلما تكون سببًا في كسر السِّيادة فهي أن خلصت وطنيَّة تصبح قادرة على جبرها واستردادها.

ولأنّها السِّياسة فلها من الهوامش ما يُمكّن من ممارسة الديمقراطيَّة، التي تسمح لك بأن تنتخب من تريد بدرجة عالية، كما تسمح لك بأن تختار من تكره بدرجة أقل، وهنا يقول أوسكار وايلد: (الديمقراطية تعني ببساطة ضرب الشّعب بالهراوات بواسطة الشّعب لصالح الشّعب).

ومع أنَّ الدّيمقراطَيَّة كلمة حقّ فإنَّها في حاجة لمن يقولها دون لبس، وفي حاجة لمن يفهمها دون غموض، ومن ثمَّ فبشأنها تسنّ القوانين، ولكن أيّة قوانين؟

هناك من القوانين ما يرسّخ المظالم ويزوّر الحقائق، وهناك من القوانين ما يرسّخ كرامة الإنسان وسيادته ويمكّن

من ممارسة الحريَّة، وهنا يقول سبنوزا: (إنَّ القوانين التي تلجم الأفواه وتحطّم الأقلام تهدم نفسها بنفسها)، ويقول مارتن لوثر كينغ: (المصيبة ليست في ظلم الأشرار، بل في صمت الأخيار).

وعليه: فالسِّياسة كما تقود إلى الاحتواء تقود إلى التكتّل، وهي كما تؤدّي إلى تقبّل الآخر وتفهّم ظروفه، تؤدّي إلى فتح أبواب التحاور والتفاوض معه متى ما لزم الأمر.

ومع أنَّ السِّياسة علم إدارة العلاقات وفنّها بين الأفراد والشُّعوب والأمم والدّول، فإنَّها إن كانت بين المواطنين فتنة كسرت السِّيادة وضيّعت الهويَّة، وإن كانت سياسة ضميريَّة فحسن التدبُّر عقل رجالاتها فكرًا وعملًا ودرايةً، حتى يُعاد المنهوب والمسلوب والمعتدى عليه من الذين اعتدوا، وبهذه النظرة فهي لا ترى السِّيادة إلَّا رأسمال الدَّولة الوطنيَّة، كونها العنوان الذي تُبذر فيه الإرادة بين الشَّعب، فتنمو محبَّةً، وثمارها تتدلّى بين أيدي النَّاس تيجانًا فوق رؤوسهم قِمَّة، والعدل إن ساد بينهم سادوا مكانةً مثل النجوم في سمائها رفعة، والوطن هويّة الشّعب إرادة الأمَّة.

ولذا فالوطن بهذه الصُّورة أنموذج لإنتاج العلاقات: مودَّةً، واستيعابًا، ومشاركةً؛ إذ لا حرمان، والملكيَّة حقّ مواطنة فلا استغلال، ولا قيود تحول بينها وبين الرَّغبة والإرادة والقدرة والسِّيادة.

ومع أنَّه الوطن فإنَّ الفتنة فيه أشدُّ من القتل؛ ذلك لأنَّها ترويجٌ للمعيبات مع كمٍّ من الدّسائس، فهي المتلوّنة في كلّ عصر، ففي عصرنا: لِحَافها من طبقتين: (دين، وسياسة) مرّة بمرة، ومرّة بلا لون، وبهذا التلوّن ستظل

الفتنة مستمرّة ليس في بقاء أثرها فقط، وإنّما في ممارستها من خلال التعمّد والإصرار على هذا التلوّن، هكذا هي الأوراق تُخلط، حتى أصبح الدّين عند البعض وكأنَّه لا يزيد عن عمامةٍ توضع فوق الرأس، مما جعل مكامن أسرارهم تتربص بالقول: (حلال لنا وحرام عليكم)؛ ولهذا فالفتنة كما تنام في التَّاريخ تنام في الصّدور وتفسد السِّيادة وتضيع الهويَّة، ولأنَّها النَّائمة فهي دائمًا على أعتاب الإيقاظ، فبالنّسبة إلى النَّائم لم يكن بعد النَّوم إلّا الإيقاظ، ومع ذلك قد يحدث الإيقاظ قبل موعده من قِبل موقظٍ مُفزعٍ كما هو حال الفتنة التي يتمّ إيقاظها من قِبل مُفزعين.

ومع أنَّ الوطن واحدٌ فإنَّ الشّخصانيَّة فيه مثل الفتنة، متنوّعة متبدّلة فهناك من يرى نفسه أفضل من الجميع: (مالًا، أو علمًا، أو دينًا، أو قبيلةً، أو حزبًا، أو عُدَّةً وعتادًا) ووفقًا لأيّ نظرة من هذه فلا نتيجة لأيٍّ منها إلَّا شخصنة الوطن، الذي لا ينبغي أن يشخصن فتنة؛ ولذا وجب رفض عناوين الشَّخصنة، التي تحاول أن تسود عبثًا على حساب سيادة الوطن، أو أن تشعل نار الفتنة؛ لتسود على حساب سيادته.

ولهذا فمنذ القدم لم تتغيّر قواعد لعبة الفتنة والصِّراع على السُّلطة؛ فكلّما تخلّصت الشُّعوب من غازٍ أعقبه قاطع طريق، وكلّما رحل مستعمر خلّف محله وريث، وكلّما ثارت الشُّعوب على ظالم أعقبته مجموعة من الظَّلمة، وفي المقابل نضال الشُّعوب وثوراتهم لن يتوقّفا، حتى يحسم الأمر وعيًا وطنيًّا به تُسترد السِّيادة.

وفي مثل هذه الألاعيب لا تزيد المبادئ السِّياسيَّة والأخلاقيَّة عن كونها قنطرة عبور لتجاوز الأماكن الوعرة كما

يراها مكيافيلّي: (ما هو مفيد فهو ضروري)، أي: وبأيّ وسيلة وبأيّ ثمن.

ولهذا فالسِّياسة تسيير شئون الأفراد، والجماعات، ودواليب الدَّولة الوطنيَّة بحكمةٍ، مع استيعاب للمختلف والمخالف دون التفات إلى الخلف، ومن ثمَّ فلا توقّف عند النّوايا؛ وبمنطق السِّياسة: السياسيّون يقبلون تقديم التنازلات القريبة؛ من أجل الغايات البعيدة الممكّنة من النفوذ، وتفاديًا للشّر؛ فكما قال تولستوي: إنَّ الشرّ لا يقتل الشّرّ كما أنَّ النَّار لا تطفئ النَّار؛ ولهذا تجد في السِّياسة المجانبة قبل المواجهة، وإيقاظ ضمائر النَّاس يحول بين المظالم وإيقاد نار الفتنة.

ولهذا فالسِّياسة دوائر متداخلة، وبأسبابها تمارس الحريَّة التي بها يُؤسَر النَّاس، وبالأسباب ذاتها حريَّة النَّاس تُقيَّد؛ فيُسجن البعيد، وكل من لا يقبل بانحناء ظهره، ويُفرَجُ عن القريب، وكل من يقبل بالانحناء، وهنا قال مارتن لوثر كينغ: (لا يستطيع أحدُ ركوب ظهرك إلّا إذا انحنيت)، ويقول لنكولن: (انهضوا أيّها العبيد، فإنّكم لا ترونهم كبارًا إلّا لأنّكم راكعون)، فمن يقبل بانحناء ظهره لغير الله لن يستطيع من بعده رفع رأسه، وفي المقابل من يقبل أن يكون نظيف الجانب لا يطأطئ رأسه، ولكن إن قبِل بذلك فعليه بدفع الثّمن، فكما يقولون: (الثوب الأبيض لا يقبل التشويه؛ وكلّما كان الثوب أكثر نصاعة كانت اللطخة عليه أكثر وضوحًا).

وعليه: عندما يصبح النِّظام وحكومته وإجراءاتهما داعمة للمشاكل، لا شكّ أنَّهما سيكونان أكبر مستفزٍ، وأكبر محفّزٍ للشّعب على التمرّد، والثّورة، والتظاهر في الميادين

العامَّة، ويكون السّاسة المعارضون مختبئين خلف المتظاهرين؛ حتى يُحسم الأمر انتصارًا؛ فتُصبح أصواتهم مرتفعة من على منصَّات الخطابة، وكذلك من خلال شاشات التلفزة، كما تصبح أسماؤهم بالخطّ العريض متصدّرة عناوين الصّحف.

وإنْ لم يُحسم الأمر لصالح هؤلاء السَّاسة المتصدرين للمشهد السّياسي، فسيكونون آخذين بمقولة هاري ترومان: (إذا كنت لا تستطيع إقناع الخصم، حاول أن تسبب له الارتباك) هكذا هي الفتنة، وهكذا هم رؤوسها، وفي المقابل إن تمكّنوا من السّيطرة على إدارة شؤون الدَّولة، فخطابهم تارة بين يسار ويمين، وتارة بين حلال وحرام، وهكذا هم يتبدّلون، وفي هذا الشأن قال نيكيتا خروشوف: (السّاسة هم أنفسهم في كلّ مكان، يَعِدون ببناء الجسور حتى لو لم يوجد نهر)؛ ولذ فمن أراد ان يكشف امر الفتنة الوطنيَّة ويحرق اوراقها فعليه بعدم القبول بأن يكون ذيلًا لأحدٍ ولو كان الرأس اسدًا، ومن أراد السّداد فعليه بأخذ الحيطة والحذر من ألاعيب السّاسة.

ومع أنَّ السِّيادة العظيمة لا تكون ألَّا سيادة وطن فإنَّ البعض لا يرى سيادة للوطن إلَّا بسيادته على سُدّة الحكم، ووفقًا لهذا المفهوم ساد بعض النَّاس على البعض سادة، وسادت قبيلة على قبيلة، وساد حزب على حزب أو أحزاب أخرى، أو أنَّه ساد على بقيّة ألوان الطيف في الدَّولة، ومع ذلك نضال الشُّعوب لم ينقطع عبر التَّاريخ من أجل استرداد السِّيادة.

فمن أجل استرداد السِّيادة الوطنيَّة كان ما قبل القرن الواحد والعشرين للنضال القومي معنى، وللثّورة القوميَّة معنى، وكذلك كان للتنظيمات الدِّينيّة دلالة ومعنى، وكانت للأحزاب العقائديَّة دلالة ومعنى، أمَّا اليوم فإنَّ للقرن الواحد والعشرين لغة ومنطقًا ودلالة ومعنى جديدين، بالأمس فقط كان الصّراع في العراق بين سنّة وشيعة وعرب وأكراد وتركمان وفرق متلوّنة بألوان الطّيف العراقي، واليوم وغدًا سيكون الصّراع ليس من أجل السنّة أو الشّيعة أو الأكراد أو التركمان أو غيرهم من المسمّيات الأخرى، بل الصّراع الحتمي أصبح لغة ومنطق القرن العشرين من أجل الوطن الواحد الذي فيه يكون المواطن قادرًا على ممارسة حقوقه كيفما يشاء الجميع، ويؤدّي واجباته فيه كيفما يشاء الجميع، ويحمْل مسئوليَّاته فيه كيفما يشاء الجميع.

ولذا فإنَّ منطق ولغة القرن الواحد والعشرين تؤكد بحقٍّ أنَّ الوطن للجميع، والثّروة فيه للجميع، والسِّياسة فيه تُرسم إستراتيجيَّاتها من قِبل الجميع، والمكوّن الاجتماعي هو المكوّن الوطني من الحدود إلى الحدود، فلا مكان للفُرقة ولا الفرق المدفوعة برؤاها الخاصّة وأيديولوجيّاتها الخاصّة وأنانيّتها الخاصّة، وثقافتها الخاصّة، وتفسيراتها الخاصّة فالكلّ يتحرّك ويعمل من أجل السِّيادة الوطنيَّة، ولذا فلا قائد يجمع هذه المتناقضات ويصهرها في بوتقة واحدة إلّا المشاركة الممكّنة من ممارسة الحريّة التي تجعل للمواطن هويَّة وللوطن سيادة.

ومن هنا لن تكون للطَّائفيّة مكانة تتربّع عليها من أجل أن تبلغ قمّة سُلم السّلطان، ولن تكون للقبليّة مكانة بها تتمكّن من بلوغ التربُّع على قمّة سلم السُّلطان؛ فالطائفيَّة

في لبنان وإن استظل تحت مظلتها من استظل فهي لا تشبع حاجة اللبنانيين بدفء الوطن؛ ذلك لأنَّ حبّ الوطن لا يستمدّ إلّا منه، أمَّا الطائفيَّة فلا يمكن لها أن تملأ أنفس اللبنانيين حبًّا إذا ما سادت وحلّت محلّهم على قمّة سلّم السُّلطان.

ولهذا فإنَّ دفء الوطن لا يستمدّ إلّا منه، والمواطن لا يمكن أن يكون مطمئنًا ودافئ القلب إلّا إذا أصبح جميع المواطنين متساوين فيما لهم وما عليهم تحت مظلة الوطن سيادة الجميع.

وعليه: فإنَّ الشّعب عند ما يقرّر الجلوس تحت مظلة الوطن الواحد سيادة، يستطيع أن يتحدّى الجبابرة والظَّالمين ويثور على كلّ المسمّيات التي كانت سائدة في القرن العشرين تحت عناوين النضال وما شابهه من عناوين متلوّنة أكل الدّهر وشرب عليها؛ فيستطيع أن يقرّر اختياراته ويرسم سياساته وإستراتيجيّاته وما يُمكِّنه من صناعة المستقبل المأمول نهضة وسيادة.

ففي القرن العشرين كانت الحزبيَّة من وجهة نظر البعض هي الأداة الفاعلة من تمكين الشّعب من المشاركة في إدارة شؤون البلاد، ممّا جعل رُحى الصّدام والتطاحن والتآمر تدور بين أبناء الوطن المنقسمين بين أحزاب وطوائف وفئات ومسلمين ومسيحيين وسنّة وشيعة وزيدية واثني عشريّة وأوس وخزرج ومهاجرين وعائدين من المهجر، وكلَّها مسمّيات هي أقرب لإيقاد نار الفتنة من إطفائها.

ولأنَّ هذه معطيات فتنة بين أبناء الوطن الواحد، جاء القرن الواحد والعشرون بقوّة جمعت كلّ هذه المسمّيات ووضعتها في سلّة المهملات وتظاهر المواطنون في ميادين تحرير الأوطان ليقولوا بصوت واحد للذين عملوا كلّ ما في وسعهم من أجل تكميم أفواه المواطنين كرها، ارحلوا خيرًا لكم من أن تُرّحّلوا؛ فجاء الرّحيل مصحوبًا بلغة جديدة تقول: الوطن للجميع؛ ولذا فلا يحقّ لأحدٍ احتكاره ثروة وسلطة وسيادة، ومن هنا كان التساقط ورقة بعد ورقة.

وفي القرن العشرين كانت الثّورات تتفجّر بزعماء وقادة ومفكّرين وأصحاب قضايا، ومن ثمَّ لم يكن متوقّعًا أن تتفجّر ثورة بغير ذلك سوى الانقلابات العسكريَّة، ولكن اليوم في هذا القرن المليء بالمفاجآت أصبحت الثّورة تتفجّر بالمواطنين، وإن تنوّعت معتقداتهم وأديانهم وثقافاتهم وقبائلهم وطوائفهم وأحزابهم وأعرافهم؛ ولذا فإنَّ ثورات الصفوة مع أنَّها ثورات، إلّا أنَّها في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع قابلة لأن تورّث، أمَّا ثورات الشُّعوب فلا تورّث، ولهذا فهي الثّورات الباقية إلى النهاية في ميادين صناعة التَّاريخ واسترداد السِّيادة.

الإرادةُ

الإرادةُ لا تكون إلَّا بيد من يمتلكها قرارًا وتنفيذًا، وهي التي بها تمارس الحقوق، وتؤدّى الواجبات، وتحمل المسئوليَّات وعيًا ورغبة.

ولأنَّ كلمة الإرادة جاءت من الفعل: (أراد - يريد ـ إرادةً) فإنَّ الذي (أراد) أنْ يكون حرًّا ليس له إلَّا أن يمتلك إرادته ويحافظ عليها، أمَّا الذي (يريد) إرادته ليس له إلَّا المطالبة بها، حتى يتمكّن منها حصولًا، أمَّا مفهوم (الإرادة) فيعني امتلاك زمام الأمر سواء أكان الأمر بيد صاحبه أم بيد غيره؛ ولكن عندما يكون أمر الإرادة بيد صاحبها فصاحبها يوصف حرًّا، وعندما يصبح أمرها بيد الغير يكون أمر صاحبها بلا إرادة.

ولهذا فالإرادةُ قرارُ اختياري يؤخذ بوافر الرَّغبة تجاه كلِّ ما من شأنه أن يحقّق الرّضا في حدود الوعي بما يجب وبما لا يجب، مع تحمُّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليَّات، وهي وثيقة الصّلة بالوعي بعزيمة تحقّقها وتخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويَّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

ومع أنَّ الإرادة شيء معنوي، وأمرها يتعلّق بالحريَّة، فإنَّها عندما تتجسّد في الفعل والعمل والسُّلوك الممارس لها تتعرَّض للتقويض المؤلم من قِبَلِ المتحكِّمين في الأمر.

ولذا فالإرادة ملكيّة خاصّة، لا يتصرّف في شؤونها إلَّا من يمتلكها قرارًا وتنفيذًا؛ إذ لا إجبار ولا إكراه في إدارتها وإظهارها وتتويجها في ميادين الفعل، وهي لا تدار إلَّا عن رغبةٍ، مع العلم أنَّ إدارتها بكلّ حريَّة ترتِّبُ على من يمتلك شؤونها تَحمُّل ما يترتّب عليها من ردّة فعلٍ وأعباءٍ جسامٍ.

ومن ثمَّ فمن يمتلك الإرادة يستطيع أن يقرّر إيجابًا أو سلبًا، ومن لا يمتلكها يعدُّ مملوكًا لغيره (المتحكم في شؤونه)؛ ولهذا لا إمكانيَّة لممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي إلّا عن إرادة، ولا يمكن أن يكون الإنسان متطرِّفًا إلَّا بعلل التحكم في الإرادة، أي: كلَّما اشتدّت آلام التحكُّم في إرادة الإنسان اندفع تجاه الرَّفض، والتمرّد، والثورة، وقبول الموت من أجل الحريَّة.

والإرادة في دائرة الممكن قد تكون مسئولة وقد لا تكون؛ فعندما تكون مسئولة تحقِّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف، والتقدير، وتزيده ثقة، وعندما لا تكون مسئولة لا تحقّق لصاحبها الاعتبار ولا الاعتراف ولا التقدير، بل قد تضعه في السّجن أسيرًا بين الجدران، ومع ذلك لكلٍّ مبرّره، والمهم في هذا الأمر بما أنَّها الإرادة؛ فهي الدّالة على معرفة الحقيقة ولو تمَّ إنكارها اضطرارًا.

وعليه: ينتفي الإرغام والإكراه وكلّ أساليب الإجبار المهينة إذا وعى الإنسان إرادة بما يعمل أو يفعل، أو حتى فيما يفكّر، ولِم يتهيَّأ؛ ولمن يستعدّ؟ ومتى يتأهّب؟ وبماذا؟

فالإرادة هيّ قيمة تحقيق المكانة التي يسعى النَّاس إليها، ممّا يجعل المستهينين بالآخرين مستهانًا بهم سواءً أكانوا على دراية بذلك أم لم يكونوا، ومن يجعل للآخرين

مكانة يجد له عندهم مكانات، ومن يعتبر ويتّعظ لن تكون له حاشية إلّا من المتّعظين، ومع ذلك في دائرة الممكن كلّ شيء متوقّع فلا داعي للغفلة، ولا داعي لاستغفال الآخرين، ولا داعي لسلب إراداتهم إن أردنا حياة بلا تطرُّف.

ولأنَّ الإرادة حقّ؛ فينبغي لها أن تمارس بحرّيّة في دائرة ترسيخ الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، ولأنَّها حقّ ينبغي لنا الاعتراف بممارستها؛ ولهذا يسعى الإنسان دائمًا لنيل الاعتراف؛ لأجل تبوء مكانة اجتماعيَّة، أو علميَّة وإنسانيَّة.

ومن هنا ينبغي لنا أن نميّز بين الإرادة الفرديَّة والإرادة العامّة؛ فالإرادة الفرديَّة هي في حدود الخصوصيَّة التي تتساوى فيها مع خصوصيَّات الآخرين دون اختلاف، وإن كان هناك تنوّع وتعدّد.

أمَّا الإرادة العامّة؛ فهي التي يتمُّ توصيفها بصلاحيَّات واختصاصات تشريعيَّة وقانونيَّة، وهي القابلة للتقييم والتقويم وفقًا لمعايير موضوعيَّة متّفق عليها بمقاييس الجودة؛ ذلك لأنّ الإرادة قرار يحمل مسئوليَّة، والمسئوليَّة لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب عليه.

ولأنَّ الإرادة نتاج قرار قابل للتنفيذ؛ فهي بعد التنفيذ تُمكِّن من تحمُّل أعباء المسئوليَّة دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل من دون توافر الإرادة فقد لا يحقِّق للفعل إنجازًا موجبًا، أو لم يُنجز أصلًا بأسباب الإجبار والإكراه، أو بأسباب الخوف والتردّد.

ومن ثم فإنَ الإرادة المسئولة هي الإرادة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب من أعباء جسام، ومن هنا فلا يترتّب ندم في نفس من أقدم على أدائها؛ ولهذا يكون لكلِّ شيء قاعدة إصلاحيَّة واستثناء إفسادي، فمن يقرّر أن يواجهك عن إرادة فعليك ألا تستهين بالأمر، وعليك أن تعرف أنَ الإرادة كفيلة بأن تُنجز في دائرة الممكن غير المتوقَّع ما لم يكن في دائرة الممكن متوقعًا[4].

فالإرادة قرار يحمل مسئوليَّة، والمسئوليَّة لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمَّله الإنسان مع وافر الرّضا بما سيترتّب على ما أقدم عليه من أخذ ببديل على حِساب بديل آخر، سواءً أكان ذلك المترتّب سالبًا أم موجبًا.

ويتصوَّر كثير من النَّاس أنَ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك لكان المسميان لمعنى واحد، والدّليل على ذلك أنّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنَّها تختار أحدهما أو تستبدله دون الآخر، وكذلك فإنَ الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها تجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

والاستبدال إمَّا أن يكون بين أمرين، أو بين اختيارين وفقًا لِما تمليه القيم، أو ما تمليه المصلحة، أو حتّى ما تمليه الأطماع، وإمَّا أن يكون الاستبدال الإرادي من متعدّد البدائل؛ فالإنسان بإرادته الحرّة يستطيع أن يختار أو يستبدل ما يشاء وفقًا لتفضيلاته، أو وفقًا لِما هو أقلّ ضررًا، أو لِما هو أكثر ضررًا من غيره؛ فأصحاب الشرّ لا يفضِّلون غيره بإرادة،

[4] عقيل حسين عقيل، الإرهاب بين قادحيه ومادحيه، ص 39 ـ 43.

وأصحاب الخير لا يفضّلون غيره، وهكذا كلّ شيء بإرادة، ومن بين هذا وذاك في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، يستطيع الإنسان أن يُرتِّبَ بدائله، وفقًا للمتاح مع مراعاته الظّرف الزّماني والمكاني، ولكلِّ خصوصيّة لا تتطابق مع خصوصيَّات الآخرين وإن تماثلت معها.

ولأنَّ العلاقة قويَّة بين الإرادة والاختيار والرَّغبة في الاستبدال، ودرجة التفضيل بين ما هو قابل للاختيار منه، أو قابل لاستبداله بالكامل، فإنَّ التقييم للاستبدالات أو الاختيارات والتفضيلات يُسهم في تهذيب الإرادة وتطويرها وتغييرها من أجل استبدال ما هو أفضل أو أنفع، وهكذا تتحسّن الأحوال وتقوَّم من قِبل الواعين بما يجب وبما لا يجب؛ لتكون السُّبل ممهّدة تجاه غايات مستنيرة بالحقّ، وموجبات إحقاقه.

فالاستبدال الإرادي هو في واقع الأمر تقديري، بمعنى: أنَّه يقوم على تقدير الأنا للقيمة المفترضة، ثمَّ تقييم تلك القيمة وصولًا إلى قرار الضّرورة الإرادية للاستبدال، فالتعويض مثلًا: هو استبدال إرادي لفاقد يجب تعويضه؛ لضرورة أو لرغبة أو حاجة[5].

والإرادة التي لا اختيار إلّا بها، ولا تقليد إلّا بها متى ما كانت واعية بما يراد، كان الاختيار صائبًا، ومتى كانت غير واعية بما يُراد فلا تكون إلّا خاطئة، ومن هنا يقع البعض في أعمال التطرُّف وهو لا يدري حقيقة أمره في هذا الشأن المضاد للقيم والقوانين.

[5] عقيل حسين عقيل، خريف السلطان (الرحيل المتوقّع وغير المتوقّع)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت،2011م، ص 117.

والإرادة قوّة اتخاذ القرار بلا مؤثرات خارجيَّة كابحة، فبها تحدّد الأهداف وتنجز، وبها تحدد الآمال وتنال، وهي التي تعطي للتخيير معنى ودلالة، وبالتَّالي: إن كان الاختيار موجبًا كان توظيف الإرادة موجبًا بناء وإعمارًا، وإن كان الاختيار سالبًا كان التوظيف هدّامًا ما يجعل السُّلوك بين انحرافٍ وعنفٍ وتطرُّفٍ.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على التّسيير فيما لا طاقة له به، فإنّه كذلك خُلق على التخيير فيما لا تسيير فيه؛ فهو بالنّسبة إلى المستحيل والمعجز مسيّر، أمّا بالنّسبة إلى دائرة الممكن؛ فهو مخيّر بين متوقّع وغير متوقّع وفقًا للإرادة والمقدرة، وبالتالي له الحق أن يختار ما يشاء وفقًا للقيم والأعراف والقوانين المنظمة للسُّلوك والضابطة له، أمَّا في غير ذلك فليس له حقٌّ، ومع ذلك قد يمتدّ البعض على حساب حريّة البعض، ومن هنا يحدث التَّماس والصِّدام والخصام، بل وتحدث المواجهة وارتكاب أفعال التطرُّف وأعماله.

فالإنسان خُلق على الفطرة والتقليد، وهو في أحسن تقويم، ثمّ جاء الإنباء ميسّرًا لما تعسّر أمامه؛ ذلك لأنَّه المخلوق الذي لا إرادة له في خلقه، ولا تخيير له في ثنائية وجوده، بل التخيير كان بأسباب الاختلاف الذي خُلق عليه جنسًا ونوعًا؛ ولهذا الإنس غير الملائكة والجنّ، وكذلك الذّكر غير الأنثى، والرّجل غير بقية الرّجال، والأنثى غير بقية الإناث، وهكذا كان الاختلاف بين الأجناس والأنواع، ولكلّ بصمته التي تعطيه خصوصية تجعله مختلفًا عن خصوصيَّات الغير، وهكذا تكون الإرادة، فهي مع أنّها من حيث المعنى واحدة، فإنّها من حيث الممارسة بين تيسير

وتعسير، ولكلّ حسب ظروفه الشّخصيَة والاجتماعيَة والسِياسيَة والاقتصاديَة والذَّوقيَة.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن خُلق مخيَرًا؛ فهو يفكّر فيما يشاء كيفما يشاء ومتى يشاء، وهو يقبل ويرفض، ويخطئ ويصيب، وبإمكانه أن يتطوّر ارتقاء، أو أن يتخلّف وينحدر دونيَة، ولأنّه مخيّر إرادة؛ فله من المشيئة في دائرة الممكن ما له؛ فهو يؤمن ويكفر ويشرك كما يشاء؛ ذلك لأنَّ كلّ شيء في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ هو بين يديه إرادة، ولأنَّه بين يديه إرادة فهو المخير بين اتباع سُبل الرّشاد مهتديًا، أو سُبل الضلال متطرّفًا: {أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[6]، وقال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[7].

الإرادة قوّة:

الإرادة قوّة من يمتلكها يمتلك زمام أمره، فهي النشاط الواعي الذي يَقدم عليه الإنسان الحرّ عن وعي وإدراك سابقين؛ لأجل بلوغ غايات بعزيمة وإصرار ودون تردّد؛ ولذلك فاتخاذ القرار عن وعي، وتنفيذه بكلّ وعي، وتحمّل ما يترتّب عليه من أعباء يدلّ على ممارسة الفعل الإرادي بين الأفراد والجماعات والمجتمعات البشريَة، ومع ذلك لا إرادة إلّا بقدرة، وقرار، وتنفيذ، ومسئوليَة، وتهيؤ نفسي، أمَا الإرادات المسخّرة فهي ليست حرّة.

ولهذا قوّة الإرادة will هي التي تُمكِّن الإنسان من ممارسة الحريَة.

---

[6] البلد 8 ـ 10.

[7] الإنسان 3.

وعليه: فالقاعدة هي:

- قوّة الإرادة.
- اتخاذ القرار.
- تنفيذ القرار.
- حمْل المسئوليَّة.
- تنمية القدرة.
- التهيّؤ النَّفسي.
- قبول التحدّي عدلًا.
- التمسّك بصُنع المستقبل المأمول.
- لا يأس ولا قنوط.

والاستثناء:

- ضعف الإرادة.
- عدم المقدرة على اتخاذ القرار.
- عدم المقدرة على تنفيذ القرار.
- التخلي عن حمْل المسئوليَّة.
- عدم تنمية القدرة.
- عدم التهيّؤ النَّفسي.
- الأخذ بالأمر الواقع والاستسلام إليه.
- الخوف من المستقبل ولا عمل من أجله.

ـ اليأس والقنوط يسيطران على النَّفس.

ولأنّ الإرادة عزيمة، وفيها من الصّبر ما فيها، وفيها من التحدّي ما فيها، ولا مكان فيها للقنوط واليأس؛ فهي قوّة يجب أن تستثمر علمًا ومعرفة ومقدرة، ومتى ما بلغ الإنسان هذه القوَّة فلا خوف عليه؛ ولهذا لا تجعل الخوف قيدًا عليك، بل اجعله من أجل صُنع المستقبل قيدًا بين يديك تضعه في أيدي كلّ ما من شأنه أن يشكل عليك خطرًا.

وعليه:

فالمناعة immunity سياجٌ دفاعيٌ يُحصِّن الأفراد والجماعات والمجتمعات من الانهيار، والاستسلام لِما لا يجب؛ ولهذا على الأخصائيين الاجتماعيين والنَّفسيين والمتخصصين في علوم الاقتصاد والتنمية البشريَّة أن يعملوا جميعًا من أجل ما يقوي الإرادة؛ لتكون للشّعوب إرادة صلبة عليها يتكسر الضّعف والوهن والجبن واليأس، وعليهم أن يستثمروا قوّة الإرادة من أجل تقوية بناء شخصيَّة الفرد والجماعة والمجتمع على مبادئ وقيم تجعلهم على حالات من الاعتبار والرّقي الذوقي والأخلاقي؛ حتى لا يكونوا على حالة انسحاب وضعف ووهن وركون إلى ما هو سالب، ويؤدّي إلى التطرُّف، ومن هنا توظف قوّة الإرادة في تعطيل أنماط التفكير الخاطئة، وتنمية أنماط التفكير الصّائبة، التي تُمكّن الأفراد من إحداث النُّقلة إلى مستويات الطموح المتطوِّرة عبر الزّمن.

الإرادة قوَّة قرار:

بطبيعة الحال من يمتلك اتخاذ القرار يمتلك الإرادة الممكّنة من اتخاذه، ومع أنّ القرار يتّخذ، ولكن اتخاذه لم

يكن الغاية، بل الغاية الإقدام على تنفيذه، وتحمّل ما يترتّب على تنفيذه من دفع ثمن شريطة ألا يقدِّم الإنسان نفسه إلى التَّهلكة.

وتكمن قوّة القرار في اتخاذه بمسئوليَّة، وفي درجة الوعي والإلمام به، وبالمعطيات التي تستوجب إقراره؛ ولذلك كلّ قرار يُتخذ سيظل نوايا وتصميمات مجردة إلى أن يتمّ الإقدام على تنفيذه، حينها يصبح القرار نافذًا وذلك بتماثل العزيمة والإصرار مع الإرادة الفاعلة.

ومن هنا؛ فلا تتحقّق المنجزات ولا تحدث إلا بقرار، أي: لا تنجز المهام والأعمال إلّا به، والقرار في دائرة الممكن المتوقَّع هو الوعي بما يجب. أمّا في دائرة الممكن غير المتوقَّع فهو عدم الوعي بما يجب.

ومع أنَّ كلّ شيء بقرار ولا شيء من دونه، فإنّ القرار لا يخرج عن كونه في دائرة الممكن (متوقّع أو غير متوقّع)، وبما أنّنا نعرف أنّ كلّ شيء يقع في دائرة الممكن. إذن: لا داعي للاستغراب.

وعليه: (كلّ شيء بقرار)، يساوي: (كلّ شيء ممكن)، وبما أنّه لا مستحيل في دائرة الممكن، إذن: علينا بقبول تحدّى الصّعاب دون خوف ودون تراجع، ومن لا يتحدّى الصّعاب لا يُمكن أن يكون له مستقبل رفيع، ومن لا يُسرع قوّة وتدبّرا لتحدّي الصّعاب لن يجد له مكانا ليضع قدميه عليه أمام الحركة السّريعة للمتنافسين، ممّا يجعل البعض على الرّصيف جالسين في دائرة المستقبل.

ولهذا كلما كان القرار الإرادي قويًّا وكان تنفيذه قويًّا، تجاوز أصحابه العقبات التي تحول دون إحداث النُّقلة.

ولكي نتمكن من اتخاذ القرار عن وعي، علينا بمعرفة العلاقة التي تربط قوّة القرار بقوّة اتخاذه.

ولذا فقوّة القرار تكمن في الآتي:

ـ ما يحقّقه وما يترتّب على إنجازه.

ـ قوّة الالتزام بتنفيذه.

ـ استيعابه كلّ من يتعلق الأمر بهم أفرادًا أو جماعات أو مجتمعات.

ـ استيعابه للمتغيّرات ذات العلاقة بالموضوع.

ـ تجاوز محققاته لِما كان متوقّعا.

ـ إحداثه للمفاجأة الموجبة التي تُحدث استغرابا لكلّ من لا يتوقّعه.

أمّا قوّة اتخاذ القرار فتكمن في:

ـ قوّة القرار ذاته.

ـ قوّة المعايير والقواعد والأُسّس والمبادئ.

ـ قوّة التنفيذ.

ـ قوّة الهدف.

ـ قوّة الخطة.

ـ قوّة إعداد البرامج.

ـ وضوحه والمستهدف من ورائه.

ـ الإصرار على تجاوز السّلبيات.

ـ الاقتناع وعدم التردّد بمبررات اتخاذه.

ـ بما يتركه من أثر موجب.

وعليه فالإرادة وثيقة الصّلة بالوعي والفعل الذي يحقّقها، ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس بفعل مادّي إرادي، وحينها يصبح الإنسان مسؤولًا عما فعل بإرادته، سواء أكانت مسئولة أم غير مسئولة، وعلينا أن نميّز بين المسئولة وغير المسئولة.

- فالإرادة غير المسئولة: هي التي لا تحقّق لصاحبها الاعتبار والاعتراف والتقدير.

- والإرادة المسئولة: هي التي تحقّق للفاعل وللموضوع الاعتبار، والاعتراف والتقدير.

ولذا؛ فلا إرادة دون موضوع واضح؛ ولذلك فبوضوح الموضوع تتحقّق الإرادة بالقوَّة الدّافعة إلى الفعل بعد تهيّؤ واستعداد وتأهّب.

فالإرادة مسئوليَّة، والمسئوليَّة لا تكون إلّا بوعي تام بما سيتحمّله الإنسان لأداء ما يناط به من مهام: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[8]، ولنا أن نقول: إنّ الأمانة هي خلافة الله في أرضه، وهذه هي المسئوليَّة التي تميّز بها الإنسان عن غيره من الكائنات،

[8] الأحزاب 72.

وليست العبادة فقط؛ لأنّ جميع الكائنات منقادة لله عابدة له تسبّحه وتقدّسه، ومن ثمّ؛ فالإرادة تجعل الإنسان مسؤولًا؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكون على وعي بما يُقدِمُ على فعله[9].

امتلاك الإرادة ارتقاءً:

خَلق الله الإنسان في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنَّة)؛ حيث لا إنس من قبله؛ ولأنَّه كذلك جعل الله أبانا آدم عليه الصَّلاة والسَّلام على الارتقاء نبيًّا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنَّة والأرض مرتقة في السّماوات، فإنَّه بمخالفة أمر الخالق أهبط به والأرض ومن كان سببًا في إغوائه ومعصيته، وكذلك من قَبِلَ الإغواء معه معصية، وهنا تكمن القوَّة التي دعت آدم ندمًا واستغفارًا وتوبةً، ولكنّ قرار الهبوط نافذٌ: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[10].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه وبين الهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا، بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاءً؛ فآدم عصى ربّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا، لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[10]؛ ومن هنا يكمن أمل آدم في العودة إلى الجنَّة ارتقاءً؛ تلك الجنَّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيما على الأرض المغبرّة التي أهبط بها أرضا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

[9] عقيل حسين عقيل، منطق الحوار ص 173.

[10] طه 122.

لا سبيل له إلّا الاستغفار عن معصيته، والتوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم؛ فأدرك آدم أنّ فرصة العودة إلى الجنَّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله عن رغبة وقوَّة مع قبول تحدّي الصّعاب.

ولذلك فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو الممكّن من إحداث النُّقلة، وتحقيق الارتقاء رفعة؛ فتلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه؛ فهما ولدا في الحياة الدّنيا (السُّفليَّة)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجّةً وموعظةً وعبرةً؛ فبدأ العمل ارتقاءً من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبوه، الذي شهد ذلك النّعيم؛ فأخذ بالنبأ قوَّة وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخذت الشّهوة أخاه ضعفًا وسُفليَّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[11].

وعليه:

فالارتقاء مؤسّس على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة؛ ارتفاعًا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليّة، وذلك من أجل بلوغ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة الممكّنة من بلوغ الجنَّة عيشًا رغدًا.

[11] المائدة 28 ـ 30.

ومن هنا وجب العمل المحقّق للعيش النّعيم، الذي فيه الوفرة تغذي الرّوح، وتطمئن النَّفس، وتخاطب العقل، وترضي القلب، وتشبع البدن، وتزيد الذّوق رفعة وارتقاءً، فتمكن من الأخذ بأسباب القوَّة.

فآدم خُلق في الجنَّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها وأهبط به والأرض دُنوّا، ولكنّه لم ينس ذلك العيش الرَّغْدِ، والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنَّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدّنيا.

إنّ الحياة الدُّنيا إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا؛ فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر؛ فأصبح الصّدام والاقتتال انحدارا من البعض، في مقابل ارتقاء البعض رفعةً؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه؛ ولذلك فقد سعى استغفارا وتوبة أهلته لأن يكون نبيًّا ينبئ بما عُلّم من قِبل خالقه، ومن ثمّ؛ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلّا الجنَّة، التي لا تبلغ ارتقاءً إلّا بالعمل، وبكلّ قوَّة ورفعة.

ومن أجل ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنّ الارتقاء الممكّن من السّعادة لا يمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا

لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ، وهو: إحداث النُّقلة، وغرض عام، وهو: تحفيز الآخرين ودفعهم تجاهها، وإلّا فألم الغير لن يفسح الطَّريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية.

الإرادة وعيًا تُمكِّن من الإدراك:

الوعي نشاط ذهني فكري للعقل يدلّ على وجود علاقة بين الأنا والموضوع، وبه يتمكَّن الإنسان من المعرفة والدّراية التّامة، كما أنّه يُمكِّن من التمييز والمقارنة وحُسن الاختيار بين الأفعال الموجبة والأخرى السّالبة، ومن لم يُميِّز بين هذا وذاك لا يظنّ أنَّ الآخرين لا يميِّزون، وعندما يبلغون التمييز الحقّ لن يتأخروا عن الإقدام على الإصلاح، وقبول دفع الثّمن، الذي لا يُخيفهم في شيء يقبلونه بإرادة، حتَّى ولو كان ثمنه فقدان حياة.

الإدراك غاية الشّيء والإحاطة به هو كما هو، فمن بلغ الشّيء أدركه معرفةً وحسًّا، ومن بلغ ذلك وجب عليه حُسن التصرُّف فيما أدرك، ولا ينسى أنَّ غيره إن أدرك أنَّه أدرك، ولم يتدارك الأمر إعمارًا وإصلاحًا، أو تربيةً وإرشادًا، وحفظًا من الفساد والإفساد، سيجد نفسه بدايةً ملومًا، ووسطًا مهملًا، وفي النهاية يُحكم عليه بأنّه منحرف، يستوجب التقويم بكلّ الوسائل إلى أن يشهد الحقّ أو أن يكون الحقّ شاهدا عليه.

ولهذا فمن يقبل التقييم لفكره وحاله وظرفه يتمكَّن من فهم الحقيقة وتفهَّم ما يحيط به من ملابسات وتأزّمات، وكذلك يتمكَّن من التقويم، الذي به يتمّ

التصحيح، وتغيير الأحوال إلى ما هو أفيد وأنفع للجميع دون استثناء لأحدٍ على حساب آخر.

فالتقييم مراجعةٌ دقيقةٌ للحالة والمعطيات، التي قد تكون مناسبة لزمنٍ، وقد لا تكون ذاتها مناسبة لزمنٍ آخر، ومن يتّقِ الحقّ يتمكّن من معرفة الحلّ، ويمكنه الإقدام عليه إرادة، ومن يقبل أن يُقيِّمَ ما وصل إليه يتمكَّن من بلوغ ما هو أعظم.

وعليه:

الإرادة على المستوى الإنساني ذات علاقة بمراد (مطلبٍ، أو هدفٍ، أو غايةٍ، أو مأمولٍ)، وهي لا تكون إلّا في دائرة الممكن، أمَّا إرادة المطلق جلَّ جلاله؛ فلا حدود لها؛ كونه خالقها وهو المهيمن، وأمره لا يكون إلّا نافذًا.

ولأنَّ الإرادة على المستوى البشري هي قيد البحث؛ فلا شيء يكون مرضيًا إلّا من خلالها، ومن ثمَّ أيّ تجاوزٍ لها يُعَدُّ عائقًا أمام نفوذها؛ ولأنَّها كذلك فلا تهيؤ من دونها، ولا استعداد من دونها، ولا تأهّب من دونها، ولا تطرّف من دونها. أي: لا إمكانيّة لممارسة الحريَّة من دونها. إذن: الإرادة يمكن أن تكون:

ـ إرادة مطلقة: وهذه إرادة الله تعالى: {اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[12]؛ وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[13].

[12] البقرة 253.

[13] البقرة 117.

ـ إرادة اتباع: وهي المأمور بها من عند الله؛ لتكون في مرضاته طاعة، والقيام بها قياما بفرائض: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}[14].

ـ إرادة اختيار: وبها الإنسان قد تميّز وتدبَّر وتفكّر وتذكّر: {مِنْكُم مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}[15]، وقال: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[16].

ـ إرادة دستوريَّة وقانونيَّة: تعطي صلاحيّات واختصاصات مقيدة لمن يتولى منصبًا مسئولًا في إدارة دولة، أو شركة، أو مؤسّسة وما يشابهها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}[17]. هذه الآية الكريمة تستوجب ألا يغفل الإنسان الإرادة عن طاعات ثلاث:

ـ طاعة الله.

ـ طاعة الرّسول.

ـ طاعة أولي الأمر من النَّاس (منكم)، وهم الذين يتمّ اختيارهم إرادة تامّة؛ ليكونوا أولي أمر، فتكون طاعتهم هي طاعة الأمر الذي أقرّه النَّاس، ثمّ انتخبوا أو اختاروا له من يتولى إدارته، فتكون طاعته مرتبطة بالتزامه بالأمر الذي هو من عند النَّاس، أي: من الأمر الذي كلفوه به ووكلوه إليه،

[14] الحشر 7.

[15] آل عمران 152.

[16] هود 118، 119.

[17] النساء 59.

ليكون مسؤولا؛ ولهذا فلن تكون له طاعة إذا خرج عن الأمر الذي هو من عند النَّاس.

وهنا وجب التمييز بين أولي الأمر وهم الوالدين، أو من يتولى الأمر بعدهما من الإخوة، وأولي الأمر منك، وهم الذين يتمّ انتخابهم بإرادة.

وعليه:

ـ قوِّ إرادتك.

ـ امتلك إرادتك؛ لتتمكّن من الإقدام.

ـ امتلك إرادتك؛ تزدد قوّة.

ـ امتلك إرادتك؛ تتمكّن من الاستيعاب.

ـ حفّز على ممارسة الحريَّة؛ حتى يتمّ التمسّك بالإرادة.

ـ استثمر الإمكانات المتاحة عن إرادة؛ حتى يقوى رأس المال الاجتماعي.

ـ استثمر الطّاقات البشريَّة عن إرادة تمتلك قلوب النَّاس.

ولأنَّ الفرد قوّة، والجماعة أقوى، والمجتمع أكثر قوّة؛ لذا فمن يريد أن يكون قويًّا فعليه:

1 ـ أن يقوّي الإرادة.

2 ـ أن يصمّم عن وعي على ما يجب بلا تتردّد.

3 ـ أن يبادر إرادة وتهيؤا واستعدادًا وتأهّبًا للإقدام على إنجاز الفعل.

4 ـ أن يخطط علميًا؛ فالتخطيط العلمي يبعد عن العشوائية.

5 ـ أن يتحدّى الصّعاب؛ فتحديها يرسّخ قيمة الإرادة.

6 ـ أن ينتزع الخوف من نفسه؛ فانتزاعه يحرّر الإرادة.

7 ـ أن يتفاعل مع الجماعة على كلّ موجب؛ حتى تترسّخ الإرادة.

8 ـ الإرادة تمكّن من المشاركة متى ما تهيأ واستعدّ وتأهّب النَّاس إليها.

9 ـ التطلّع مع المتطلعين لكلّ مفيد نافع يفتح آفاق التقدّم أمام الارتقاء الإرادي.

الإرادة تهيّؤ فعَّال:

التهيؤ الفعَّال هو ذلك التهيؤ البناء، الذي لا يكون من خلفه إلَّا موجبًا؛ ولذلك فالتهيّؤ التفات حيوي يجعل الإنسان في حالة يقظة، وصحوة تبحث عن منفذ يتمّ من خلاله تغيير الأحوال إلى ما يمكن أن يكون غايةً أو أملًا، واليقظة هي انتباه بعد غفلة، تمكّن من تنفيذ الفعل حتى وإن كان تطرُّفًا.

ولأنَّ التهيّؤ هو الخطوة الأولى التي تلفت الإنسان إلى نفسه متى ما غفل أو جهل، فهو متى ما كان يقظة في النَّفس والعقل دفع إلى إنجاز ما كان هدفًا، وتحقيق ما كان غرضًا، وبلوغ ما كان غاية، والفوز بما هو مأمول في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، ولكن كلّ هذا لا تتمّ إلّا بعد عُدّة تُعدّ، واستعدادٍ يُهيأ، وتأهّبٍ يؤخذ في الحسبان.

ولأنَّ التهيّؤ يقظة بعد غفلة؛ فهو لا يكون إلَّا من أجل حاجة تشبع رغبة وتُحفّز على ما يجب من وجهة نظر المتهيئ، مع أنَّ ما يجب من وجهة نظر المتهيئ قد لا يكون هو ما يجب قيمًا وفضائل، كأن يتهيَّأ الإنسان إلى ارتكاب فعل تطرُّفٍ في غير مرضاة الله.

وعليه:

ـ هيئ نفسك لما يجب؛ حتى لا تقودك الشّهوة إلى الإقدام على ما لا يجب.

ـ التفت إلى نفسك، واعمل على ما يحقّق لها الطمأنينة.

ـ فكّر؛ حتى يولّد لك عقلك فكرة تخرجك من التأزّم.

ـ فكّر فيما تفكّر فيه؛ حتى تتبيّن.

ـ هيئ نفسك للعمل؛ فهو المنقذ من الحاجة.

ـ هيئ نفسك لمواجهة الصّعب تنجز ما كنت تأمل.

ـ هيئ نفسك لغير المتوقَّع، تجد المتوقَّع بين يديك ميسّرًا.

ومن هنا؛ فالتهيّؤ ما هو إلا تجاذب بين المتوافقات والمتباينات في آن واحد، ممّا يجعل المتوافقات في أشدِّ حالات التلازم، والمتباينات في أقصى درجات الافتراق، وما بين التلازم والافتراق تصبح القوى الكامنة في حالة انتباه تجاه المرغوب فيه، ممّا يجعل التهيّؤ بإرادة مرحلة متكاملة قبل الاستعداد والتأهُّب لأداء الفعل الذي كان مأمولا.

ولأن التهيّؤ قبلي؛ فهو الذي يسبق صورة الشّيء قبل أن يصبح شيئًا مفعولًا، ولو لم يكن الشيء متهيئًا للظّهور ما كان ذلك الشيء ماثلا أمام المشاهدة والملاحظة؛ فالتهيّؤ هو المؤسّس للهيئة التي سيكون الشيء مصوَّرا عليها بالتمام، وكلُّ فعل لا يكون فعلا إلّا بعد أن يتهيَّأ ذلك الفعل في ذهن الذي سيفعله وعقله، فإذا أراد أحد أن يُظهر مشكلة بين النَّاس لا بدَّ أن يُهيئها للفعل، ومع ذلك لن تكون مشكلة إلّا إذا تهيأ لها فاعل بإرادة، مع وافر الاستعداد، ثمّ التأهّب؛ لأجل الإقدام على أداء فعلها بسلوك على أرض الواقع، فالإرهاب لو لم تتهيأ معطياته وظروفه وأفعاله في ذهن فاعليه ليكون بين النَّاس مفعولا ما كان له وجود بينهم، وبعد أن وُجِدَ الإرهاب ظاهرة مهيأة لأن تتحقّق بالقوَّة أصبح الأثر الإرهابي ذا وطأة على أنفس المرتهبين؛ ممّا جعل أفعالهم تميل إلى التوازن والاعتدال بدلًا من ميلها انحيازًا بغير حقّ.

ولأنَّ التهيّؤ دائمًا يسبق إعداد العُدّة والفعل والسُّلوك والعمل؛ لذا فإنَّ صور المصنوعات لا تتحقّق على أرض الواقع إلّا بعد أن يكون لها هيئة في أذهان المبدعين لها وعقولهم؛ ولهذا لا يمكن أن يصنع الإنسان شيئًا إلّا بعد أن تتهيأ له صورته متكاملة، فالسّكّين على سبيل المثال: لو لم تتهيأ صورته في عقل من صوَّره بعد تهيّؤ، ما كان السكّين على الصّورة التي هو عليها دليلا شاهدا بين أيدينا؛ فقد تهيأ في عقل صانعه، من حيث كونه صلبًا ومتينًا وحادًّا من أحد الطّرفين، أو حادّا من طرفيه، وله مقبض يُمسك به من أجل وظيفة تؤدّى، أو سلوكٍ يمارس، أو فعلٍ يُفعل، وهكذا كلّ مصنوع لا يمكن أن يُصنع إلّا بعد تهيّؤه في ذهن العقل

البشري، وكلّ فعل لا يُفعل إلّا بعد تهيّؤه في العقول؛ ولذلك فإنَ أفعال الإرهاب لا يمكن أن تسبق تهيّؤه؛ فهي لو لم تكن قد تهيأت من قَبل في العقل البشري ما كانت أفعالا متحقِّقة على أرض الواقع، وهكذا هو حال الفكرة فبعد أن تنضج في عقل المفكّر أو المتدبّر يتمّ من بعدها رسم الخطط المنفّذة ممّا يجعل المتهيئ في حالة انتظار للقيام بالعمل، أو أداء الفعل بعد استعداد وتأهُّب لفعله.

ولسائلٍ أن يسأل:

كيف يتهيَّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي في أنفس الأعداء؟

مع أنَ الإرهاب لم يكن مادّي الصّورة؛ حيث لا شكل ولا مظهر له سوى الأثر السّلبي، الذي يمسّ النَّفس الإنسانيَة، فإنَ أثره لا يكون سائدًا في النَّفس البشريَّة إلّا بعد الإعداد له إعدادا ماديًّا، أي: إعدادًا لِما يُظهِره، وليس إعدادًا لإظهاره؛ ولهذا فالإرهاب تُظهره العُدّة المرهبة للنفس المخيفة التي تعتقد أنّه لا مخيف لها، فتتفاجأ بأنَ هناك من يُرهبها عتادا وعُدّةً وتأهبًا واستعدادًا.

إذن: يتهيَّأ الإنسان لإظهار الأثر الإرهابي بالقوَّة العقليَة، التي بها يستطيع أن يُدرك أنَ الخوف سيظل سائدًا بين قويٍّ وضعيفٍ إلى أن يمتلك من كان ضعيفًا القوَّة المرهبة، للذين يعتقدون أنَّهم يُخيفون ولا يخافون، وبامتلاكه القوَّة عُدّةً وعتادًا واستعدادًا واستيعابًا مع وافر التدريب والمهارة يصبح ما وصل الإنسان إليه من قوّة مرهبة قادرًا على إعادة التوازن بين الأنا والآخر دون سيادة للمظالم.

ومن هنا كان أمل البعض اكتساب القوَّة القاهرة للإرهاب بغاية استتباب الأمن وإعادة التوازن، وهذا الأمر يستوجب إيقاظ القوَّة العقليَّة وتهيُّئها ولفتها للمخاطر؛ بهدف تجنّبها، وتفادي أضرارها.

والتهيّؤ للفعل لا مكان فيه للتردُّد في نفس المتهيئ لأداء الفعل، ولا خوف في نفسه ممّا يجعل الإرادة مولِّدة للقوّة الدّافعة لتنفيذ الفعل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فدائرة الممكن هي دائرة تيسير الفعل أو تعسيره؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء الفعل أمرُ ميسَّر قد تواجهه صعاب تحول بينه وبين تنفيذه بنجاح، وكذلك إذا كان هناك أحد من البشر يرى أنّ فعلا ما لا يمكن أن يُفعل، ولكن أقدم آخر على فعله بنجاح، يوصف هذا النجاح بأنّه نجاح غير متوقّع فعله، ولكن لو لم يكن ممكنا ما فُعل؛ ولهذا الأفعال في دائرة الممكن قابلة لأن تُفعل ولو تعسَّرت على البعض، ومن هنا تولد الخوارق من الخوارق.

فالتهيّؤ كونه إيقاظًا عقليًّا؛ فهو يسبق القول والفعل والسُّلوك والعمل، الذي من دونه لن يكون العمل أو الفعل إلّا وظيفة لا تؤدّى إلا بمقابل، ولا تُقدَّر إلّا به، ممّا يجعل للإرادة مكانة تجعل التهيّؤ إيقاظًا هو المحدِث للفعل، والمحقِّق للرّضا وإن كان على حساب الآخرين، وما يحقّق لهم من طمأنينة، وفي مثل هذه الحالة وإن وُصِفَ الإرهاب من قِبَل الآخرين بما لا يتطابق مع مفهومه كما جاء في الكتاب الحكيم، فيظل هو المحقّق للتفاخر من قبل المقدِمين عليه إرادة.

ولأنّ الإرهاب فعل مقلق، فَلِمَ لا يلتفت العقل الإنساني يقظة إلى ما يُمكّن من تفاديه بسلام؟ ولم لا يتهيَّأ الجميع للسّلام الذي يجمع شمل المتفرقين والمتقاتلين؟

قد يرى البعض أنّ هذا القول لا يزيد على كونه أمنية، ولكن ألا يكون في دائرة المتوقَّع وغير المتوقَّع أنَّ كلّ شيء ممكن؟ فالمعطيات التي جعلت العقل يتهيَّأ للفعل الإرهابي، ألا تجعله يتهيَّأ يقظة إلى الحياد عنه أو القضاء عليه؟

إنَّ التهيّؤ يقظة يلفت الإنسان إلى أهميَّة خلقه في أحسن تقويم، ومن ثمّ يلفته إلى المحافظة على حسن تقويمه بما يتشرّبه من قيم حميدة وفضائل خيّرة تمكّنه من تقبّل الآخر (هو كما هو)، كما تمكّنه من احترامه وتقديره واعتباره واستيعابه؛ وذلك بهدف غرس الثِّقة المتبادلة، وبغاية تغيير الحاضر تجويدًا، ومن ثمّ العمل على صناعة المستقبل المأمول[18].

الإرادة تغرس الثِّقة:

يتمركز مبدأ غرس الثِّقة على قيمٍ ثلاثة:

- قيمة الثِّقة؛ كونها في ذاتها قيمة.
- قيمة الغرس؛ كونه ينَبت وينمو.
- قيمة وجوب الغرس؛ كونه يترك أثرًا مرضيًا.

[18] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، ص 30 – 84.

ولذا فالثِّقة قيمة أخلاقيَّة تؤسّس بين الأنا والآخر بعد وضوح رؤية ولا شيء مخفي (كلّ شيء على البلاطة)، وهي لا تغرس إلَّا بعد تقبُّل وتفهُّم للخصوصيَّة والظّروف؛ أي: لا يمكن أن تغرس إلَّا بعد التخلُّص من الشّكوك والظّنون.

إنَّ غرس الثِّقة رسوخًا يستوجب وقتًا وجهدًا يُظهر حُسن النيّة، وصدق القول، وسلامة الفعل والعمل، وأن يكون السُّلوك قدوة؛ الذي من بعده يتمّ التسليم وثوقًا بين الأنا والآخر، أو بين الأخصائي الاجتماعي والعميل.

فالثِّقة لا تكون إلّا نتاج معرفة واعية، ولا تكون إلّا بعد استئناس ودراية بالخفايا التي تُمكّن من كشف الحقائق ومعرفة الطّباع؛ إذ لا شيء مخفيٌّ (كلّ شيء على البلاطة).

فالثِّقة لكونها قيمة حميدة، لا تُغرس في أحدٍ إلّا بعد معرفة واعية، ودراية تامّة بما يجب تجاه من تمّت معرفته ولا شكوك فيه، وفي المقابل الثِّقة لا تُغرس بناء على رغبة أو مطلب من أحدٍ، ولكنّها تُغرس فيمن يكون دافئ الجانب ومخلصًا في صّدقه، وعمله، ومهنته وخُلقه وعلمه، وفي أفعاله وسلوكياته.

ولأنَّ الثِّقة لا تسود بين النَّاس إلا تبادلًا، وعن إرادة حرّة؛ فهي المأمولة من قِبل الشركاء، سواء أكانوا شركاء سياسة، أم اقتصاد، أم علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة.

ومن ثمَّ فغرس الثِّقة في النَّاس يُمكِّن من نيل الاحترام والتقدير والاعتبار، وفي المقابل سحب الثِّقة من النَّاس لا يمكّن إلّا ممّا يخالف ذلك ويختلف معه، فمن أراد أن ينال احترام الآخرين؛ فعليه باحترامهم، ومن أراد لنفسه أو

برنامجه أو رؤيته نيل التقدير؛ فعليه بتقديرهم؛ ولهذا فمن يتبنّى مشروعًا لإقصاء النَّاس بغير حقّ؛ فلا شكّ أنّه قد تبنّى مشروعًا يؤدّي إلى سحب الثِّقة منه؛ وكذلك من يجبر النَّاس على سحب ثقتهم ممن غرست فيهم عن رغبة بأسباب لا موضوعية، ولا أخلاقية، فهو بهذا السّلوك لن يترك مجالًا أو هامشا، لغرس الثِّقة فيه.

ولذا فمن يَقصي النَّاس فهو لا يقبل بثقة تُغرس في سواه، وعندما يصبح الأمر بين البعض والبعض مؤسّسًا على: (أنا مصدر الثِّقة وأنت لا ثقة فيك) فبالضّرورة سيؤدّي الأمر إلى خلاف يدفع البعض إلى إعداد العدّة الممكّنة من المغالبة، أو على الأقل إعادة التوازن.

فالثِّقة قيمة حميدة لا تُغرس إلّا في ثابت مقدّر، ولا تُمنح إلّا لصاحب مقدرة على تحقيق المتوقَّع؛ فالثِّقة عزم وإصرار مع وافر التأكيد على القول الحقّ، والفعل الحقّ، والعمل الحقّ.

ولهذا فالثِّقة قيمة مُرضية بين الأنا والآخر عندما لا يكون لليأس محلّ بينهما ليحلّ فيه، ولا محلّ للخيانة والتراجع عمّا يجب التمسّك به، مع عدم التنازل عن الموثوق فيه. ولكن عندما يتخلّى أحد الأطراف عن الموثوق فيه ويرفضه، تصبح المواجهة بين المختلفين والمتخالفين حتميّة.

ولأنَّ الثِّقة قيمة أخلاقيَّة؛ فهي منبع أمل يأملها الجميع بغاية الطمأنينة وإسقاط الظنون والشَّكوك، والثِّقة قد تكون على مستوى الشخصيَّة، وقد تكون على مستوى الموضوع؛ فإنْ كانت على مستوى الشخصيَّة؛ فهي تتعلّق بالتصرّفات

والسّلوك الذي من أساسه هو قابل لأنْ يتغيّر وينحرف عن مرتكزات غرس الثِّقة، ممّا يستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة التي تمّ تشرّبها بمعلومات صائبة تعيد الثِّقة إلى الشخصيَّة.

أمّا إذا كان الأمر يتعلّق بالموضوع؛ فقد يكون الموضوع في حاجة للتغيير حتّى يواكب حركة التغيّر والتطوّر، ومن ثمّ، يسهم بشكل مباشر في معالجة المشكل أو بلوغ الحلّ.

فالثِّقة لا تكون إلّا بثبات المعرفة الواعية، المرشدة للحقّ، والمحرّضة على إحقاقه، وهي التي بها تكون القدوة الحسنة القابلة لغرس الثِّقة فيها إذ لا وجود للظنون؛ وذلك فالثِّقة مكمن الاعتقاد، والتصديق، والإخلاص؛ فعندما تتوافر بين الأطراف يتمّ الاستئناس والاطمئنان الذي يسرّع بعجلة التفاهم، والتفاعل الاجتماعي المفيد؛ فالثِّقة تعني ممّا تعنيه إزالة الشكوك من صدور ونفوس المختلفين؛ وبها تدوم العهود، وتستمرّ العلاقات وتوثّق عُرى الرّوابط بين بني الإنسان.

وعليه: فالثِّقة حزام أمان للمختلفين، حيثما توافرت بينهم زاد التّفاعل، والتفاهم، والتواصل، والتعاون، واتسعت دائرة المشاركة، الممكّنة من التوافق الذي عراه لا تنفصم. وفي هذا الشّأن يقول المفكّر الأمريكي فرنسيس فوكوياما: "أهم العبر التي نستخلصها من دراسة الحياة الاقتصادية، هي أنَّ إصلاح حال أيَّة أمّة، والحفاظ على قدراتها التنافسية في السّوق الاقتصادية، يبقيان مشروطان بتوافر سمة ثقافية وحيدة وراسخة، ألا وهي الثِّقة ومدى توافرها وتأصّلها في

المجتمع"[19].

ولأنَ الثِّقة قيمة حميدة؛ فهي معطية رئيسة للتوافق ومنبع أمل يجمع ولا يفرّق، وهي ضرورة للتماسك بين المختلفين؛ فعلى سبيل المثال: العلاقة بين الحاكم والمحكوم إن بُنيت على الثِّقة، يصبح بها النظام مستقرًّا بأمنه، وعدله، وتطوّره، ونظافة يد قمّة سلطانه، ولكن إن لم يكن ذلك متحقّقًا على أرض الواقع؛ إذ وجود المخالف لكلّ ذلك؛ فلا شكّ سيكون الرّفض من الشّعب؛ ممّا يدعوه إلى سحب الثِّقة من الحاكم، ومن ثمّ عزله، ومساءلته، ومحاسبته. وإن رفض سيكون رفضه في مواجهة الرّفض العام؛ فيسقط بالقوَّة.

ولسائل أن يسأل:

- ماهي معطيات فقدان الثِّقة؟
- وما هي معطيات إعادتها؟

معطيات فقدان الثِّقة كثيرة ومنها:

- الخيانة.
- التآمر.
- النفاق.
- الغموض.
- الأحكام المسبقة سلبيًّا.

[19] Francis Fukuyama. Trust: Social Virtues and 1995 P 9. Creetin of Prosperity

ـ الإقصاء.

ـ التهميش.

ـ التغييب.

ـ الظلم.

ـ العدوان بغير حقّ.

ومن هنا فإنَ فقدان الثِّقة يدلُّ على انعدام المصادق بين المختلفين والمتخالفين؛ ممّا يجعل البعض يفقد الثِّقة في الحاضر؛ فيكون الخوف على المستقبل على رأس ما يدور في الصدور، وهذا الأمر يحفّز أصحابه على التمرّد والمواجهة والثّورة.

إنّ فقدان الثِّقة يعني ممّا يعنيه اتساع الهوة بين الرّغبة والأمل، وهو التباين الواسع بين الواقع والمتوقَّع؛ فالواقع عندما يصبح متردّيًا لا يمكن أن يكون متوافقًا مع الأمل؛ وذلك تنعدم الثِّقة بين من يحكم بغير عدلٍ فيظلم، ومن انتخبه أو ارتضاه حاكمًا في فترة من الزّمن؛ ولذا فجميع من يحكم ولا يسمح بالنقد البنّاء، ولا يولي اهتمامًا بمحاسبة ومساءلة ومعاقبة الحكومة، ولا يمتثل للقانون لكونه أصبح لا يرى إلّا نفسه، أو بطانته؛ فبالضّرورة سيفقد ثقة الشّعب، وسيُسقط به أرضًا.

أمَّا معطيات إعادة الثِّقة فمنها:

الاعتراف بالآخر وتقديره واحترامه واعتباره واستيعابه وتفهّم ظروفه وخصوصيته، ثمّ الأخذ بقيمة العفو والصّفح والتصالح والتسامح مع وافر الأمانة والوفاء والعدالة.

ولهذا فالثِّقة تعني ممّا تعنيه (نحن معًا) و (نحن سويَّةً) حاضرنا مُرضٍ مع وافر الرّغبة، ومستقبلنا كلّ يوم يتجدّد، ورغباتنا مع حاجاتنا المشبعة تتقدّم وتتطوّر، ممّا يجعل المسافة بين الحاضر والمستقبل متّصلة في حركة دائرية، مع حركة الأرض حول نفسها، وحركتها حول الشّمس؛ ولهذا فأيّامنا كلّ يوم تتجدّد ولا تتكرّر.

ومع أنَّ علماء النَّفس الاجتماعي قد صنّفوا الثِّقة في إطار منظومة التكيّف، إلّا أنّني لا أتفق معهم وأصنّف الثِّقة في إطار التوافق الاجتماعي؛ لأنَّ التكيف لا يسود إلَّا بتقديم المزيد من التنازلات، وهذه لا تؤدّي إلّا إلى نزع الثِّقة، أمَّا التوافق فلا يسود إلّا بالإرادة وغرس الثِّقة.

ومن ثمّ فأمر غرس الثِّقة السِّياسيَّة أمر تعاقدي، بين أصحاب القيم والمبادئ المحفّزة أخلاقيًّا على إدارة الحراك السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والنَّفسي، والثقافي، والذّوقي؛ فالثِّقة في دائرة الاختلاف والخلاف تُكتسب اكتسابًا، ولا تمنح منحًا عبثيًّا؛ ولأنّها تكتسب فهي لا تكتسب إلّا بعد معرفة، وتجربة، ودراية واعية، بما يقال ويفعل، وهكذا هي تترسّخ وتقوى بقوَّة التمسّك بالثوابت المرضية للنّفس، والعقل، والجسد، والقلب، والرّوح.

ولأنّ الثِّقة قيمة حميدة؛ فلا تغرس إلّا في الثّوابت التي لا عيوب فيها، وفيها محاسن، ولا تمنح إلّا لصاحب مقدرة على تحقيق المتوقَّع في دائرة الممكن[20].

[20] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، ص 215 ـ 220.

ويتمركز مبدأ غرس الثِّقة على وجوب: (تحسيس المجتمع أفرادًا وجماعاتٍ بأنَّهم موضع ثقة، والعمل على تأكيده قولا وفعلا بما يحقق لهم الطمأنينة ويُمكِّنهم من التفاعل المتبادل مع بعضهم البعض، ومع محيطهم الاجتماعي والإنساني، وتفهّم ظروفهم الخاصَّة لأجل أن يتفهموا القيم والفضائل التي يرتضيها المجتمع الإنساني ويتطلَّع إليها).

مبدأ غرس الثِّقة أرادة:

- المجتمع موضع ثقة.
- تحسيس النَّاس بأنَّهم موضع ثقة.
- غرس الثِّقة قولًا.
- غرس الثِّقة سلوكًا.
- غرس الثِّقة فعلًا.
- تحقيق الطمأنينة.
- التفاعل المتبادل.
- تفهّم الظّروف.
- تفهّم القيم والفضائل الاجتماعيَّة.
- تفهُّم القيم والفضائل الإنسانيَّة.
- التطلّع للأفضل.

ولهذا لا تغرس الثِّقة في الإنسان إلَّا بعد أن يوضع في محكّات عمليَّة ويجتازها بنجاح، وهي القيمة التي تحتوي

في مضمونها أبعاد قيم أخرى، من صدق وأمانة والتزام أخلاقي وسلوكي إلى جانب الوفاء بالعهود.

وعندما تتجسّد الثِّقة في نفوس الأفراد والجماعات وتنعكس في السّلوك والفعل، تصبح ذات دلائل وثوابت مقدّرة من قبل الآخرين؛ ولذا عندما يثق الأفراد في ذاتهم ويثقوا في الأساليب المهنية للأخصائي الاجتماعي يتمكّنوا من التفاعل المرضي، ومن التقبُّل حتى إنجاز الأهداف وبلوغ الغايات ثمّ نيل المأمول.

ولهذا لا ينبغي أن يغفل المسئول عن توظيف القيم الاجتماعيَّة والإنسانية أثناء دراسته حالات الأفراد والجماعات؛ لأنَّ إغفاله عنها لا يمكِّنه من نيل ثقة العملاء وفكّ تأزُّماتهم؛ مع العلم أنَّ بناء الثِّقة عملية تبادلية بين الأخصائي والعميل، أي: إنَّ الثِّقة مطلب يأمله الأخصائي كما يأمله العميل.

ولأجل أن تجد الثِّقة مكانًا لتغرس فيه بين النَّاس فعلى النَّاس مراعاة الآتي:

1 ـ إشعار بعضهم بعضًا بأنَّهم محل ثقة.

2 ـ التعامل مع الأفراد والجماعات بكلِّ وضوح وشفافية ليشعر الكل بالاطمئنان.

3 ـ تحسيسه الآخر بأنهَ صادق فيما يقول بغاية الفهم والتفهّم والاستيعاب وإحداث التغيير إلى الأفضل.

4 ـ تقديم المساعدة الهادفة لمن يستحقّها بعد دراسة موضوعية مهنية.

5 ـ تقبُّله الآخر كما هو.

6 ـ إعادة العيوب للمعلومات التي تشربها البعض بدلًا من إعادتها إلى شخصيَّة بعينها.

7 ـ المناصرة على مغالبة المعلومات الخاطئة.

8 ـ إظهار حسن النيّة وحسن التعامل.

9 ـ إشعار الآمل بالآتي:

أ ـ أنَّ الأمل ينتظره.

ب ـ أنَّه قيمة لا يمكن الاستهانة بها.

ج ـ أنَّه مقدرة تحتاج لإعطاء فرصة.

د ـ أنَّه قوَّة تحتاج إلى توجيه.

هـ ـ أنَّه استعداد يحتاج إلى تهيئة.

و ـ أنَّه في حاجة يحتاج إلى تأهيل.

الإرادة ثِّقة تمكّن من الاتزان الوجداني:

(غرس الثِّقة إدراك عن حكمة وموضوعية لكلِّ ما يؤثِّر سلبيًّا أو إيجابيًّا على ما يحقّق التفاعل المتزن بين أفراد وجماعات المجتمع يصقل الشخصيَّة ويتوّج سلوكها بالثبات على كل مفيد ونافع، مع إظهار الحُسن الإرادي في القول والفعل؛ تهذيبًا للذَّات والضمير، وتقديرًا لمن هم في مركز البيئة الاجتماعيَّة ومن في محيطها الإنساني).

يحتوي مبدأ (الاتزان الوجداني) القواعد القيميَّة الآتية:

- الإدراك عن حكمة.
- الإدراك بموضوعية.
- تقصي الأثر السَّالب.
- تقصي الأثر الموجب.
- التمييز بين ما يجب وما لا يجب.
- التفاعل المتّزن.
- إعداد الشخصيَة قيميًّا.
- ثبات السُّلوك على المفيد.
- ثبات السُّلوك على المنافع.
- إظهار الحُسن في القول.
- إظهار الحُسن في الفعل.
- تهذيب الذَّات.
- تهذيب الضّمير.
- التقدير المتبادل.
- تقصّي الأثر السَّالب والموجب.
- تحقيق التفاعل.
- تقدير الفعل.
- تقدير السّلوك.

وعليه:

- حكّم عقلك وتحكّم في عواطفك.

ـ كُن لين القلب.

- لا تكن سريع الغضب.

- لا تكن عصبيًا ومفرطًا في الحساسية.

- لا تكن جاف العاطفة.

- لا تكن متطرف الرّأي.

- لا تثر لأتفه الأسباب.

- لا تكن أنانيًا فالأنانية عيب.

- كن واثقًا من نفسك.

- عامل النَّاس باحترام.

- بادلهم المحبَّة والود.

- كُن متَّزنًا فيما تقول وما تسلك وتفعل.

ولأجل ذلك:

ـ جمّع قواك لتعبر النّهر، فالعبور يحقق لك النُّقْلَة للمستقبل.

ـ شتّت قواك تغرق في النّهر، والغرق يفصلك عن بلوغ المستقبل.

ـ اعمل على صناعة المستقبل يتحقّق لك العبور.

ـ فكّر فيما أنت تفكر فيه وأنت فيه تفكّر.

وبما أنَّ تجميع القوَّة يُمكّن من عبور النّهر، فإنَّ الذين غرقوا في البحار هم الذين لم يتمكّنوا من تجميع قواهم؛ ولذا فمن يستطع أن يجمّع قواه يتحدّى الصّعاب ويعبر النّهر، ومن لا يستطيع يركن إلى الضّعف ويغرق.

ولكن من الذي يستطيع أن يجمّع قواه إذا ما واجهه غير المتوقَّع؟

هو الذي يتمالك نفسه باتزان حتى يتمكّن من اختراق دائرة الممكن في الزّمن غير المتوقَّع.

ولهذا لا يمكن أن يحدث الغرق إلَّا في حالة الضعف.

ولسائل أن يسأل:

كيف أصنع المستقبل لأعبر النَّهر؟

إذا أردت أن تعبر النّهر عليك بالآتي:

1 ـ فكِّر بقوَّة.

2 ـ خطط عن وعي.

3 ـ جمّع إمكاناتك الممكنة.

4 ـ شارك الآخرين بقوَّة.

5 ـ حدّد الخطر الذي يعترض طريقك.

6 ـ أقدم على إزالته من أمامك.

7 ـ اقتل الخوف بلا تردّد.

8 ـ تحدَّ الصّعاب.

9 ـ لا تنام أكثر مما لا يحتاجه البدن، ولا تقلل من أهميَّة ساعات نومك.

10 ـ قدّر الوقت واجعل له قيمة.

11 ـ استثمر إمكاناتك.

12 ـ نمِّ طاقاتك.

13 ـ هيئ استعداداتك.

14 ـ نوَّع مهاراتك.

15 ـ عدّد خبراتك.

16 ـ اخش ضميرك قبل أن تخشى الآخرين.

17 ـ اصنع بيديك من الخشب قاربًا.

18 ـ أقدم على النّهر تدفعك مياهه إلى المستقبل الذي صنعته.

19 ـ تقدّم بقوَّة والهدف نصب عينيك، ولا تنس أنَّ من ورائه غاية من ورائها مأمول لابدّ لك من نيله.

وعليه:

الشَّخص الذي قام بجمع الخشب صنع قاربًا وعبر النّهر.

أما الشّخص الذي لم يَقم بجمع الخشب، فلم يصنع قاربًا ولم يعبر النّهر؛ ولذا من لا يعبر النّهر ليس له إلّا الغرق، ومن يعبره يطوي المسافة بين ماضيه والمستقبل الذي كان مجرد أمل بالنسبة إليه.

الإرادة عن ثِّقة اعتبار خصوصيَّة:

امتلاك الإرادة يمكن من امتلاك السّيادة، وغرس الثَّقة يمكن من الاعتماد على النّفس وتحدّي الصِّعاب؛ ولذا فإنَّ (غرس الثِّقة يعد اعتبارًا للشّخصيَّة التي تتميّز عن غيرها كما غيرها يتميّز عنها بخصوصيّته قدرةً واستطاعةً وديناً وثقافةً ومهارةً وتعليمًا وغاية، مع تقدير ما يميّز كلّ خصوصيّة عن غيرها، وبما يؤكد على أهميَّة استيعاب البعض للبعض).

يحتوي مبدأ (اعتبرا الخصوصيَّة) القواعد القيميَّة الآتية:

- اعتبار القيم.
- اعتبار القدرات الخاصّة.
- اعتبار الاستعدادات الخاصّة.
- اعتبار الإمكانات الخاصّة.
- تقدير مميزات الخصوصيّة.
- تقدير العِرق.
- تقدير الدّين.
- تقدير العرف.
- تقدير الثّقافة.
- تقدير الحضارة.
- مراعاة الظّروف.
- تقدير الغايات.
- تحقيق الطمأنينة.

ـ تحقيق الرّضاء النَّفسي.

ـ تحقيق الرّضاء الاجتماعي.

ومع أنَّ الأفراد وإن اتحدوا أو اشتركوا في النَّوع يختلفون باختلاف قدراتهم واستعداداتهم؛ فهم ذاوي خصوصيَّات لا يجوز تعميمها، بل كلّ حالة ذات كيان بذاتها، لها ما لها من العلل والأسباب والظروف التي تستوجب تفهّمها، وفوق كلّ هذا إن لم تغرس الثِّقة في نفوس النَّاسء فلا إمكانيَّة لمعرفة الحقائق وكشف خفاياها.

ولهذا لا يُمكن أن يتم استيعاب العملاء ودراسة حالاتهم بموضوعيّة ما لم يتم التعرّف على خصوصيّة كلّ منهم وتقدير كلّ خصوصيَّة: ولذا يكمن الاستيعاب في اعتبار الخصوصيّة وغرس الثِّقة في أصحابها مهنيًّا، أي: يجب وضع الخصوصيّة في الحسبان، وعدم إسقاطها من أيِّ حساب.

وعليه:

ـ قدِّر خصوصيّة الآخر تُقدّر.

ـ اعترف به يعترف بك.

ـ اعتبره يعتبرك.

ـ تفهّم ظروفه الخاصّة يتم تفهّمك.

وعليه: فإنَّ عدم الاعتراف بالخصوصيّات أو الاعتداء عليها يعد تقليل شأن فيواجه بمقاومة عنيفة؛ فعلى سبيل المثال: العرف يمنح أصحابه خصوصيّة قيمية اجتماعيَّة، والدِّين يمنح أصحابه خصوصيّة عقائدية، وهكذا اللّغة والثّقافة والتقاليد جميعها تمنح لأصحابها خصوصيات

مختلفة ينبغي أن تقدّر، وإلّا لن تجد الثِّقة مكانًا لتغرس فيه وتنمو نبتة مثمرة؛ ما يجعل الاعتداء عليها اعتداء على الذَّات أو الضمير الجمعي أو الاجتماعي؛ ولهذا:

ـ قدّرني أقدّرك.

ـ اعترف بي اعترف بك.

. اغرس الثِّقة في نفسي اغرسها في نفسك.

ـ استوعبني استوعبك.

وفي المقابل:

ـ لا للتهميش.

ـ لا للإقصاء.

ـ لا للتغييب.

ـ لا لتقليل الشأن.

ولهذا يُعد اعتبار الخصوصيَّة مبدأ مهنيًّا تحقيقه يُحقّق الطمأنينة النَّفسيَّة المأمولة من كلِّ إنسان سوي، فاعتبارها يطمئن الأنا والذَّات ويحفِّزهم على الاستيعاب والتفاعل والتفهّم أو الوحدة والاندماج.

ولأجل أن تتأكد الطمأنينة ويتحقق الاعتبار يجب مراعاة الآتي:

1 ـ أن يقدّر الإنسان.

2 ـ أن يُعترف به وبقدراته واستعداداته، وإمكاناته، وحقوقه، وواجباته، ومسئولَّياته.

الإرادة ثِّقة صحوة ذاكرة:

الذّاكرة محفظة المعلومات والمعارف والمخزن الحصين الذي لا تكون مفاتيحه بيد الغير، إنّها مكمن الأسرار والصندوق الأسود للعقل البشري، الذي منه تستدعى المعلومة وفقًا للطلب أو الأمر المرغوب إرادة، وهنا تكون المعلومة صادقة، أمّا إذا كان استدعاء المعلومة نتاج أفعال الكره والإجبار؛ فلا شكّ أنّها ستكون للضرورة ملبيّة للأمر، ولكنَّ الشكوك والظنون تحيط بها.

ولأنَّ الذّاكرة مكمن الأسرار، ومخزن المعارف والخبرات والتجارب الإنسانيَّة، فهي قابلة لأن تُنشّط بمزيدٍ من الانتباه والدّراية من خلال عمليَّات التذكّر والتدبّر والتفكّر التي بها تغرس الثِّقة في الإنسان؛ فينبغي على الإنسان أنْ يفكّر عن انتباه إذا أراد أن لا تضمر ذاكرته وتكون له مكانة، وعليه بتنشيط ملكات عقله من خلال المران الذّهني وإجراء عمليات المقارنة التي تمكّنه من التمييز بين الدّقيق والأدق منه، ومن ثمّ تمكّنه من التفكير المتوقَّع وغير المتوقَّع ارتقاءً؛ فالعقول دائمًا في حاجة لأن تُمرّن حتى تمتلك القوَّة التي تُلفت الإنسان لنفسه، وتيسّر له مشاهدة وملاحظة الآخرين وردود أفعالهم تجاه الغير.

ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يستدعي محفظته من الذّاكرة ويخضعها للتقييم، ثمّ يقوّم حالته حتى يستبصر نفسه وما هي عليه، وما يجب أن يُغيره من أجل نفسه وأجل المهنة والآخرين.

فالإنسان إذا أراد ارتقاءً فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الآخرين؛ حتى يتمكّن من إزاحة

النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه حتى يدرك أسرارها وخفاياها؛ ومن ثمّ يعرف أنَّ قوَّة البصيرة بقوَّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة. ولهذا؛ فالفكر ارتقاء يمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

فتفطين الذّاكرة لا يكون إلّا نتاج الوعي بأهميّتها للإنسان الذي له من الآمال ما له، وله من ورائها آمال تحدث النُّقْلَة لكلّ مأمول نافع، فتفطين الذّاكرة ضرورة تستوجب حُسن التدبّر الذي يصنع المستقبل المشبع للحاجات المتطوّرة والمتنوّعة، ويُمكّن من بلوغ الغايات العظام التي تجعل من الإنسان قيمة مقدّرة، فينبغي الارتقاء فكرًا وعلمًا ومعرفةً وخُلقًا، وأسلوبًا، وإلّا سيجد نفسه في منازل المستهلكين الذين يعيشون ليومهم عالة على جهود المنتجين والمبدعين وأهل الحُجَّة والحكمة؛ فهم بهذه الأعباء يُجهدون المنتجين ويجذبونهم للخلف ممّا يجعل الفارق كبيرًا بين الجهد المبذول من أجل بلوغ قِمم الارتقاء، والحاصل المنتج الذي تُنتجه الصّفوة العاملة والمتطلّعة أملًا وارتقاءً.

ومع أنَّ الذّاكرة حافظة، فإنَّها قابلة لأن توسّع معرفة، وتُنشّط تذكّرًا من خلال تمكّنها من معرفة الموروث المعرفي الواسع، وتنشّط تدبّرًا من خلال حسن الانتباه والالتفات لما يجب وقت وجوبه، وليس بعد أن يفلت ويصبح ماضيًا، كما أنّها تُنشّط بالتفكّر الذي يمّدها بالحيويّة المحفّزة على بلوغ الأمل.

ولأنَّ الإنسان يولد اجتماعيًا؛ إذ لا إمكانية للعيش منفردًا، فهو في حاجة لمن يذكّره ويعلّمه كيف يتدبّر أمره وأمر من تربطه بهم علاقات، ومع أنّ هذه قاعدة ولكن كما يقولون: لكلّ قاعدة استثناء؛ فآدم وزوجه لم يمرّا بهذه المرحلة؛ وذلك بأسباب الخَلق الآدمي المتكامل، إذ لا طفولة لهما ولا مراحل نمو قبل النضج، فهما قد خُلقا على النضج خلقًا، وبالتّالي ليس لهما ما يتذكّران، ولكن بعد أن علّم الله آدم وأنبأه، أصبح لديه رصيد واسع من العلم والمعرفة؛ فيُمكنه أن يتذكّره، لِيُذكّر به الغير، {قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}[21]؛ فتلك الأسماء التي أصبحت في محفظة عقل آدم، وتمّ استدعاؤها، أنبأ بها الملائكة حُجَّة؛ فسلّم الملائكة لآدم بعد إن كان الرأي اختلافًا.

ولكن على المستوى البشري من بعد آدم؛ فالتّجارب الإنسانية متشابهة، ويمكن تكرارها، فيكون النّظر إلى تلك التجارب من باب البحث عن حلولٍ علّها تكون ناجحة في معالجة ما يحدث، وهنا تكون النّظرة إلى الماضي من باب البحث عن كلّ ما من شأنه أن يسهم في الوصول إلى حلّ، حتى وإن كان افتراضيًا؛ لأنَّ الكثير من المشاكلّ تحتاج إلى اتكاءات جديدة تكون قادرة على حلّها؛ فيحدث الانزياح المراد ضمن توليفة يُجمع فيها في بعض الأحيان حتى النقائض التي لا يتوقّع لها أن تجتمع في يوم من الأيام.

وقد يكون الخوف حاضرًا فيها؛ لكونه يمثّل الانطلاقة الأولى التي يكون على أساسها الوصول إلى الغايات المرجوّة، فالبحث عن اتفاق وحلّ يكمن من خلفه وجود

[21] البقرة 33.

خوف يحفّز ويرشد بطريقة أو بأخرى إلى تجنّب ما يجب تجنّبه وأخذ ما يجب الأخذ به؛ فيكون الاستشعار في هذا التوجّه قائمًا على درجة عالية من الحذر كي تكون النّهاية ملبّية للخوف المجنّب من الوقوع في السُفلية ومؤدّيًا إلى ارتقاء مأمول.

فالذَّاكرة محفظة المعارف والخبرات والتجارب الماضية التي يمكن الاتعاظ بها في زمن التدبّر، والوقوف عند هذه التجارب باختلافها يُعدّ وقوفًا على إرث إنساني يمثل حقبة من حقب الماضي؛ فالتَّاريخ بتفريعاته وارتماءاته وتنوّعه يمثّل مجموعة من التجارب الإنسانيَة سواء أكانت على مستوى الأفراد أم على مستوى الجماعات، وهنا يكون النّظر الحاصل منطويًا على الفكرة المطلوبة، فتُصبح بعد ذلك مطلبًا من المطالب التي لا يمكن الاستغناء عنها، فيكون هذا الطلب فيما بعد حاجةً ملحةً تكون حاضرة يشكل أو بآخر في كثير من التفصيلات التي يكون حضورها ملبّيًا للبداية الافتراضية التي كانت السبب في هذا الحضور.

إنَّ استدعاء الذّاكرة للماضي فيه من الترابط ما يجعل التجارب الإنسانية تسير وفق نسق واحد بالرّغم من العقبات التي يمكن أن تحدث؛ فالتفاعل من خلال كلّ المديات الحاصلة يمثل هذا الترابط، ممّا يجعل البحث الدّائم متحقِّقًا في كلّ زوايا الماضي، ذلك أنَّ الماضي فيه من التحقّق ما يمنح الحياة الآنية والمستقبلية حلولًا مهمة، إلاّ أنَّنا لا نعتقد بالتكرار المتطابق في الحياة كون الظّروف مختلفة أو غير متماثلة؛ فيكون الاختزال في بعض القضايا متحققًا بدرجة بعيدة ممّا يسمح بظهور مديات واضحة يُطرح من خلالها هذا التفاوت؛ فتكون الصّورة المطلوبة في كثير من الأحيان

غير مكتملة الأركان ضمن التشكيل المطلوب، وهذا يكون في حالة طلب الماضي ودمجه مع توجّهات الحاضر من أجل الوصول إلى إعادة تفعيل متشابهة تُمكّن الذَّاكرة وعيًا ويقظة.

وفي الذّاكرة يكتنف الماضي الكثير من التشكيلات التي يكون الوصول إليها يمثّل قراءة واعية بما أسبغه عليها من طروحات، ولهذا نجد يوما بعد يوم ظهور تأويلات مختلفة للماضي وقد تكون متناقضة، لكن هذا يدلّل على وجود حيّز كبير في الامتداد الفكري الذي يجوب أروقة الماضي ويقف عند محطاته الشّاخصة التي تكون فيما بعد دروسًا يستفيد منها من يبحث عن حلّ لما يمرّ به الإنسان، ولهذا وجب العمل على تفطين الذّاكرة من خلال تمرينها تدبّرًا، وتنشيطها تذكّرًا وتفكّرًا.

ومع أنَّ للذّاكرة علاقة بالتَّاريخ من حيث إنّها محفظة أحداثه وقضاياه، ولكن التَّاريخ دائمًا وما يحتويه من أحداث فيها من التشابه ما فيها، وفيها من الاختلاف ما فيها، وفيها من المتوقَّع وما لم يكن متوقَّعًا، ونتيجة لما تحمله الذّاكرة من متناقضات تاريخية؛ فهي دائمًا في حاجة للتفطين والتنشيط حتى لا تُفقد العلوم والمعارف والخبرات والتجارب والعبر والمواعظ22.

الإرادة ثِّقة ترسِخ المكانة:

المكانة تبوؤ مقام على الرّفعة المأمولة من أهل الدّراية والمعرفة، وهي ما يبلغ بالكلمة الحُجّة والعمل المنتج والخُلق الرّفيع، وهي التي تنال التقدير والاعتبار من قِبل النَّاس، والنَّاس تأملها وتسعى إلى ترسيخها قيمة.

[22] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 124 ـ 127.

المكانة لا تكون إلّا على الرّفعة، ولا تترسّخ ارتقاءً إلّا بها؛ ومن ثمّ فمن أراد أن يكون له شأن؛ فليعمل على تحقيق المكانة قيمًا وفضائلًا، وإذا أراد الإنسان أن يرتقي قيمًا وفضائلً ا؛ فليأخذ بمفاتيح العلم، ويبدأ إصلاح حاله من حيث هو، حتى يهيئ نفسه ويتأهب للعمل من أجل تحقيق ما ينبغي أن يكون عليه ارتقاءً مأمولًا.

ولكي يبلغ الإنسان مأموله قيمًا وفضائلًا؛ فعليه أن يكون قدوة حسنة لبني جنسه، فإذا حكم عدل، وإذا شهد، شهد حقًّا، وإذا عاهد أوفى، وإذا قال صدق، وإذا عمل أحسن عمله، وإذا تعلّمَ علّمَ، وإذا اكتال أوفى، وإذا رأى فتنة بين النَّاس أصلح، وإذا غضب تملّك نفسه، وإذا ذُكِر بخيرٍ فعليه بالمزيد، وإذا ذُكر بسوءٍ فليصفح وليعفو.

ولذلك فالتمسّك بالقيم لكونها قيمًا لا يفيد، بل المفيد العمل بها قولًا وسلوكًا، ولهذا ينبغي أن يتشرّبها النشء تربيةً وتعلّمًا وتعليمًا حتّى يجسدوها سلوكًا كما جسَّدها أهل المكانة.

فأهل المكانة هم دائمًا في علوٍ قيمي قولًا وسلوكًا؛ علوٍ عن الرّذيلة وما يؤدّي إلى ارتكاب أفعالها وأعمالها التي ترفضها القيم الحميدة والفضائل الخيّرة.

ولأنَّ الكبرياء تعظيم شأن؛ فهو الذي يجعل أهله مسؤولين وكرامًا أمناء، وفي المقابل من لا يكون عليها قيمًا وفضائلًا لا يكون إلّا في دونيَّة وسُفليَّة، ولهذا فإنَّ أوطان المتخلّفين تتخلّف بأسبابهم إذ لا مسئوليَّة ولا أمانة لديهم ولا إخلاص للوطن ولا كبرياء لهم عن النّواقص والرّذائل والمفاسد وما يُعيب وما يشين.

إذن: المكانة والكبرياء تعظيم شأن؛ فالكبرياء كونه قيمة حميدة لتعظيم الشأن فهو الذي به يتمّ بلوغ المنزلة العالية والمكانة الرّفيعة، في مقابل آخرين لا ينزلون إلّا في الأماكن الدونيَّة التي لا تليق بأصحاب مكارم الأخلاق.

ومن بلغ المكانة العالية بلغ الرّفعة التي يأملها من خُلق في أحسن تقويم ولم يخالف، ومن بلغ المكانة عملًا وسلوكًا نال الاحترام والتقدير والاعتبار من قِبل الغير، ولهذا فالمكانة تعظيم بما هو عظيم، ورفعة قدرٍ بما هو رفيع، فأهل المكانة يتّعظون بما هو عظيم ويأخذون العبر من كلّ عبرة ومعتبر.

ولذا فأهل المكانة لهم من الكبرياء ما لهم، فأصحابها يتكبّرون عن كلّ ما من شأنه أن يسيء للقيم والأخلاق والأعمال والأقوال، فالكبرياء تعالٍ عن كلِّ ما يؤدّي إلى الفتنة، أو يسيء للنّاس، ممّا يجعل الكبرياء هو المحقّق لرفعة المكانة المقدّرة والمعتبرة، ويجعل لصاحبها شأن بما اختار أن يكون عليه بذوقٍ رفيع.

وعلينا أن نميّز بين قيمة التكبُّر والاستكبار؛ فالتكبّر قيمة حميدة لتعظيم الشأن بعدم النزول في منازل السّافلين، كالتكبّر عن القول الزّور وعن أيّ نعوت لا حقائق تسندها، وهو التكبُّر عن الأفعال التي لا تليق بمكارم الأخلاق، وهو الإخلاص في العمل مع وافر الأمانة، وهو السّلوك المثال الذي لا يقدر عليه إلّا من له مكانة مقدّرة. أمَّا الاستكبار فهو الاستعلاء عن الحقيقة والجحود لمبرراتها ومعطياتها وهو معاندة بدون حُجّة دامغة؛ فالمستكبر يقف على الحقيقة ويغض النّظر عنها، بعدم اعترافه بأنّها الحقّ، مع العلم أنَّ

هذا الأمر لا يُنقِص من شأن الحقيقة، بل يُنقص من شأن المستكبر عليها بغير حقٍّ.

وهذا يعني أنَّ للتكبّر صفتين:

الصفة الأولى: التكبُّر بالحقّ عن المظالم وعن الأعمال الوضيعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، وهذه من صفات الذين يقولون الحقّ ويعملون على إحقاقه، أي: إنَّهم الذين يتعالون عن المكر والكيد وسفك الدّماء في الأرض بغير حقّ وإن حكموا بين النَّاس حكموا بالعدل، وإن قالوا صدقوا، وإن عملوا أصلحوا وإن عاهدوا أوفوا.

الصفة الثَّانية: التكبُّر عن الحقّ، بالحياد عنه والميل كلّ الميل إلى ما يؤدّي إلى إخفائه ومغالبته بالباطل، والمتكبّرون عن الحقّ همّ الذين يقومون بأعمال الوضاعة التي تقلِّل من شأن مرتكبيها، بما يقدمون عليه من أفعال لا تُرضي النَّاس، وهؤلاء هم الذين إن قالوا كذبوا، وإن عملوا أفسدوا وإن عاهدوا أخلّوا ونقضوا.

وعليه: فإنَّ للتكبّر مبرراته لكونه قيمة حميدة، ولا مبرّرات له ألَّا يكون قيمة حميدة، ولهذا تُحرّف القيم وتقوّض من قِبل أولئك الذين ضلُّوا فأفسدوا فظلموا فطغوا وتكبّروا كما طغى وتكبّر من قلبهم المتكبّرون بغير حقّ، ولكن دائمًا التَّاريخ يمدّ بالعبر فمن أراد أن يعتبر فعليه ب التَّاريخ لأخذ العبر منه، ومن لم يرغب في ذلك فالحاضر يكفيه درسًا حيًّا.

ولذا فالمفسدون هم الذين يتكبَّرون عن الإصلاح، أمَّا المصلحون أهل المكانة فهم الذين يتكبَّرون بفعله: {وَإِذْ قُلْنَا

لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[23]. إنَّ استكبار إبليس كان استكبارًا عن الحقّ، أمَّا تكبُّر الملائكة فكان تكبرًا بالحقّ، وهنا فالسّجود يدلُّ ويُعبّرَ عن الطَّاعة وبلوغ المكانة الرّفيعة التي تؤمل من الخيرين.

والمتكبّر بظلمٍ هو الذي يعرف الحقيقة ويأبى إظهارها، ولا يأخذ بها، أمَّا المتكبّر بالحقِّ فإن دعي لنقيصة تكبَّر عنها، وإن دعاه سائل استجاب وفق استطاعته، وإن لم يستطع فلا ينهر؛ ولذا فالتكبّر صفة محتملة للإيجاب والسّلب؛ فتكبُّر العبد عن ارتكاب المظالم وارتكاب المعاصي قيمة إيجابية، وفي المقابل ارتكابه للأفعال الذميمة والمفسدة في الأرض قيمة سلبية، ذلك لأنَّ الكبرياء لا يكون إلّا نقاء وصفاء مع الأنا الذي فيه كبرياء المخلوق ورفعة مكانته، والذَّات التي فيها كبرياء المجتمع، وكبرياء الضّمير الذي فيه تُقدَّر الإنسانية.

الإرادة ثِّقة تؤهِّب للاستبصار:

غرس الثِّقة لا يجد مكانًا له إلَّا والشّكّ لا مكان له في نفس الإنسان، وإزالة الشّكّ يتطلّب حسن نوايا وصدق قول وفعل، وتفهّم ظروف وتقدير خصوصيَّة، وتبصُّر بالحجّة؛ ولهذا فالتبصّر قيمة تظهر مدى الانتباه عن وعيٍ وإدراك وتبيّن لِما هو مُبصر فيه؛ ممّا يجعل المستبصر قادرًا على أن يميّز بين الشيء الدّقيق وما هو أدقّ منه؛ فالتبصُّر إلى جانب كونه قيمة حميدة، هو ضرورة إنسانية من أجل التدبّر

[23] البقرة، 34.

والتذكّر والتفكّر كي يتمّ تحقيق الأهداف وبلوغ الغايات ونيل المأمول من بعدها.

والصّفة التي تستمدّ من التبصّر هي الاستبصار، ممّا يجعل صاحبها مستبصرًا في أمره وما يتعلّق به من أمر، وما يحاط به ويحوطه وبما يتأمله عقلًا وإدراكًا وما يستمدّه استقراءً واستنباطًا: {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}[24].

مضمون هذه الآيات الكريمة يتعلّق بسيّدنا يونس كما يتعلّق بغيره من الأنبياء الكرام عليهم الصَّلاة والسَّلام، وهذه الآيات جاءت مفاهيمها دالة على أهميَّة الترقُّب مع الملاحظة والانتباه تأهّبًا من قبل سيدنا يونس لقومه (وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) هذه الآية الكريمة تدلّ على تولّي يونس عن قومه بعد أن ذهب مغاضبًا، ثمّ جاء قوله تعالى (وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) دالًا على أهميَّة ملاحظة ونظر يونس لقومه في المرّة الثانية بعد أن آمنوا ليلاحظ الفرق بين حالتهم الأولى قبل الإيمان والحالة الثانية من بعد إيمانهم جميعًا دون استثناء، وفي كلتا الحالتين لم تكن نظرة يونس لقومه متطابقة؛ وكذلك لم تكن نظرة قومه له متطابقة، ولأنّه الحقّ؛ قال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[25].

[24] الصافات 174 ـ 179.

[25] الصافات 181، 182.

وعليه: لقد كان يونس بصيرًا بحاله وحال قومه قبل إيمانهم وبعد إيمانهم؛ ولأنّه رسول مُرسل لقد كان طائعًا لأمر ربّه الذي أمره بأن يبصرهم لأجل أن يعرف ويتعرَّف على ما يؤثّر فيهم سلبيًّا ليتفاداه وما يؤثّر فيهم إيجابيًّا ليقدم عليه متأهّبًا.

ولذا فالبصير هو الله الذي يُدرك الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ}[26]، أمّا المبصر فهو الإنسان الذي يُدرك حقيقة وجودها بالمشاهدة العينيّة؛ قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}[27]؛ ولهذا المؤمن المستبصر في الأرض هو الذي لا يقف عند حدّ مشاهدة الإبل، بل يتعدّاها إلى معرفة الكيفيَّة التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنًا بأنَّ من ورائها خالقًا عظيمًا يملك قوَّة الخلق كلّه ويؤمن إدراكًا أنّه الخالق الذي لا يُخلق جلّ جلاله.

وعليه:

ينبغي أن لا يقف تفكير الإنسان عند حدّ المشاهد، بل عليه أن يكون متهيئًا لمعرفة الكيفيَّة التي عليها المشاهد، لأنّ معرفة الكيفيَّة تمكّن من المعرفة الواعية، وتقود إلى معرفة المجرّد؛ ومن ثمّ كشف القوانين ومعرفة المستحيل مستحيلًا والمعجز معجزًا، وهذه لا يُمكن أن تبلغ إلّا إذا كان عقل الإنسان وفكره متأهبًا لمزيد من المعارف والعلوم:

[26] الأنعام 103.

[27] الغاشية، 17 ـ 22.

{وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِى العمى وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ}[28] الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمّد عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فالكفرة يعرفون حُجّة محمّد رسول الله ويجحدون الحقيقة الآتي بها؛ ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا يرى شيئًا.

ومن ينظر إلى تاريخ الأمم السّابقة يجد التَّاريخ مليئًا بالعبر والمواعظ والحِكم والدروس والعواقب؛ قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[29]، وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}[30].

ولأنَّ الله قد أنعم على عباده بالبصر والبصيرة؛ فهو يراهم في أحسن صورة وتقويم وهمّ مستبصرون في آياته عزّ وجلّ؛ وهم كذلك متهيئون لمعرفة الكيفيَّة التي عليها المخلوقات، ومتهيّئون لمعرفة العلل التي تكمن خلف الأفعال والأعمال والسّلوكيّات التي ترتكب سواء أكانت انحرافًا أم صلاحًا.

وفيما يأمر بالبصر إليه والنظر فيه، كما أمر سيدنا يونس صلى الله عليه وسلَّم؛ وذلك ليكون نظر النّاظرين إلى ما يسرّ النَّفس ويطمئن القلب، قال تعالى: {صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}[31].

[28] يونس 43.
[29] الأنعام 11.
[30] النمل 69.
[31] البقرة 69.

ومع أنَّ النّظر إلى البقرة الصّفراء الفاقع هو نظر إلى المشاهد المحسوس فإنَّ نظر الكثيرين لا يرتقي إلى معرفة المجرّد، ولا يقود إلى معرفة القوانين التي يجب أن تكتشف تقدّمًا، ولا يقود إلى معرفة الأسباب الكامنة وراء المشاهد (أيّ مشاهد)؛ ولهذا وجب التأهّب فكرًا حتى تصبح الثِّقة في عقولنا محفّزة على معرفة المزيد من الأسرار الكامنة والمجرّدة، ولا ينبغي أن نتوقّف عند حدّ المشاهد، بل المشاهد إن كنّا متأهبين يستفزّ فكرنا وعقولنا لما هو أعظم، ومن هنا وجب البحث تدبّرًا.

وعليه: فالإنسان المتأهّب بصرًا وبصيرة هو الذي يتمكّن من بلوغ الأشياء والتعرُّف عليها، وهو الذي يتبيَّن الأمر قبل الخوض فيه، إنّه الذي يتعلّم ويعلم ويعرف ويتعرَّف، ثمّ يَقدم ويفعل؛ فالمستبصر المتأهّب هو النّاظر إلى الأشياء بعين الحقّ؛ فلا ينكر شيئًا ولا يتعجّب من شيءٍ؛ لأنّ الله بكلّ شيء عليم وعلى كلّ شيء قدير.

ولأنَّ الإنسان المتأهّب هو المستبصر بالحقّ؛ فهو المطيع لأوامر ونواهي البصير المطلق، وهو لا يركع ولا يسجد لسواه، يصوم ويزكي ويتصدّق ويحجّ تأهبًا لنيل المأمول جنّة.

ومع ذلك فالتأهّب سلوك وفعل يمكّن من الإقدام على العمل، فعلى سبيل المثال: يتأهّب الإنسان إلى الصَّلاة بعد تهيؤ واستعداد من خلال إقامة الصَّلاة وقوفًا بين يدي الله، ممّا يجعل إقامتها فعلًا يؤدّي إلى عملٍ لا يمكن الدخول فيه إلّا بالتكبير (الله أكبر) وهنا بدأ العمل (الصَّلاة عمل يُقام به) إقامةً وركوعًا وسجودًا، وهذه أفعال تتمّ بعد تأهّب.

وعليه:

ـ تأهّب لممارسة حقوقك؛ فالحقوق تمارس.

ـ تأهّب لواجباتك؛ فالواجبات تؤدّى.

ـ تأهّب لمسؤولياتك؛ فالمسئوليَّات تُحمل.

ـ تأهّب لأهدافك؛ فالأهداف تنجز.

ـ تأهّب إلى أغراضك؛ فالأغراض تتحقّق.

ـ تأهّب إلى غاياتك؛ فالغايات تُبلغ.

ـ تأهّب لمأمولاتك؛ فالمأمولات تُنال.

ـ تأهّب لإشباع حاجاتك؛ فالحاجات تُشبع.

ـ تأهّب مسرعًا؛ فالإسراع يمكّنك من خوض المنافسة، شريطة ألا تكون متسرّعًا فالتسرّع يضيع كلّ شيء ويعيدك إلى نقطة الصّفر.

ـ تأهّب شجاعة، ولا تتأهّب تهورًا.

ـ تأهّب لكلّ شيء هو جزاء منك، ولكن لا تبالغ.

إذن: فمن هو المتأهّب إيجابًا؟

أقول:

هو الذي تيقّن أمره عن بيّنة، وعرف ما له وما عليه، وقبل بالتقدّم تجاه ما يجيب على تساؤلاته وافتراضاته، وما يشبع حاجاته أو يمكّنه من الفوز، ومن ثمّ فقد تهيأ إراديًّا وأعدّ العدّة لذلك، ثمّ استعدّ لخوض المنافسة أو المعركة، أو لنيل ما يأمل والفوز به؛ فالتأهّب قوَّة كما تدفع إلى التقدّم

تدفع إلى التخلّف، وكلّ حسب أهدافه وأغراضه وغاياته وما يأمل.

ولذا يجب أن يكون المتأهّب متأهّبًا في ذاته ولا ينتظر من أحدٍ أن يؤهّبه؛ فالتأهّب يرتبط بنظرة ومعتقد وخبرة ومعرفة وتعلّم المتأهّب في ذاته، أمَا التأهيب من قِبل الغير فقد يعدّه البعض لا يزيد عن كونه أداء وظيفيًا.

ولهذا فالمتأهّب إيجابيًا هو من نسف جسور التوقّف عند الحدّ الذي تمّ بلوغه، كما نسف جسور العودة إلى الخلف، ممّا جعل أمامه خيارًا واحدًا، التقدّم الذي من بعده تفتح الآفاق وتصبح فرص التقدّم أعظم[32].

تقويض الإرادة:

ولأنَّ مفهوم الإرادة يرتبط بالحريَّة ممارسةً، فإنَّ تقويض الإرادة يعدُّ تقويضًا لممارسة الحريَّة؛ ذلك لأنَّ التقويض إحاطةٌ ومحاصرةٌ لا تسمح للإرادة أن تتمدّد بحريَّة؛ فهي تحدّ منها أو أنّها تمنعها منعًا باتًّا، فالإرادة على الرّغم من أنّها قيمة إنسانيَّة حميدة، فإنّها عبر التَّاريخ تتعرّض إلى التقويض والانكماش.

وعليه: فالتقويض فعل هدمي إفسادي: (معنوي ومادي) بهدف إسقاط المنظومة القيميَّة أو البنائيَّة، فبه تتم زعزعة الإرادة بأفكار لا علاقة لها ببناء المستقبل ولا صنعه.

ولكن أيَّة إرادة؟

[32] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، 2022م، ص 5 – 63.

أقول:

الإرادة العازمة على إحداث النُّقلة إلى بلوغ المأمول المرجو، وهذه عادة ما تحدث بين الإرادات المتنافسة صراعًا؛ بعلَّة الخوف من تمدّد القوَّة الاقتصاديَّة والعسكريَّة على حساب زيادة المكاسب والمغانم.

ولهذا يتمُّ العمل على تشتيت جهود المنافس، أو جهود الخارجين عن الإرادة المسيطرة على المنظومة الدوليَّة، كما حدث مع عبد النَّاصر، ومع صدَّام حسين، وكاسترو، وما يحدث الآن مع الرَّئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو.

أي: مع أنَّ سياسة العالم نظريًّا تبارك وتؤيّد الرَّاي والرَّاي الآخر، فإنَّها عمليًّا لا تقبله، بل تعمل على تقويضه أوَّلًا، وثانيًا تواجهه لتكون النتيجة: الاستسلام والانكسار، أو القضاء عليه نهائيًّا.

ومع ذلك فالفرق كبير بين أن تقوِّض رأيًّا أو شخصًا وأن تقوِّض إرادة؛ ذلك لأنَّ الرَّاي يتغيَّر ويستبدل، والشخص كذلك، ولكن إنْ قُوِّضت الإرادة قُوِّضت الحريَّة بأسرها، وهذا لا ينطبق على الإرادة المنفلتة، بل الأمر يتعلّق بالإرادة المتمركزة على الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة، أمَّا الإرادة المنفلتة (غير المنضبطة قيمًا وخلقًا) فينبغي أن تقوَّض وتربط بمعياريَّة تعيدها إلى الذاكرة وبوصلة القيم.

والتقويض قد يكون: داخليًّا، وقد يكون خارجيًّا؛ فإن كان داخليًّا محليًّا كان التقويض داخل الحدود، وهو كما يحدث بين الشعب ورأس النظام وقمَّة سُلطانه، أي: عندما يقدم رأس النظام على التفرُّد بأمر السُّلطان ويصبح دكتاتوريًّا في

أسلوبه ووسيلته، ولا نهوض في عهده، فلا بدَّ أن يجد نفسه مقوَّضًا من أقرب الدوائر التي كان يعتقد إنَّها ذراعه وعصاه الطولى.

أمَّا إذا كان التقويض من الخارجِ: فالأدوات المستخدمة فيه معلوماتيَّة ومخابراتيَّة واقتصادية (حصار يُمكِّن من التحكم في كلِّ داخلٍ وخارجٍ، مع قرارات المنع والحرمان، والمعاقبة القهريَّة).

وفي التقويض الدّولي لأيِّ نظام تتفاعل فيه روح التعاون والعمالة بين الداخل والخارج، فتحرك منظمات المجتمع المدني، والأحزاب المدعومة من الخارج؛ للتظاهر المطوَّل زمنًا بهدف إرهاق النظام، أو الدَّولة المستهدفة بالتقويض.

وأقول: إنَّ الشُّعوب لا تتفاعل دائمًا مع الأجنبي، وإن توحدت المطالب أو الغايات؛ فعلى سبيل المثال: ما يجري الآن في الجزائر من حراك شعبي وطني جاء في وقته بإرادة شعبيَّة جزائريَّة محليَّة، وهذه من طباع الجزائريين العظام، وهكذا الشعب السوداني البطل، الذي يتظاهر بإرادة سودانيَّة وطنيَّة، ومن هنا سقط نظام المعاق بدنًا وذهنًا مع نظام البشير المعاق عقلًا وفكرًا، ومع الفارق أقول: إنَّ السيد الرئيس المخلوع عبد العزيز بوتفليقة كان مناضلًا ولا غبار على ذلك؛ أمَّا ذلك المتقلِّب فأصبح في قمامة التَّاريخ.

ولأنَّ الإرادة واجبة التحرير نزلت الرّسالات الإلهية من أجل تحريرها من ذلك التقويض، الذي جعل النَّاس يتّخذون آلهة من دون الله؛ فكان التوحيد كسرًا لتلك القيود والأطواق من أجل حرّية الإنسان، ولكنَّ الصراع بين الخير

والشرّ لم ينته بعد، مع أنَّ الحقَّ أصبح بيّنًا والظُّلم بيّنا؛ فاهتدى من اهتدى، وكفر من كفر، وأشرك من أشرك، وضلّ من ضلّ، وطغى من طغي؛ فالذين اهتدوا اختاروا الإصلاح والإعمار والبناء والفلاح سبيلًا، والذين ضلّوا وطغوا اختاروا الفساد والإفساد وسفك الدّماء بغير حقّ سبيلًا؛ ولهذا الصّراع والصّدام بين المصلحين والمفسدين دائمًا يشتدّ إلى أن يحسم الأمر الذي به تتخلّص الشُّعوب من أولئك المارقين.

فالمارقون الذين تمكّنوا من الاستيلاء على مقاليد السُّلطة في بلدانهم حكموا النَّاس بإرادة ضالة، كما كان حال فرعون، الذي قال كما جاء في القرآن الكريم: {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}[33]، فهؤلاء لا يرون شيئًا يعلو على رؤاهم، ومن يخالف رؤاهم ضلّ، ومن يضلّ عن رؤاهم المخالفة للحقّ تواجهه المكائد، والمكر، والدّسائس وصولًا إلى إقصائه بعد أن يلبّس بكمٍّ من التّهم التي تلفّق له؛ ليُدانَ بتلك القوانين، التي سنّتْ من أجل الطّاعة للظلمة، ولكن لأنَّ هذه الأفعال مضادة لنواميس الحياة وسُننها الطبيعيَّة، ترفضها الإرادة الإنسانيَّة كلّما كسرت القيد الذي يكبّلها ويحول بينها وبين ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي؛ ولذا عندما يبلغ الإنسان الصّحوة لا بدَّ له أن يرفض بقوّة الإرادة كلّ أسباب القيود وعللها، كما يرفض من قيّد النَّاس بها، ومن أمر بوضع القيد في الأيدي، والطوق في الأعناق.

ولأنَّ الإرادة قوّة فاعلة متى ما أطلق عَنَانُها بلا مظالم؛ فهي على علاقة قوّة مع قيمة الرَّفض وارتكاب أفعال

[33] غافر 29.

التطرُّف، فالرَّفض كونه فعلا متحقّقا لا يكون إلّا عن إرادة؛ ولهذا فالإرادة هي القوَّة الدافعة للإقدام على الفعل، فالفعل في دائرة الممكن يتحقّق بالقوَّة، ولكنّه ليس دائمًا متحقّقًا بإرادة، فالإكراه والإجبار يقودان إلى تحقيق الفعل بالقوَّة حتَّى ولو كان الفاعل غير راضٍ.

أمَّا إذا بلغ حال الفاعل درجة الرَّفض والتطرُّف فإنَّ الإرادة تكون ضمنيًّا متحقّقة بفعل الرَّفض والتطرّف، غير أنَّ الرَّفض أوَّل ما يتحقّق فيتحقّق قولًا، أما التطرّف فيتحقق فعلًا، أي: إنَّ الرَّفض قول يقال في مواجهة أو عن خطاب ورسالة، أو أن يكون مثل التطرُّف متحقّقًا فعلًا وعملًا وسلوكًا.

ولأنَّ الإرادة إشهار عزم مع وضوح نيّة؛ فالتطرُّف كونه فعلًا متحقّقًا قولًا وعملًا وسلوكًا؛ فهو المعبّر الحقيقي والموضوعي عن مستوى الشّخصيَّة الرّافضة والمتطرّفة.

وهنا تصبح الإرادة إعلانًا صريحًا عن امتلاك الرّافض لزمام أمر الرَّفض، ممّا يجعل الملاحظين والمقوِّمين خير واقفٍ على المشاهد والملاحظ الذي يعكس حقيقة الرَّفض عن إرادة.

فالإرادة قيمة مشيئيّة اختيارية تتمركز على الرَّغبة والوعي، ومع أنَّ الإرادة موجبة فإنّ المترتّب عليها اختيارًا قد يكون موجبًا وقد يكون سالبًا؛ فالإنسان بإرادته يؤمن، وبإرادته يكفر، أو يُشرك، أو يضل، أو يسرق، أو يكذب، أو ينافق، أو يتطرّف وكلّ هذه المتنوّعات اختيارية، ولكنّها قد تكون عن وعي، وقد تكون عن غفلة أو جهل: {وَقُلِ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[34].

فقيمة الإرادة تصميم واعٍ يُمكِّن الفرد والجماعة والمجتمع من اتّخاذ القرار الذي يتعلّق بأمرهم، سواء أكان هذا الأمر سياسة داخليَة أم خارجيَّة أم سلما أم حربا؛ ولذا لا يُتّخذ القرار إلّا بعد معرفة تامّة بما يجب وفقًا لدائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فبالإرادة تُحدّد الأهداف، وتُرسم الخطط ويتمّ الإقدام على تنفيذها بكلّ حرّية.

وعليه: الإرادة هي قيمة الحريَّة في اختيار الخير أو الشرّ أو اتخاذ المواقف المحايدة بأسباب عدم التبيّن، أو لأسباب الخوف والنّفاق، وبالتّالي لا حرّية دون إرادة، ولا إرادة دون حرّيَّة، فهنا تكون الإرادة قيمة حميدة ذات خصوصية؛ وذلك لتعلّقها بالإنسان الحرّ وعلاقاته بما يُقدَّم إليه من اختيارات متنوّعة، وبما يرغب وما لا يرغب، أمّا الحريَّة فيغلب عليها الطّابع السّياسي الذي قد يجد الإنسان نفسه معها في حالة تكيُّف حتَّى وإن كانت لا تمدُّه بما يحقّق له التّوافق.

وعلى المصلحين والتربويين وولاة الأمور أن يعملوا على تقوية إرادة الذين يتعلّق أمرهم بهم؛ حتَّى لا يكونوا منهزمين في أثناء مناقشتهم فيما يتعلّق بهم من أمر، أو يكونوا مستسلمين لأمرٍ واقعٍ ليس بموجب، وأن يعملوا جادّين على تفطينهم من الغفلة التي قد تلمّ بهم، وتبعدهم عن ممارسة حقوقهم ، وأداء واجباتهم، وحمْل مسؤوليَّاتهم دون إكراه وظلم.

[34] الكهف 29.

وهنا تُعدّ الإرادة قيمة تعاقديَّة بين التخيير والاستطاعة ينبغي أن تقوَى لأجل أن تتّسع الهوة بين الأفراد، وما يؤدّي بهم إلى الإكراه أو الإجبار والإقصاء، فبالإرادة تمارس الحريَّة، وتتأكد السِيادة، ممّا يجعل النتائج المتوصّل إليها مرضية للفاعل حتَّى وإن كانت نتائجها سالبة.

ومع أنَّ الإرادة تُمكِّن من ممارسة الحريَّة اختيارا، فإنَّ الإرشاد للحقِّ بالحقِّ حقّ على من يَعلم ويؤمن ويُدرك العواقب، فهناك القاصر والجاهل والمغرّر به، فلا داعي للإفساد، ولا داعي للتّسفيه، أي: لا داعي أن يسفّه الحاكم إرادة الشّعب في التعبير عن رأيه، ولا داعي للقمع بما أنَّ الإرادة لم توظّف في باطل أو سفك دم بغير حقّ، ولا داعي للظلم بما أنَّ الناس لم يتجاوزوا الحقّ.

ثمّ من واجب المتعلِّم أن يُعَلِّم، ويُعلِم من لم يتعلَّم، ومن لم يَعْلَم بما عَلِم من معارف خيِّرة تسهم في تقويّة الإرادة، وتوجّهها لما يفيد وينفع الجميع، وعلى أولياء الأمور حقّ الرّعاية الحقّة، فالأنبياء عليهم السَّلام من قبل بشّروا وهدوا وبلّغوا ما أُنزِلَ عليهم من وحي، وحرّضوا به الأقوام والشُّعوب والقبائل وسكان القرى والمدن والكافّة وتركوا للإنسان الحريَّة الإراديّة في الاختيار طاعة لأمر الله؛ ولذا فمن يطع الله لا يمكن أن يقبل بطاعة من دونه إلّا لأمرٍ هو جزء منه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدّين قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[35].

ومع أنَّه في دائرة الممكن امتلاك الإرادة هو امتلاك للحرّية الشّخصيَّة، فإنّ هذه الحريَّة لا وجود لمطلقيّتها؛ فالإطلاق أمره بيد خالق الإطلاق؛ ولهذا بالإرادة في الحياة

[35] البقرة 256.

الدّنيا هناك من كَفَرَ وهناك من يكفر، أمَّا في الحياة الآخرة فلكلٍّ حسابه ثوابًا أو عقابًا، ولأنَّ الإرادة فضيلة خيّرة أمر الله تعالى رسوله الكريم عليه الصَّلاة والسَّلام أن لا يفرض شيئًا على النَّاس، بل عليه البلاغ، وعليه بالمشاورة في كلّ أمرٍ يتعلّق بالنَّاس، ثمّ جعل أمر النَّاس من بعده شورى بينهم؛ حيث لا إكراه في الدين: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[36] ثمّ قال تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[37].

ومع أنَّ الإرادة واجبة إطلاق العنان بلا ظلم، فإنَّ السَّاسة غير الديموقراطيين عبر التَّاريخ يقوّضونها بلا دلّيل ولا حُجَّة؛ ولهذا لا يمكن أن يستقرَّ لهم نظامٌ، ولا يمكن أن يصنعوا مستقبلًا مأمولًا.

إذن كلّ مقيدي الإرادة عبر التَّاريخ معادون لممارسة الحريَّة ديمقراطيا، والزّمن كفيل بترويضهم، وفي المقابل إرادة الشّعب متى ما تمكّنت من المبادرات المفاجئة حقّقت لهم الهزيمة.

ومع أنَّ الإرادة لا إكراه فيها إلّا أنَّ المعرفة الحقّة تُسهم إسهامًا كبيرًا في استنارة الإرادة بالموجبات تحليلًا وتحريمًا، ونفعًا وضرًّا حتَّى يتمَّ الأخذ بما يجب عن إرادة ووعي، ويتمّ الانتهاء عمَّا لا يجب إرادة ووعيًا؛ ولهذا فبالإرادة يتمّ تبيّن الحقِّ والحكم به عدلًا، وكلّ في دائرة الممكن حسب الاستطاعة.

ولأنَّ الإرادة فطرة لا تقبل ظلمًا، وجب سيادة الاعتبار بين الأنا والآخر؛ حتَّى لا تتصادم الإرادتان؛ فليس كلّ ما يُراد

[36] آل عمران 159.

[37] الشورى 38.

بإرادة يجب أن يؤخذ أو يتمّ، بل يجب أن يُقدّر الآخر الذي يمتلك الإرادة ومعطياتها ومستوجباتها كما يمتلكها الأنا، وإن لم تراع قيمة الإرادتين تقديرًا واعتبارًا واعترافًا يحدث الرَّفض وقد ينجم الصدام، ولتوضيح دلائل الإرادة قال تعالى: {وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا}[38] .

في هذه الآية الكريمة شرطان للإرادة:

ـ الشرط الأوَّل: على المرأة بقوله تعالى: (إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) أي: إن وهبت نفسها إرادة للنّبي أن يستنكحها.

ـ الشرط الثّاني: على المرأة أيضًا، إن كانت بإرادتها قد وهبت نفسها للنّبي؛ فعليها أن تحترم وتقدّر إرادته تجاهها: (إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا)، أي: عليها أن تعرف هل هو راغبٌ أن يستنكحها؟ فإن كان راغبًا تطابقت الإرادتان، وإن لم تتطابق الإرادتان؛ فعليها تقدير ذلك تقديرًا عاليًا؛ ولهذا عند المسلمين عقد النّكاح يستوجب الموافقة الإرادية من المستهدفين بعقد النّكاح؛ لتكون قيم الاحترام، والاعتراف والتقدير والاعتبار سائدة بين الأنا والآخر (الزّوجين).

والإرادة معرفة ووعي بما يجب وبما لا يجب، وهي قرار يصدر للإقدام الاختياري دون إكراه على ما يجب أو ما لا يجب، مع تحمّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليَّات، وهنا تكون الإرادة وثيقة الصّلة وعيًا بفعل يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس الذي يُظهر العلاقة القويّة عن

[38] الأحزاب 50.

ثقةٍ مع الموضوع، الذي به ظهرت إلى حيّزِ الوجودِ المشاهدِ والملاحظِ.

فالإرادة هي قيمة تحقيق المكانة التي يسعى النَّاس إليها، ممّا يجعل المستهينين بالآخرين مُستهانًا بهم، سواءً أكانوا على دراية بذلك أم لم يكونوا، ومن يجعل للآخرين مكانة يجد له عندهم مكانات، ومن يحترم ويتّعظ لن تكون له حاشية إلّا من المتّعظين، ومع ذلك في دائرة الممكن كلّ شيء متوقّع؛ فلا داعي للغفلة، ولا داعي لاستغفال الآخرين.

ولأنَّ الإرادة قيمةٌ إنسانيَّة؛ فلا ينبغي أن تقوّض من أَحَدٍ، وهنا تكمن قيمة الإرادة في أنَّها مشبعة للحاجة، وفي المقابل عندما تقوّض تصبح حاجة في ذاتها، أي: إنَّها حاجة لكلّ إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، وبها تُشبع الحاجات التي ستظلُّ مشبعاتها مطلبًا إلى أن يتمّ الحصول عليها إرادة، أو أن يتمّ انتزاعها بالقوَّة انتزاعًا.

إنَّ الإرادة المسئولة هي الإرادة الواعية التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليها من أعباءٍ جسامٍ، ومن ثمّ لا يترتّب ندم عليها؛ ولهذا يكون لكلِّ شيء قاعدة إصلاحيَّة تعيد الأمور إلى ما يجب، وفي مقابل ذلك استثناءٌ إفساديٌّ يؤدّي إلى ما لا يجب، وللتوضيح أقول:

القاعدة الإصلاحية: هي التي تقود إلى الإصلاح وبلوغ الحلّ، ممّا يجعل النَّاس يتمسّكون بما يتعلّق بشؤونهم، ومنها:

ـ التّمسك بالدِّين والدِّفاع عنه، حتَّى ولو كان بعض المنتمين إليه غير ملتزمين بأداء معتقداته.

ـ صون العِرض والدّفاع عنه.

ـ التمسّك بالهويَّة والدّفاع عنها.

ـ صون الوطن والدّفاع عنه.

ـ ممارسة الحقوق وأخذها بإرادة أو بقوّة.

ـ أداء الواجبات في مقابل حقوقٍ تمارس، وتأديتها بإرادة أو بقوّة.

ـ حمْل المسئوليَّات يجعل المواطن مركزًا ولا آخر غيره.

ـ إصلاحُ الأرض وإعمارها وسلامة بيئتها بُعدٌ إنساني ومسئوليَّة عامّة.

ـ تعلُّم المفيد والأخذ بما هو مفيد يؤسّس للموضوعيَّة قاعدة بين الأنا والآخر.

وفي مقابل هذه القواعد تظهر الاستثناءات من قِبل الأنا أو الآخر، ممّا يجعل مَنْ وضع نفسه مهيمنًا في خانة الاستثناءات مطاردًا، حتَّى وإن نصَّب نفسه شرطيًّا مدَّعيًا سلامة الوطن، والأمن العام، وتنفيذ القوانين بحزم، أو حتَّى وإن نصَّب نفسه واعظًا ومرشدًا بما أنَّه في دائرة الاستثناءات؛ ولذا سيظلُّ مطاردًا بالقوَّة حتَّى يعود إلى ما يُرسِخُ تلك القواعد، التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانيَّة عن إرادة.

ولذا فكلّما اشتدَّت المطاردةُ، واشتدَّت التأزُّمات، وهُدِّدَ الآخرون بالموت من قِبل مَن هم في دائرة الاستثناءات أصبح الموت عندهم مطلبًا مع توافر الرَّغبة؛ ولهذا يفقد

الشّرطيُّ سلاحه، والواعظ حُجَّته، التي بها يلاحق الآخرين، ويصبح هو الضحيَّة بلا ثمن.

وعليه:

إنَّ الموت الذي هو سلب الحياة، يتحوَّل إلى قيمة عالية تنال الاعتراف والتقدير والاعتبار عندما يكون عملًا يرجو الإصلاح بتحرير الوطن، أو صدّ خطر يحاك ضدّه، أو ضدّ الشّرف، والدّين، والقيم الحميدة والفضائل الخيِّرة.

إنَّ المتهيّئين لأداء الأفعال بإرادة هم الذين يمتلكون زمام أمرهم، فيستطيعون اتخاذ القرار المناسب من وجهة نظرهم، التي قد لا تكون سليمة ومناسبة لأداء الفعل، أو الإقدام عليه؛ فيدفعون الثَّمن مضاعفًا؛ حتَّى يكتشفوا ما يجب ليتخذوا إليه سبيلا، ويكتشفوا ما لا يجب وينتهوا عنه إرادة دون تردّد، وإن تردّدوا تزداد التأزُّمات تأزُّمًا، ممّا يرتِّب على هذه التأزُّمات أفعالًا في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع تملؤها المفاجآت، التي في كثيرٍ من الأحيان تكون نتائجها مؤلمة.

ولأنَّ الإرادة لا تقف عند حدّ اتخاذ القرار؛ فهي تمتدّ لتنفيذه، وإلى الأسلوب المناسب لذلك، والطَّريقة التي تُتَّبع إجرائيًّا وسلوكيًّا حياله؛ ولذا فالإرادة دائمًا سابقة على الفعل وبها يُنفَّذ، أي: لو لم تسبق الفعل قد لا يُنفّذ أو يُنفّذ بأثر سالبٍ؛ ولهذا فالإرادة قوّة موجبة لا ينبغي لنا الإغفال عنها، وعن أهميّتها، وعمّا يترتّب على أوجه استخداماتها المتعدّدة سلمًا وحربًا وتطرُّفًا، ولا ينبغي أن تقوّض بأيّ علّة.

ولأنَّ التنفيذ فعلٌ؛ فقد يكون تنفيذه بإرادة، وقد يكون بالإجبار والإكراه، ولكلِّ ردّة فعلٍ موجبة وسالبة، ولكلِّ ثمنه، ولأنَّ ثمن الإكراه سالب؛ فيجب الانتهاء عنه حتَّى في الدّينِ المنزَّل من عند الله تعالى، حيث لا إكراه في الدين؛ ولهذا بالإرادة ينبغي أن يُقيِّم الأنا والآخر ما يفعلون وإلّا سيتعرَّضون إلى التقويم الذي لا يكون إلّا حيث ما يكون الاعوجاج.

والتقييم مراجعة دقيقة للحالة والمعطيات، التي قد تكون مناسبة لزمانٍ، وقد لا تكون ذاتها مناسبة لزمانٍ آخر، ومن يتّقِ الحقُّ يجد الحقَّ له مُخرِجًا، ومن يقبل أن يُقيّمَ ما وصل إليه يتمكَّن من بلوغ ما هو أعظم، ومن لا يقبل سيكون الزّمان كفيلًا بترويضه كما روَّض كثيرًا من الطّغاة.

وعليه: لا قيمة لممارسة الحقوق دون إرادة، ولا قيمة ولا أهميَّة لأداء الواجبات ما لم تكن عن إرادة، ولا قيمة ولا أهميَّة لحمْل المسئوليَّات ما لم تكن هي الأخرى عن إرادة، أي: لا قيمة، ولا اعتبار، ولا تقدير، ولا اعتراف لأيّ شيء بالإكراه، والإجبار، والإرغام بغير حقّ.

الإرادة تحدّي صِعاب:

الإرادة مع أنَّها قوّة يُمكِن أن تنجز ما لم يكن متوقّعًا، فإنَّها تفاديًا لما يؤلم تأخذ مساحة من التجنب، وهذا لا يعني أنَّها تستسلم له، بل إنَّها تبحث عن كيفيَّة التخلّص منه؛ حتى لا يترك أثرًا، وفيه تكمن العلل.

ولأنَّ الارتقاء الإرادي ممكن فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها؛ ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب؛ كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛

فالصّعاب إن لم تداهم بإرادة، لا بدَّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاءً، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل، فمن المستحيل أن يكون الإنسان عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما على الرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب إرادة) أمَّا الاستثناء: (الاستسلام إليها قهرًا).

ولأنَّ الممكن إرادة يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيَّأ الإنسان إليها قوّة تدبّر؛ حتى يقهرها إرادة، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه، ولكن أيّ عمل؟

أقول: العمل إرادة يمكن أن يكون موجبًا، مثل: البناء والإعمار، ويمكن أن يكون سالبًا، مثل: التطرّف، وارتكاب الجرائم، غير أنَّ البناء والإعمار تحدّي صعاب، أمَّا التطرّف وارتكاب الجرائم فاستسلام أمام الصّعاب على الرّغم من خطورتها.

ولهذا فامتلاك الإرادة في دائرة الممكن يُمكِّن من الارتقاء، الذي فيه المواجهة موجبة مع ما يمكن أن يكون من فعل سالب، فكما تُرسم الخطط لتنفيذ العمل تُرسم أيضًا لمقاومة المعيقين له، ومتى ما بلغ الإنسان التهيّؤ والاستعداد والتأهّب إرادة، بلغ القناعة المحفّزة والدافعة إلى

تنفيذ العمل، ومواجهة ما يعيقه من صعوبات؛ ولذلك فالذين يتهيَّأون ويستعدّون ويتأهّبون إلى ارتكاب أعمال التطرُّف بإرادة في معظم الأحيان يُقْدِمُون على تنفيذها دون تردّد، والذين يقاومون أعمال المتطرفين بإرادة هم الآخرون يقدمون على مقاومتهم ومقاتلتهم بكلّ قوّة، أمَّا أولئك الموظّفون الذين تُصدر لهم أوامر تنفيذ التطرُّف، أو أوامر مقاومته فلن يكونوا فاعلين، بل ستكون أيديهم على الزّناد مرتعشة، وهنا تكمن العلّة.

إذن: فمن تهيّأ واستعدَّ عن إرادة للعمل وأقدم عليه فليس بالأمر الهين أن يتهيَّأ لِما يُغيِّره عن الاستمرار فيه، إلّا إذا فكَّر وتذكَّر وقَبِلَ إرادة أنَّ المعلومة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا تُصحح إلّا بالمعلومة الحاملة للحُجَّة، ومن هنا؛ فكلّما توافرت الأفكار والحُجج تجاه القضيَّة الخارجيَّة مثار الانتباه والاهتمام، كانت استجابة التهيّؤ الإرادي للحدث أسرع، وكلّما تضاءلت الأفكار أو انعدمت، كانت عملية التهيّؤ الإرادي متباطئة لحين استجماع الأفكار عن الحدث الخارجي الذي يُودّ الوقوف عليه.

ولذا فالتهيّؤ للقول إراديًّا يؤدّي إلى الاستعداد لأنْ يقال بإرادة، وكذلك التهيّؤ للعمل يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب.

ومع أنَّ الممكن ارتقاءً لا استحالة فيه، ولكن إن لم يعقب التهيّؤ استعدادٌ؛ فلا إمكانيَّة؛ حيث لا إرادة؛ ولذلك فإنَّ غياب الإرادة يغيّب كلًّا من التهيّؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما، وتضعف بضعفهما.

ومع أنَّه لا إمكانية للارتقاء بلا إرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، حتى وإن اجتمعت في دائرة الممكن فإنَّها تظلُّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ الارتقاء قمّة.

فالتأهّب إرادة يؤجج في النَّفس حرارة الاندفاع تجاه الهدف دون خوف، مع إصرارٍ على الإنجاز، ومن يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع في دائرة الممكن ارتقاء أن يُنفِّذ ما يشاء، وكيفما يشاء حتى ولو كان تطرُّفًا.

ولأنّ لكلّ فعل ردّة فعل، إذن: فمن يتأهّب لأداء الفعل ارتقاءً لا بدَّ وأن يكون متأهِّبًا لما يترتّب عليه من ردّة فعل، وإلّا سيفاجأ بما هو مؤلم.

وحتى لا تحدث المفاجآت في كلّ مرّة فأخذ الحيطة والحذر ضرورة لمن شاء أن يتدبّر أمره بلا عِلل، ولكن هذه ليست الغاية، بل الغاية أن تسود الحياة بين النَّاس بلا مغالبة، ولا هيمنة، ولا حرمان، ولا تمدّد على حساب الآخرين، ولا اتكالية على الغير، ومن هنا، تصبح الغاية هي تجاوز الحلّ المتجاوز للإصلاح وإن كان إصلاحًا مساندًا.

فالصّعاب هي تلك الأعمال التي تستوجب مزيدًا من الجهد دون أن تكون مستحيلة التحقّق، فهي التي تواجه من يعمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها إرادة مع مزيد من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف، أو تحقيق الأغراض، أو بلوغ الغايات ونيل المأمول، أو الفوز به؛ ولهذا ينبغي أن تواجه أعمال التطرّف تحدّيًا، أي: لا يمكن أن يتم القضاء على

التطرُّف ما لم نقرَّ بأنَّ تحديّه صعبٌ، فإن أقررنا وجب العمل تحدٍّ.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصّعاب إرادةٌ فعليك بالآتي:

ـ ألّا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير، الذي تربطك به علاقة وأهميَّة على المتوقَّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقَّع حتى وإن كان صعبًا.

ـ تأكّد أنَّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيًا.

ـ اصّمد؛ فالصّعب لا يصمد، أي: عليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبًا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض؛ ولهذا عليك بقبول التحدّي؛ حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

ـ الصّعب لا يزيد عن كونه حيويَّة؛ فينبغي أن يواجه بها، ولا يواجه بغيرها، أي: لا يمكنك أن تهزم خصمًا وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية، وعندما تمتلك ذات السّلاح فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك صلحًا وتصالحًا وعفوًا: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}[39].

ـ وإذا كانت مواجهة الصّعب ليست مستحيلة وممكنة، فَلِمَ لا تكون إلّا من البعض؟

أقول:

[39] الأحزاب 25.

لأنَ البعض دائمًا أفضل من البعض، أي: دائمًا الواعون والصّابرون والمؤمنون بأنّ الحقّ يُحقّ، يعملون على إحقاقه تحدّيًا، وقهرًا للباطل.

ـ الصّعب على علاقة بالباطل؛ من حيث إنَّه لا يصمد إذا ما حدثت معه المواجهة تحدّيًا ورغبة وإرادة؛ ولهذا الصّعب يقهر، والباطل يبطل، ولكن لا يكون ذلك إلّا على أيدي الصّامدين.

ـ اقبل بدفع الثّمن جهدًا ووقتًا وإمكانات تنل أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

ـ تحدَّ الخوف الذي يقنعك كسلًا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد تجد نفسك منتجًا، وفي المقابل إن استسلمت له فستجد نفسك متسوّلًا مع المتسولين على الأرصفة، وبين الأزقة.

ـ أهّب نفسك للعمل إرادة تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي إرادة تجد نفسك متحدّيًا، وأهّب نفسك لمواجهة الصّعاب إرادة تجد الصّعاب مستسلمة.

ولذلك فالغاية من بعد الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ رفعة الشّأن، وعيش النّعيم، وهذه مع أنّها غايات، ولكنّها ستظل في دائرة الممكن إرادة بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيَّأون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهبون لتحدي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون؛ حتى يبلغوا الغايات غاية بعد أمل لا تطرّف من بعده.

امتلاكُ الإرادةِ يخيف:

ولأنَّ امتلاك الإرادة امتلاك قوّة؛ فالقوَّة دائمًا مخيفة لمن لا يمتلكها؛ ولهذا فمع أنَّ اتخاد قرار التحكّم في زمام الإرادة ليس بالأمر الهيّن فإنَّ من يتخذه يستطيع أن يميّز ويختار عن وعيٍ ما يجب أن يقدم عليه، وما يجب أن يحجم عنه وينتهي، وفي المقابل من يستطيع أن يتخذ قرار التحكّم في زمام الإرادة، ولا يفرق بين ما يجب وما لا يجب، قد يقع في فخاخ الجريمة والتطرُّف، وهنا تكمن العلَّة.

وعليه:

فمن يستطيع أن يجعل إرادته بين يديه تصرُّفًا يصبح مخيفًا لنفسه ولغيره، فهو مخيفٌ لنفسه: من حيث إنَّ امتلاك إرادته الحرّة قد يجعلها مغترّة، وأمَّا لغيره: من حيث إنَّه إذا اتخذ قرارًا أقبل على تنفيذه ولو كانت مواجهة مع رؤوس القمم السُّلطانيَّة، وهذه لا شكّ ستضعه في قوائم المتطرّفين.

ومع أنَّ للإرادة علاقة بالطبيعة، التي خُلق الإنسان عليها، فإنّها تظل في حاجة للتّدعيم بما يمكّن من امتلاك القوَّة، التي لا تجعل الإنسان يضعف ويحيد بالإرادة الضعيفة عمّا لا يجب الحياد عنه كما حصل مع أبينا آدم عليه السّلام عندما أغواه الشيطان فعصى ربّه عن إرادة وليس عن إكراه شيطاني؛ ولهذا فإنّ الإنسان الذي خُلق مسيّرا في أحسن تقويم، اختار الانحدار إرادة من قمّة الخلق (في أحسن تقويم) إلى ما قلل من شأنه بأسباب الغفلة، وضعف الإرادة حتى أصبح أقل شأنًا عمّا خُلق عليه، وعندما لامس القاع سُفليَّة أخلاقيَّة أخذت الصّحوة والحيرة تملأن نفسه ندمًا؛ فاستغفر لذنبه عن إرادة؛ فتاب الله عليه.

فآدم الذي خُلق على الفطرة، خُلق معتدلًا في أحسن تقويم، ولكن عندما حاد آدم عن الفطرة إرادة، وجد نفسه منحدرًا بأسباب مخالفته قواعد البقاء الدّائم ارتقاءً، الذي من بعده أصبح الهبوط أمرًا واقعًا حيث لا مكان للتخيير؛ فالتخيير فرصة تمنح من أجل حُسن الاختيار عن إرادة، ولكن من يعمل على إضاعة الفرص ارتقاءً، فالفرص ارتقاء قد لا تتكرر، وفي المقابل فرص الانحدار تتعدّد وتتنوّع وتتضاعف بكتيريًّا. ومن هنا؛ فالإنسان الذي خُلق على التسيير والتخيير، كان مسيّرًا وفقًا للطبيعة الخَلقيّة، وفي المقابل كان للتخيير فسحة الإرادة، التي مكّنت آدم من الأكل من تلك الشّجرة المنهي الأكل منها.

وعليه: فالإرادة المطلقة بيد الخالق يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، وهو على كلّ شيء قدير، أمّا الإرادة على المستوى البشري فهي لا تخرج عن دائرة الممكن؛ ولهذا كان الوجود عن قوّة وإرادة فعّالة، ممّا جعل مشيئة الوجود بيد الموجد بالقوَّة، والقوَّة الفعّالة يمكن أن تكون مطلقة، ويمكن أن تكون نسبية ممكنة؛ فالخالق يخلق بالقوَّة المطلقة، والصّانع يصنع بالقوَّة النسبيّة، ومن هنا؛ فالإنسان يمتلك القوَّة التي تستوجب حُسن تصرّف عن إرادةٍ، فإن كان التصرّف عن إرادة حرّة، كان الإنسان مسؤولا عن تصرفاته سلبًا وإيجابًا، ومن ثمّ؛ فالتسيير مطلقًا بالقوَّة، والتخيير نسبيًّا بالإرادة حيث لا إكراه، ووفقًا للمقدرة في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

وحتّى الدّين مصدر الفضائل والقيم لا إكراه فيه، فكلّ شيء بين النَّاس عن إرادة، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ، وترك النَّاس أحرارًا يختارون

ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فيجب الإصلاح، الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم (جهلًا أو تعلمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ إرادة وارتقاءً.

ولأنَّ الأخلاق ارتقاءً هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها إرادة لا شكّ أنَّه يجعل الإنسان على المحبّة بدلًا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[40]. أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنّ مشيئة الخالق هي الفاعلة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}[41]؛ لذلك كان محمَّدُ داعيًا إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه، وهذه عين الأخلاق ارتقاء؛ فالأخلاق تُعدّ قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السُّلوك إرادة يصبح سلوكها قمّة، ومن أراد أن يكون قمّة فعليه بالأخلاق الحميدة ارتقاء وإرادة، ومن لا يمتلك خلقًا لا نقول له: تطرَّف، بل وجب البحث في شؤونه فكريًّا.

ولو عدنا لزمن الرّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام لوجدنا أنَّه لا وجود للأنظمة الحاكمة، التي أصبحت تعمل على تقييد الإرادة ما استطاعت، فالأمر في تلك الأزمنة كان بين السّماء والأرض؛ إنباء ورسالات (أنبياء ورُسُل)، أمّا ما بعد الرّسالات والرّسُل؛ فأصبح الأمر بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة والرَّغبة والمقدرة والحاجة المتطوّرة: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[42]، والشورى هنا لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ، فمن

[40] يونس 99.

[41] [41] يونس 99.

[42] الشورى 38.

شاء الحلّ؛ فعليه بها ديمقراطية بلا مكاره: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[43].

وعليه: هناك علاقة واضحة بين الإرادة والاختيار، فالاختيار لا يكون إلّا وفق الرَّغبة والمعرفة وبعد تبيّن، أمّا الإرادة فلا تكون إلّا بامتلاك الحريَّة حيث لا قيود ولا مظالم.

ولهذا فالاختيار إن أُحسن تدبّرًا وعن إرادة ومقدرة أَحدث النُّقلة إلى ما هو أكثر ارتقاء، وإن لم يُحسن الاختيار؛ فسيؤدّي بأصحابه إلى السُّفليَّة والانحدار والدونيَّة، ممّا يجعل السُّلوك الانحرافي في حاجة للتقويم؛ حتى لا يسود التطرُّف، وتسود المفاسد والمظالم (هيمنة وحرمانًا).

ولذا؛ فإن كانت الإرادة حرّة، فتحت كلّ السُّبل أمام الإنسان في دائرة الممكن سلبًا أو إيجابًا، وفي المقابل إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة فلا يجد العمل سبيلًا للإنجاز، ولا يجد الإنسان سبيلًا للتقدّم تجاه المأمول.

ولأنَّ الإرادة الإنسانيَّة لا تكون إلّا عن دراية مع حُسن تدبّر ومقدرة على التمييز والاختيار؛ فهي المحرّك والمحفّز الأساسي لبناء الإنسان، والنّظر إليه قيمة رفيعة؛ ومن ثمّ فينبغي أن يمكّن الإنسان ممّا يمكّنه من التقدّم والارتقاء وإحداث النُّقلة إلى ما هو مأمول علمًا ومعرفة وتقنية، إلى جانب ترسيخ قيم الاحترام والتقدير والاعتبار والتسامح والتعاون.

[43] يونس 99.

ولأنَّ الإرادة مركزها ذهن العاقل، فهي ميسّرة السّبيل أمامه لأنْ يعمل بفاعليّة، ومن ثمّ ليس له إلّا أن يرتقي إن أحسن اختياره وتدبّره، ولكن إن لم يحسن اختياره وتدبّره؛ فلا سبيل له إلّا الانحدار، الذي من بعده يكون النّدم والألم، وهما: إن أَلما بالإنسان جعلاه في حاجة لمنقذ.

فالإرادة إن كبحت بأيّ علّة، ستعود إلى الذّهن لتقييم المواقف، ومن ثمّ تقويم الحالة وتوجيه السُّلوك البشري إلى اتخاذ ردّات فعل تكون حساباتها في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع، فعلى سبيل المثال: الإنسان عندما يعطش سيتوجّه إلى مصادر المياه؛ ليروي ظمأه رغبة، وإرادة، وضرورة مُلِحَّة، وهذا هو الأمر الطبيعي، الذي يتوافق مع الفطرة، ولكن إن مُنع من ذلك؛ فليس له إلّا قبول دفع الثّمن حتى النّهاية استجابة أو اقتتالا، وهكذا إن جاع فليس له إلّا التوجّه إلى مصادر إشباع الحاجة (حياة أو موتًا)؛ ولذلك فعندما تتطابق الفطرة مع الإرادة تصبح الغرائز أكثر ضغطًا على أصحابها، ولا إمكانية للتخلّص منها إلّا إشباعًا، أو القبول بدفع الثّمن تطرُّفًا.

ومن ثمّ فالتوجّه للبحث عن مصادر بقاء الحياة تقليدًا يتوافق مع الفطرة، أمّا المقاتلة من أجل الحياة تقليدا فلا يتوافق معها؛ ولهذا فالكائن العاقل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع يتذكّر ويتدبّر ويفكّر بما يتطابق مع فطرته دون أن يقصر ذلك عليها؛ ممّا يدعوه أحيانا إلى ما هو ممكن تقليدا، أمّا بقيّة الكائنات فلا تُدبِّر أمرها إلّا تقليدًا متماثلًا مع الفطرة؛ ولذلك فهي كمن يراوح في مكانه بلا أمل، حيث لا مستقبل تدركه سوى الفطرة التي خُلقت عليها بلا تخيير.

وعليه: الإرادةُ امتلاك زمام الأمر بلا سُلطان خارجي، بها يتمكّن الإنسان من الاختيار الحرّ، ومن دونها يُقهر، وهي الوعي بما يجب وبما لا يجب مع وافر الحريَّة، حيث لا إرغام من أحدٍ؛ ومن هنا، فهي منبع الأمل للذين يأملون بلوغ غاياتهم بلا تدخّلات على حساب القيم والكرامة الإنسانيَّة.

والإرادة عندما تكون حرّيَّة تمارس تمكّن الأفراد والجماعات ممّا يشاؤون دون أن تكون مشيئاتهم على حساب حاجات الآخرين ومشبعاتها؛ ولهذا إن لم تُفسح المجالات أمام الإنسان اختيارًا تظل الإرادة مجرّد مفهوم ليس إلّا، فأهميَّة الإرادة هي أن تجسّد في الأفعال؛ حتى يتمكّن النَّاس من بلوغ ما يأملون عملًا وسلوكًا، ومن ثمّ؛ فالتمكّن من الإرادة إرادي، أمَّا التمكين منها فمسئوليَّة من يتولّى مسئوليَّة سواء أكانت أسرية أم اجتماعيَّة أم وطنيَّة أم إنسانيَّة.

ولأنَّ الإرادة وعي بما يجب وبما لا يجب؛ فهي قرار يصدر للإقدام الاختياري دون إكراه على ما يجب أو ما لا يجب، مع تحمّل ما يترتّب عليه من أعباء ومسؤوليَّات، والإرادة وثيقة الصّلة بالوعي بفعل يحقّقها ويخرجها من المعنوي إلى المحسوس، الذي يُظهر العلاقة القويّة عن ثقة مع الموضوع الذي به ظهرت إلى حيّز الوجود المشاهد والملاحظ.

ولأنَّ الإرادة تمكينًا هي منبع أمل؛ فهي نتاج قرار قابل للتنفيذ، وهي بعد التنفيذ في دائرة المتوقّع تُمكِّن الإنسان من تحمُّل أعباء المسئوليَّة دون تردّد، أمَّا الإقدام على الفعل

دون توافر الإرادة فقد لا يحقّق للفعل إنجازًا بأسباب الخوف والتردّد، وإن تمّ إنجازه إكراهًا فلن يكون مثالًا.

والإرادة المسئولة الواعية هي التي لا يتخلّى فيها الإنسان عن تحمُّل ما يترتّب عليها من أعباء جسام حتى وإن كان تطرُّفًا، ولهذا؛ فلكلِّ شيء قاعدة إصلاحيّة واستثناء إفسادي، والاستثناءات هي التي يقدم على أفعالها المارقون أو المنحرفون والمتطرّفون، وبخاصّة أولئك الذين يتربّعون على قمّة السّلطان، ولا يحيدون عنه، وكأنّ الأوطان لم تنجب غيرهم من بني الوطن أو وكأنّ الشّعب (كلّ الشّعب) لا يوجد فيه أحد مؤهّل لممارسة الحريَّة، ومن هنا تفتح مداخل الأفعال المتطرّفة ومخارجها.

ولذلك في مقابل هذه القواعد المنظّمة لممارسة الحريَّة تظهر الاستثناءات من قِبل الأنا (الشّخصانيَّة)، ممّا يجعل مَنْ وضع نفسه على قمّة سلّم السّلطان مهيمنا على كلّ أمر سياسي واقتصادي واجتماعي في خانة الاستثناءات مطاردًا، حتى وإن نصَّب نفسه شرطيًّا مدَّعيًا سلامة الوطن، والأمن العام، وتنفيذ القوانين بحزم، أو حتى وإن نصَّب نفسه واعظًا ومرشدًا بما أنّه في دائرة الاستثناءات لن يكون إلّا مطاردًا حتى النّهاية.

ولهذا فكلّما اشتدّت المطاردة واشتدّت التأزّمات بين قاعدة الاعتبار وقمّة سلّم السّلطان، وهُدّد الآخرون بالموت من قِبل من هم في دائرة الاستثناءات، أصبح الموت عندهم مطلبًا مع توافر الرَّغبة؛ ولهذا يفقد من هو على قمّة سلم السّلطان مكانته، ويفقد الشّرطي سلاحه، والواعظ حُجَّته التي بها يلاحق الآخرين، ويكون كلّ منهم ضحيّة مستبدلًا بلا ثمن.

وعليه: فإنَّ الموت الذي هو سلب الحياة يتحوّل إلى قيمة مقدّرة إيجابًا بها يتمّ نيل الاعتراف والتقدير والاعتبار، عندما يكون عن إرادة عملا يرجو الإصلاح أملا وارتقاء.

وبعض من النَّاس يتصوّر أنَّ الإرادة هي حُسن الاختيار، لكن لو كان الأمر كذلك، لكان المسميان لمعنى واحد، والدّليل على ذلك أنّ الإرادة عندما تكون أمام أمرين فإنَّها تختار أحدهما أو تستبدله دون الآخر، وكذلك فإنَّ الإرادة عندما تتخذ قرارها يكون هذا القرار في اللحظة نفسها تجاه هذا الأمر، أمّا الاختيار فيكون من أمور متعدِّدة يقع الاختيار على واحد منها يتمّ دفعه للإرادة التي تتّخذ قرارها فيه.

المشاركة الإراديَّة:

الفعل هو ما يفعل، سواء أكان عن إرادة أم من دونها المهم أنَّه يفعل، والفعل دائمًا يجسّد حيويَّة الإرادة عندما يكون الفاعل حرًّا مخيّرًا، وفي المقابل لا يعكس الإرادة إذا كان الفاعل مكرهًا على ارتكاب الفعل.

والفعل لا يمكن أن يكون ذا أهميَّة ومقصد ما لم يكن قابلًا للتنفيذ، وفقًا لخطة ترسم، وبرؤية قابلة للتقييم والتقويم، والفعل هنا عمل يجرى أو يقام به من قبل الذين تهيئوا له واستعدوا عن إرادة؛ ليكون الاستعداد وإعداد العدّة من بعدها سابقان على التأهُّب المؤهل للإقدام على الفعل.

ومن ثمَّ يصبح الفعل أمرًا يتحقّق ويترك أثرًا (موجبًا أو سالبًا)، ولا يكون إلَّا عن أخذ قرار وتدبُّر، سواء في حالة إدراك الفاعل لأثر فعله وما يترتّب عليه، أم بعدم إدراكه لذلك.

ولهذا تتجسّد الأفعال عملًا وسلوكًا على أيدي الفاعلين لها، مما يجعل صفات الفعل ملتصقة بهم، كالتصاق السّرقة بالسَّارق، والتطرُّف بالمتطرِّف، والكذب بالكاذب، والجريمة بالمجرم، والاحترام بالمحترم، والصّدق بالصَّادق، والأمانة بالأمين، وهكذا.

ومع أنَّ للكلمة معنى فإنَّها لا تعني شيئًا إذا لم تصبح فعلًا مجسّدًا عملًا وسلوكًا، ومن هنا تتجسّد الكلمة المتطرِّفة بالفعل المؤلم عملًا متطرِّفًا ما يجعل التطرُّف صفة الفاعلين له.

ومع أنَّ التطرّف يُفعل، ويترك أثرًا مؤلمـاً، ويجرّمه القانون، ويعاقب مرتكبيه، فلا إمكانيّة للقضاء على التطرّف قانونًا أو عقابًا؛ ذلك لأنَّ التطرّف فكرًا، والفكر لا يصحّح إلَّا بالفِكْر من خلال معرفة:

ـ العلّة التي أثارت العقل واستفزّت ملكاته.

ـ موقظات الإرادة التي لفتت الإنسان لعقله وحرّرته من الخوف، ومن قيود الفضائل، والقيم، والقوانين.

ـ مثيرات التهيؤ بعد أن أصبحت حيويَّةً، ولفتت الإنسان إلى نفسه وعلاقته بالغير من أجل أن يتخذ موقفًا به تواجه المستفزّات.

ـ دوافع الاستعداد التي قدّرت الفعل وخطورته، ثم مكّنت من تقدير الفعل وتحديد المستوجب لتنفيذه.

ـ كيفيَّة إعداد العدّة واختيار أنسبها لتنفيذ الفعل.

ـ أساليب التأهُّب التي مكّنت من وضع الأهداف موضع الصيَّاد من الطريدة.

ـ المعطيات التي ألغت التردّد من نفس المتطرِّف وجعلت الفعل منفَّذًا وفقًا للخطط الرَّئيسة أو البديلة.

وعليه: فالأقدام على العمل بمشاركة الآخرين عندما يُنظر إليه مجرّدًا عن الذَّات والموضوع، ما هو إلا قضيّة فكريّة بداية ليس للسُّلوك أثر فيها، وإنَّما تتولّد القناعات العقليَّة من الفكرة، وهذه القناعات تنبع غالبًا من المتضادات الفكريَّة التي لا تجعل للآخر اعتبارًا في بعض الأحيان، ويضاف إلى ذلك مؤثرات خارجيَّة من المجتمع والبيئة تنمو مع نمو الإنسان حتى تصبح جزءًا من شخصيَّته التي من الصعوبة أن تنفك عنها، الأمر الذي يجعل الأنا على خلاف مع الآخر في أشياء منطقيَّة حتى تصبح له سلوكًا، سواء أكانت ذات أثرٍ موجبٍ أم سالبٍ.

وعلى هذا فالسُّلوك يترتّب على الأفكار التي تثيره، وتحرّكه الدَّوافع وتحدد اتجاهه، فالفكرة المجرَّدة هي الأساس بداية في تحريك الدَّوافع، ومن ثَمَّ إثارة السُّلوك وتحديد اتجاه الأفراد، وكيف يتصرَّفون.

إنَّ الدَّوافع عادة تنشأ عن أسباب داخليَّة ذاتيَّة وخارجيَّة، تؤدّي إلى سلوك الفرد وتصرّفه وفق ما يتصرف به معظم الأفراد في المجتمع الذي يعيش فيه، وبالكيفيَّة التي يتصرَّفون بها؛ ومعظم الأفراد لديهم إحساس واضح بما يحدث ويؤدّي إلى دفعهم للقيام بفعل ما انطلاقًا من المركز، سواءً أكان المركز يتمثل في الأنا، أم إنّ آخرين يرونه في الآخر حسب ما اكتسبوا من معارف وخبرات؛ ولذا

فللسُّلوك مثيرات تستحضر التهيّؤ والاستعداد والإرادة؛ وتجعل الإنسان متأهِّبًا للإقدام على أداء الفعل مهما كانت النتائج المترتّبة عليه كلّ وفق اتجاهه الذي أُعِدَّ عليه أو تشرَّب معلوماته منه، سواء أكانت تلك المعلومات خاطئة أم إنَّها كانت صائبة.

وهنا فمثيرات السُّلوك هي من الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الحركة قبل وقوع الفعل، وهذه المثيرات هي التي تستفزّ الإنسان بالتهيّؤ وتوجهه إرادة لاستمداد القوَّة واستمداد وسائل إظهارها بغض النظر عن كونها شرعيَّة أم غير شرعيَّة، فكلٌّ حسب وجهته التي ارتضاها بإرادة.

فالإنسان المحترم تثيره الأفكار التي تولِّد عنده شعورًا اتجاه الآخرين كما تولِّد ردود أفعال اتجاههم، مما يجعله بعد تهيّؤ واستعداد وتأهب قادرًا على أن يقدِمَ على فعل مؤيدٍ أو فعل معارضٍ لذلك الفكر وأصحابه.

إنَّ استجابة الإنسان لمثير ما في سلوكه يتوقّف على مكتسباته من الأفكار والعادات والتجارب، ومن ثَمَّ طرق التصرف التي تعلّمها من قبل؛ استنادًا إلى معرفته السَّابقة، مما يجعل تصرُّف بعض الأفراد غير مؤسّس على أهداف واضحة محدّدة، والبعض الآخر يتّصف بالتحديد الدقيق في موقف ما وفق أهداف واضحة محدّدة، وبعضٍ منهم يكون سلوكهم لأجل الدفاع عن الأنا بصرف النظر عن الحقِّ والباطل أو الصواب والخطأ، وفي هذه الحالة تكون نظرة الفاعل لهذا السُّلوك نابعة من الأنا التي يعدّها تمثّل المركز.

أمَّا اتجاه السُّلوك فيتمثل في العادات التي اكتسبها الفرد، والمهارات التي يتمتَّع بها، والقدرات التي يمتلكها،

وكثيرًا ما نجد الدَّوافع هي التي تحدّد اتجاه السُّلوك، من نجاح وفشل ومن ثأرٍ وانتقام، ومنافسة، وصراع، وصدام، واقتتال، وإقصاء، وتغييب، وتسفيه، وتقليل شأن؛ فكلّ السالب منها إن حدث ترتّب التطرُّف عليه بأسباب موضوعيَّة.

إذن فالدَّوافع التي تعمل على توجيه السُّلوك متباينة لدى الأفراد، منها: الدَّوافع النَّفسيَّة، والغريزيَّة، والفكريَّة، وكلّها قادرة على تحديد سلوك الفرد وتوجيهه، مما جعل الدَّوافع متأثِّرة بالحاجات ومشبعاتها، وهذه الدَّوافع التي تؤثّر في السُّلوك وتؤطّره وتحدد اتجاهه، تتطوَّر وتتشعَّب من خلال الخبرات المتراكمة من التجارب والثَّقافة التي مصدرها الفكرة.

إنَّ الدَّوافع التي توجّه بالسُّلوك تتطوَّر وتتشعب سلبًا وإيجابًا بتبني أفكار جديدة والتخلّي عن أفكار أخرى أو محاولة الجمع بينها أحيانا، وهذا أمر يعمل على التأثير في الأفراد والتجمعات خلال مسيرة الحياة، ومع ذلك فإنّ السُّلوك لا يُمكِّن من الوقوف على الأصول التي نبعت منها دوافعه على الرغم من أنه ناتج عنها؛ وذلك لما يطرأ عليها من أفكار تُقرأ من وجوه متعددة وتخرج بمفاهيم متباينة للفكرة الواحدة؛ لذا نجد بعض الأفراد يتَّصفون برغباتهم القويّة في الانتماء الاجتماعي الذي قد ينشأ بسبب تأثير عوامل معينة في مجتمع معين، ومع ذلك نجد أفرادًا آخرين يرفضون هذا الانتماء في المجتمع نفسه، فيترتّب عليه اختلاف في السُّلوك، وهنا تنشأ عللٌ تجعل أفراد البيئة الواحدة أو المجتمع الواحد لا يمكن أن يستقوا دوافعهم من مصدر واحد وإن اشتركوا في تجمع بشري وجغرافي؛ فالتجمع الجغرافي لا يُلغي تعدّد المصادر الفكريَّة متنوّعة

الاتجاهات، مما يجعل الأحزاب السِياسيَة والاتجاهات الفكريَة في المجتمع الواحد تتعدّد.

وكثيرًا ما تتداخل أنواعُ من الدَوافع التي تُحفِز السُلوك وتتأثّر به، فقد تتمثّل الرَغبة لدى بعض الأفراد في اكتساب خبرات جديدة نابعة من دوافع الاتزان والحرص، كما يكون الانطواء والخوف دافعا للاقتناع بالواقع لدى بعضٍ آخر، وعلى هذه الدَوافع يتحدّد اتجاه السُلوك؛ ونتيجة لذلك فإنَ بعض النَاس يتصرّفون وكأنّهم يبحثون عن الجديد بصورة مستمرة، بينما يبدو بعضهم وكأنّه قانع بالأشياء المألوفة لديه، وقد لا يرتضي التغيير وإن كان نافعًا.

ومع ذلك فإنَ الفكر هو الأساس المؤثّر في السُلوك مرونة أو تطرُفًا وفقًا للوجهة التي يتوجَه الإنسان إليها؛ لذا لا يمكن لأحد أن يرسم صورة للتطرُف أو المتطرّف قبل الوقوف على تلك الأفكار التي أنتجت الدَوافع المؤثّرة في السُلوك وحدّدت اتجاهه في أقوال وأفعال أدّت إلى التطلّع من أجل تحقيق نتائج يمليها الفكر من بينها رفض التمركز على شخصٍ واحدٍ، أو على رؤية واحدة لفردٍ أو جماعة معيّنة، بل يجب أن يتمّ نقل المركز وتبادله من الأنا إلى الآخر أو العكس كلّ بإرادة مع وافر الشفافيَة.

ومن يفترض نفسه نقطة التمركز في الاعتدال والتوازن ظانًّا أنَه يعبّر عن الفضيلة والقيم السامية والأخلاق الرَفيعة، فقد حدّد مواقع الآخرين ومواقفهم تبعًا لذلك، وبالتَالي فهو يعطي مبررا للآخر أن يفترض الفرضيَة نفسها، ومن هنا تنشأ القضيّة المعياريّة للتضاد الفكري؛ فالذي يُقرُّ سحق الآخر، وإلغاءه لمخالفة الرَاي فقد ركب من التطرف مركبًا.

إنَّ الأفكار المتضادة عبر التَّاريخ التي نمت وقيّمت الآخر بميزان الأنا أنتجت مسميات للتضاد الفكري من (مركزٍ، ويمين، ويسار، ووسط، ويمين الوسط، ويسار الوسط، وكذلك اليسار المتطرّف، واليمين المتطرِّف)، ولكلٍّ وجهة هو موليها.

ومن هنا إنْ نصّبت الأنا نفسها ممثلًا لقيم الفضيلة ومركزًا لها، فقد حدّدت موقع الآخر تبعًا لذلك وفقًا للمقياس الذي ارتضته لنفسها دون استشارة الآخر، وغالبا ما يكون هذا المقياس الشخصاني متعارضا مع الآخر وقيمه وفضائله بنسب متسلسلة تصل أحيانا حدّ التصادم.

إنَّ مثل هذه النَّظرة التي تدَّعي أنَّها قادرة على وضع الموازين، وتدَّعي أنَّها القاسطة ولا غيرها، ومركزًا يجب على الآخرين الدوران من حوله تُعدُّ فاقدة لمبرراتها؛ بما أنَّها قررت أن تعارض أفكار الغير لمجرد أنّهم الغير، وهي بهذه النظرة قد وضعت نفسها في المواجهة أمام فوهة المتطرّفين الذين إن قرروا أصبح الموت مطلبًا يتسارعون في نيله دون خوف وبلا تردُّد، ويصبح المتطرِّفون قادرين على اتباع أساليب التطرُّف المتنوّعة التي منها العنف الدموي.

الإقدام على الفعل الإرادي:

عندما تتساوى كفَّتا الحياة والموت عند الإنسان فلا استغراب أن يصبح متطرِّفًا، أي: عندما يتلقّى الإنسان تعاليم وأفكار منحرفة ومتطرّفة وكأنَّها حقائق دامغة للباطل يرسّخها في نفسه، ومن ثمّ يتحفّز إلى العمل الممكّن من الفوز بما يظنُّه الجزاء الأوفى.

ومن هنا فإنْ توافر العزم والإصرار يصاحبه على الإقدام على تنفيذ الفعل مع ترقُّب شديد ورصد للحركة والسّكون

يصبح وضع الإصبع على الزِّناد استعدادًا للرمي في زمن الانقضاض.

ولذا فالتأهّب يؤجج في النَّفس حرارة الانقضاض والاندفاع تجاه الهدف دون خوف ولا تردّد، مع شجاعةٍ وبلاءٍ وإصرار على الإنجاز في الوقت المحدد للتنفيذ؛ خوفًا من التأخير الذي فيه تعشش المفاجآت؛ ولذلك دائمًا لا للاستعجال ونعم للإسراع دون التسرُّع.

ومن ثمَّ في التأهُّب اشتياق الفاعل للحظة الانقضاض وتنفيذ الفعل؛ ولهذا فالفاعل عندما يكون متأهِّبًا تكون مشاعره وأحاسيسه مصهورة في بوتقة الفكر لفعلٍ قابلٍ لأن يُفعل، والشّكّ من ملكاته منتزع انتزاعًا.

فذلك الصحفي العراقي الذي رمى الرّئيس الأمريكي جورج بوش بنعليه في بغداد لو لم يكن متأهِّبًا للرمي ما رماه أمام أعين النَّاس على شاشات التلفاز وأمام حرَّاسه وحرَّاس حرَّاسه والمدجَّجين والصحفيين الذين هم في محيطه يتساءلون مع الرّئيس الأمريكي عمَّا حدث في العراق وعمَّا يحدث من رمي الرّامي في المؤتمر الصحفي الموقَّر.

ولذا من يتأهّب للشيء بعد تهيّؤ وإرادة واستعداد يستطيع أن يُنفِّذ ما يشاء كيفما يشاء بحذاء أم بعكازٍ أو حتى بمسبحةٍ أو ساعة يد، دون أن ينتظر رأيًا أو توجيها من أحدٍ.

ولأنَّ لكلّ فعل ردّة فعل فمن دون شكّ سيكون للتأهّب تأهّب إن تمّت المعرفة، ولكن إن لم تتوافر المعرفة فستكون المفاجآت سيدات الميدان والحاسمات للأمر.

فالأفراد من دون شكّ على مستوى المسئوليَّة يستعدُّون في دائرة الممكن المتوقَّع حيال إنجاح مهمة من مهماتهم المكلَّفين بها أو المناطة بهم، ولكنَّهم في كثير من الأحيان لا يستعدُّون لغير المتوقَّع مما يجعل المفاجآت تتكرر أمامهم على الرغم من الاستعداد والعدّة والعتاد.

إذن فالاستعداد لا يكفي، ولا يمكن أن يكون ضامنًا ومحققًا للنجاحات، بل التأهّب من بعده هو الذي يُمكِّن من ذلك، ومن يغفل عن التأهّب أهميَّة وضرورة لا يستغرب إن حدثت أو طرأت المفاجآت، وبالتالي فلا داعي أن يقدم على أفعال قبل أن يكون قد تأهَّب لها[44].

[44] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، ص 125 – 134.

سيادة الهويَّة

السِّيادة والهويَّة قيمتان لا تُعظَّم الأوطان إلَّا بهما، وهما العنوان الرَّئيس لوحدة الوطن وسيادته ونهضته؛ فالهويَّة عنوان الفرد، وعنوان الجماعة، والمجتمع والشَّعب والأمَّة، وهي المكوِّن القيمي للأنا، وللذَّات، وللضَّمير، وهي المستمدَّة من التَّاريخ المحتوي للعرف والدِّين والثَّقافة.

ومع أنَّ لكلِّ فرد خصوصيَّة تميِّزهُ عن غيرهِ من الخصوصيَّاتِ فإنَّ الهويَّة لا تكون عنوانًا مترسّخًا في النَّفس إلَّا عن وعي ودراية ورغبة؛ فهي قد تكون عن فكر ودين وثقافة وعلم، وقد تكون بأسباب الرَّوابط الاجتماعيَّة أو المصلحة المشتركة.

والهويَّة قد تكون على مستوى الفرد الذي يحمل فكرًا أو ثقافةً، وبها يتميَّز كما غيره يتميّز فكرًا وثقافةً، وقد تكون الهويَّة على مستوى المجتمع أصلًا وانتماءً، وقد تكون الهويَّة هويَّات، مما يجعل الشَّعب واحدًا والهويَّات متعدِّدة كما هو حال الشَّعب الأمريكي الذي ينصهر في بوتقة الهويَّة الأمريكيَّة ولكلِّ إطاره الاحتياطي من المرجعيَّات التي في حالة الضَّرورة يتمكّن بعض المهاجرين من العودة إليها، أو العودة إلى شيءٍ منها وهو ما زال في مهجره (الوطن البديل وهويَّة الانصهار الجديدة)؛ وذلك بغاية استمداد شيءٍ من الدِّفء المفقود، وهذا وإن كان على علاقة مباشرة بالعاطفة فإنَّ أثر الهويَّة الجديدة سيظل بحسن منافعه وحُسن رعايته مفخرة متوازية بين هويَّتين في غربتين:

الأولى: الغربة عن دفءِ الوطن المهاجر منه.

الثَّانية: غربة المهاجر عن الثَّقافة في الوطن المهاجر إليه، وهذه لا تكون واضحة إلَّا في الجيل الأوَّل من المهاجرين، أمَّا الجيل الثَّاني من المهاجرين فسيكون الأثر الأقوى للهويَّة الجديدة وثقافتها حتى وإن كان الدِّين مختلفًا، مما يجعل هويَّة الوطن مهما عظمت لا تكون على حساب عظمة الدّين.

ولأنَّ للُّغات هويَّات، وللثَّقافات هويَّات، وللأديان هويَّات، وللشّعوب هويَّات، وللمجتمعات هويَّات؛ فإنَّه لا استغراب إنْ تعدَّدت الهويَّات واتحدت في وطنٍ واحدٍ، بل الاستغراب أن تكون كل هويَّة وكأنَّها وطنٌ بذاتها داخل وطن الهويَّة المشتركة؛ حقوق تمارس، وواجبات تؤدَّى، ومسئوليَّات تحمل.

ولذا فقوَّة رابطة الهويَّة بقوَّة سريانها في عقول المنتميين إليها من الهويَّات اللاحقة بها انتماءً؛ حتى تشكِّل لهم ضميرًا عامًّا مشتركًا لا يجتمعون على شيءٍ إلَّا به، وهذا لا يكون على القوَّة الجاذبة رابطةً إلَّا إذا كانت الهويَّة المشتركة تمدّهم بالدّفء، وتغنيهم أو تعوِّضهم عمَّا كانوا فيه من دفءٍ ولو كان نسبيًّا.

ولذا فمع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة دولة واحدة فإنَّ هويَّات شعبها بالعشرات؛ إذ الهنود الحمر يشكِّلون هويَّة في قلب أمريكا، واللغة الأسبانيَّة تشكل هويَّة في قلب أمريكا، والدّين الإسلامي يشكل هويَّة في قلب أمريكا، واللوبي الصّهيوني يشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والجالية العربيَّة تشكّل هويَّة في قلب أمريكا، والأفارقة الأمريكان يشكّلون هويَّة في قلب أمريكا، وهكذا تتعدَّد الهويَّات وأمريكا واحدة؛ إذ

شعبها يتساوى في السِيادة والهويَة الأمريكيَة المشتركة، ومع أنَه لا خطر في ذلك، فإنَ الخوف يُنذر بأنَ هذه الهويَات قد تكون في المستقبل مستقلَّة وذات سيادة في حالة ما إذا تعصِبت كُتلة من الكتل على حساب كُتل أخرى، وهذا ما يُستقرأ مما أقدم عليه الرَئيس السَابق دونالد ترامب في أواخر أيَام حكمه عندما حرَض بعضًا من البيض المتعصِبين له ولكتلته على كسر هيبة السِيادة الأمريكيَة المتمثّلة في حرمة مجلس شيوخها ونوابها؛ حيث اقتحم أنصاره مقر الكونغرس الأمريكي يوم 6 من يناير 2021م وكأنَهم غير مبالين بالسِيادة الأمريكيَة التي أنتخب الرَئيس جو بايدن رأسًا عليها بدلًا من الرَئيس رونالد ترامب؛ ومن هنا حدث ما لم يكن متوقَعًا وهو الذي يشير إلى أنَ كل شيء في المستقبل الأمريكي سيكون ممكنًا بما أنَ هناك من يعمل تعصُبًا بغاية استعلاء العرق الأبيض على غيره من الأعراق الأمريكيَة.

وهكذا الحال في كلِ الأوطان (كثر عدد سكَانها أم قلَّ)، والقصد بالأوطان هنا تلك التي تتعدَّد الهويَات فيها مع شيء مِن التعصُّب لأحدها على حساب الأخرى؛ ففي ليبيا التي جَمَالُـهَا من جمال ألوان طيفها (عرب، وأمازيغ، وطوارق، وتبو) مع أنَ لها هويَة وطنيَة متماسكة دينًا وثقافةً وعادةً ولغة وسلوكًا، فأنَ عصبيَة الدَم فيها إن تبنَاها أهل الفتنة قد تكون على حِساب سيادة الوطن ووحدة ترابه وسلامة أمنه.

ومع أنَ الأقليَة لا تسود على حساب الأكثريَة إلَّا استثناءً، فإنَ الهويَة الوطنيَة تتصدَّع إذا لم تَسُدْ المساواة وطنيًا بين أبناء الشَعب، ومن هنا لا فرق بين المواجع والتأزُّمات في

حالة ما إذا سادت الأكثريَّة على حساب الأقليَّة، أو أنَّ الأقليَّة قد سادت على حساب الأكثريَّة؛ ولأجل القضاء على المواجع والتأزَّمات الوطنيَّة يجب أن تكون الهويَّة واحدة لوطنٍ واحد مع تقدير المختلف واحترامه والاعتراف به لونًا جميلًا من جمال ألوان الطَّيف الوطني؛ ومن ثمَّ ينبغي أن تكون للشَّعب حقوقٌ تمارس، وواجباتٌ تؤدّى، ومسئوليَّاتٌ تحمل، ولا إقصاءَ ولا تمييزَ إلَّا قُدرةً وعلمًا ومعرفةً وتخصُّصًا ودرايةً وخبرةً وتجربةً تخدم الوطن، وتعمل على نهضته ورفعة شأنه وصون هويَّته وسيادته.

ولأنَّ اختلاف الأديان يؤدِّي إلى اختلاف الثَّقافات والسُّلوكيَّات، فإنَّه إنْ لم يُنتبه لأهميَّة المختلف بناءً وإعمارًا فقد يكون المختلف على حساب الهويَّة الوطنيَّة سلبيَّة ودونيَّة؛ فمصر على سبيل المثال: شعب واحد (مسلمين ومسيحيين) هويّة واحدة (مصر أوَّلًا وآخرًا)، ولكن إنْ أصبح المسلمون فيها مفضَّلين على المسيحيين، أو أنَّ المسيحيين هم المفضَّلون فيها على المسلمين؛ فالأمر بلا شكَّ سيتغيَّر هويَّة وعصبيَّة، وبخاصَّة إنْ مُنحت الفرصة لأهل الفتن وموقدي نيرانها.

وهكذا الحال في العراق شعب وهويَّته الوطنيَّة (العراقيَّة) على الرُّغم من اختلاف أعراقه وديانات ومذاهبه الدِّينيَّة، فإنْ شَعر الأكراد بأنَّهم مواطنون من الدَّرجة الثَّانية فإنَّ الشّعور بأهميَّة الهويَّة الكرديَّة يصبح خيرَ ما يمدّهم بالدّفء على حساب دفء الوطن وهويَّته العراقيَّة، وكذلك إنْ شعر أهل السُّنة بأنَّ أهل الشّيعة هم المفضَّلون في العراق، أو عكس ذلك أنَّ السُّنة هم المفضَّلون فيه، فالأمر لا

بدَّ وأن يتغيَّر ولا يكون إلَّا على حساب الهويَّة العراقيَّة وسيادته الوطنيَّة.

وعليه:

فالهويَّة الوطنيَّة عنوانٌ للمواطنة وصفة للوطن، وفي دائرة المتوقَّع لا وطن إلاّ وله هويَّة، وفي دائرة غير المتوقَّع يصبح الوطن بلا هويَّة؛ فمن أراد أن تكون له هويَّة بها يتميَّز كما يتميَّز الآخرون بهويَّاتهم الوطنيَّة؛ فعليه بالولاء للوطن، ومن يغفل عن ذلك أو يجهل، يجد نفسه مُعنونًا بعناوين لا ترتقي به إلى تأسيس دولة.

فالانتماء إلى الوالدين يؤسّس إلى الانتماء للأسرة، والانتماء للأسرة يؤسِّس إلى الانتماء للعشيرة، والانتماء للعشيرة يؤسّس إلى الانتماء للقبيلة، والانتماء للقبيلة يؤسِّس إلى الانتماء للأمَّة، والانتماء للأمَّة يؤسِّس وطن بكامله.

وفي مقابل ذلك نجد أنَّ الانتماء إلى الأحزاب النَّامية في عالمنا المتخلّف لا تؤسّس إلّا بغاية تحقيق المصلحة الخَاصة سواء أكانت سياسيَّة أم اقتصاديَّة أم ثقافيَّة (ضاقت دائرة المصلحة أم اتسعت)، أمَّا في العالم المتقدِّم نموًّا فمصلحة الوطن أوَّلًا، ثم تأتي المصالح الخاصَّة من خلفه، فعلى سبيل المثال: الانتماء للحزب الدِّيمقراطي الأمريكي، يعني الانتماء إلى رؤية على ضوئها تُرسم السِّياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الجمهوري، والانتماء للحزب الجمهوري يعني الانتماء إلى رؤية على ضوئها ترسم السِّياسات والخطط التي لا تثق في رؤية الحزب الدِّيمقراطي، ومع أنَّهما الحزبان الرَّئيسان في الولايات

المتحدة الأمريكيَّة، فإنَّ الانتماء إليهما يتبدَّل بتبدَّل الرُّؤية؛ ومن هنا يتّضح الفارق بين الانتماء للحزب الذي يتبدَّل، والانتماء للوطن الذي لا يتبدَّل.

أمَّا في عالمنا المتبدَّل؛ فكلّ شيء فيه يتبدَّل؛ فيه الانتماء للوطن يتبدَّل بالانتماء للحزب، وفيه دائرة الحزب تمتدّ على حساب حدود الوطن، كما هو الحال لدى حزب الإخوان المسلمين في مصر الذين يرون الانتماء إلى الأمَّة الإسلاميَّة هو الانتماء، وما الأوطان إلّا وسيلة لتحقيق غاية الانتماء إلى الكرة الأرضيَّة؛ فالجماعة "تسعى إلى تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، ثم الحكومة والدَّولة الإسلامية"[45]. أي إنَّهم لا يرون للدَّولة حدودًا إلّا الدّين الإسلامي؛ فأين ما امتدَّ الدّين امتدّت الدَّولة. فهم بهذه النَّظرة لا يرون أهميَّة لكيانٍ وطني يقوم على التنوّع الدِّيني، وكأنَّ الخَلق كلّ الخَلق أمَّة واحدة، وهذا ما يخالف ما خُلق النَّاس عليه مصداقًا لقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[46].

ولأنَّنا مِن سكَّان العالم المتبدّل؛ فمعظم الأحزاب فيه تتقاتل وتتطاحن من أجل مصالحها الخاصَّة، وليس من أجل مصالح الأوطان، فالنَّاس فيها يربطون مصالحهم بنجاح الحزب حتى ولو كان نجاحه على حِساب سقوط الوطن؛ وهم بهذه السُّبل والأساليب يدفعون البعض للانقلابات

[46] اللائحة الداخلية لجماعة الإخوان المسلمين، النظام العام للإخوان المسلمين 1994.

والمؤامرات والتمرُّدات والصِّدامات؛ فينشغل الجميع بما يكون سائدًا على حساب مصالح الوطن دون استثناء.

إذن: في دائرة المتوقَّع أنْ تكون هويَّات الشُّعوب في أوطانهم، ومن غير المتوقَّع أن تكون هويَّاتهم على حِساب أوطانهم؛ ولأنَّها الهويَّة؛ فلا هويَّة إلّا بخصوصيَّة متميّزة عن غيرها من الخصوصيَّات كما غيرها يتميّز عنها بخصوصيَّاته.

ولهذا فهويَّات الأوطان لا تتكوّن من مكوّنٍ واحدٍ؛ بل هي في دائرة المتوقّع تتكوّن من مجموعة مكوِّنات، منها: اللغة، والدّين، والثَّقافة، والعرف، والعادة، والآداب، والفنون، والأصل، والانتماء، والتَّاريخ. أمَّا أن يراها البعض على غير ذلك؛ فهذا إنْ حدث استثناء، لا يكون إلَّا في دائرة غير المتوقَّع.

ومع ذلك لا يؤخذ بالاستثناء إلَّا استثناء (ضرورةً واضطرارًا)؛ فالاستثناء لا يكون إلَّا بعلل الضَّرورة المؤقَّتة، ولأنَّها الضَّرورة المؤقّتة؛ فالضَّرورة لا يمكن لها أن تكوِّن هويَّة وطنيَّة، حتى وإن اتخذها بعض الأفراد موقفًا مؤقّتًا.

ولأنَّها الهويَّة الوطنيَّة؛ فهي المحتضنة لكلِّ المواطنين دون أن تستثني أحدًا وإن اختلفت ألوان طيفهم. فهي التي تمدّهم بدفء الوطن، والإحساس بأهميَّة العُرف والعادة، وعظمة الدّين، وحلاوة اللغة، وجمال الثَّقافة، ورفعة الفنون والآداب؛ فالهويَّة الحاضنة لجمع شمل المواطنين، تمدّهم بقوَّة الانتماء التي تغرس الثِّقة فيهم دون خوف، ممّا يدفعهم بقوَّة دفأها إلى ممارسة حقوقهم، وأداء واجباتهم، وحمْل مسئوليَّاتهم، وفي المقابل إنْ حاول أحد حرمانهم

منها، يرفضون ويتحدَّون، ويثورون من أجل وحدة الوطن، وفك القيد أو كسره.

إذن الهويَّة الوطنيَّة هي الرُّوح التي تنبعث حياةً في الوطن، فإن خرجت روحه (هويَّته) بأيَّة عِلّة، أصبح الوطن لا يزيد عن كونه مادَّة (تراب)، ومع أنَّ الهويَّة روح الوطن، فإنَّ وحدة الوطن تضعف وتشيخ بمؤثّرات داخليَّة عندما تظهر على السَّطح انقسامات بين ألوان طيفه، وعندما تصبح الشَّهوة رأس نظامه، وعندما تسود المظالم مع النَّاس تهميشًا، وإقصاءً، وحرمانًا، وهيمنةً.

وفي هذا الاتجاه ناقش المؤرّخ آرثر شيلنج مفهوم سياسات الهويَّة في كتابه تفرّق شمل أمريكا(The Disuniting of America) بقوله: "يؤدِّي ارتكاز السِّياسات على التهميش الجماعي إلى تفتيت نظام الحكم المدني؛ فينبغي أن تهدف الحركات التي تدعم الحقوق المدنيَّة إلى القبول الكامل بالمجموعات المهمّشة ودمجها داخل الثَّقافة السَّائدة، بدلًا من التكريس لفكرة التهميش عن طريق محاولات التركيز على الاختلافات"[47].

إذن كما أنَّ التهميش والتفرقة والحرمان والهيمنة والإقصاء معطيات لإضعاف الدَّولة، فكذلك هي معطيات لإسقاطها، وقد تتعدَّى هذه العلل بالمواطنين إلى الفرقة والخصام والاقتتال الدَّاخلي والتجزئة الوطنيَّة وبخاصَّة عندما يلحق التهميش والإقصاء خصوصيَّات ألوان الطَّيف الوطني.

[47] M.A. Chaudhary & Gautam Chaudhary, Global Encyclopedia of Political Geography, p.112, 2009.

فالهويَّة لا تكون إلَّا لإثبات الشَّيء (هو كما هو)، وليس (كما ينبغي أن يكون)؛ فالوطن هو الوطن بهويَّته الشَّاملة لألوان طيفه؛ فالهويَّة الليبيَّة على سبيل المثال: هي المثبتة للشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (هي كما هي ليبيَّة)، شخصيَّة لها من الحقوق ما لها، وعليها من الواجبات والمسئوليَّات ما يُحمل وما يؤدَّى، ولا فرق بين ألوان طيفها الاجتماعي، فليبيا وطن يجمع ولا يفرِّق، يسخِّر شعبها طاقاته وإمكاناته الوطنيَّة من أجل ليبيا؛ ولذلك فلكلّ شعبٍ هويَّة تميّزه عن غيره من هويَّات شعوب المعمورة؛ ومن ثمَّ فالمراد بلفظ الهويَّة (شعب ووطن) أن يكون للشيئين وحدة من وجه[48].

وعليه: ففي دائرة المتوقَّع كلّ شيء بطبعه يُطبع، أمَّا في دائرة غير المتوقّع؛ فإنَّ الشَّيء بما ليس عليه يُطبع. وعندما يُطبع الشَّيء بما ليس عليه (ليس هو كما هو) يصبح شيئًا آخر وإن تشابها مع ذات الشَّيء.

أمَّا السِّيادة فهي رفعةُ شأنٍ، يتمدَّد المواطن بحيويَّتها إلى النِّهاية دون أن يتمدَّد أحدٌ على حسابِ حقوقهِ وواجباتهِ ومسئوليَّاتهِ، حتى يُصبح المواطن راية الوطن التي يستظل جميعُ المواطنين بها.

وعندما تسود السِّيادة الوطنيَّة يُصبح الشَّعب تحت راية الوطن دستورًا منظمنًا للعلاقات وضابطًا لها، وليس هكذا عبثًا تحت رحمة السُّلطان وتحت رحمة الحكومة؛ مما يجعله قادرًا على اتخاذ قراراته بلا ضغوطٍ، وقادرًا على

[48] محمد بن علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت: 1996، ص 73.

تنفيذها نُقلة من أجل الوطن؛ وعيًا ودرايةً وإرادةً ومسئوليَّةً، ولا مخاوف.

ولأنَّها السِّيادة؛ فبسيادتها بين النَّاس هويَّةً يستقرُّ الشَّعب وينهضُ وعيًا ودرايةً، ويستقرُّ النِّظام وتنهض الدِّيمقراطيَّة سلوكًا وممارسةً، وتستقرُّ الدَّولة وتنهض بناءً وإعمارًا، وفي المقابل إذا انكسرت السِّيادة بأيَّة علَّة فلا استقرارَ، ولا ديمقراطيَّةَ، ولا أمنَ ولا نهضةَ؛ ولذا فلا قيمة لأيَّة دولة ما لم تكن السِّيادة فيها رفعةَ شأنٍ عند مواطنيها وعند الغير.

ومع أنَّ لمفهوم السِّيادة دلالةً ومعنًى نظريًّا، فإنَّ التغنِّي بها وبمفهومها النَّظري لا يعني شيئًا ذا قيمة ما لم تُصبح السِّيادة الوطنيَّة فيها وفقًا للآتي:

ـ دستورٌ (عقدٌ بين الشَّعب) على المبادئ الكبيرة والصَّغيرة؛ من أجل ممارسة الحريَّة بأسلوب ديمقراطي (استفتاءً وانتخابًا).

ـ امتلاك الإرادة؛ إذ لا تغييبَ، ولا تهميشَ، ولا إقصاءَ، ولا وإكراهَ.

ـ ترسيخ الهويَّة؛ كونها العنوان العام لكلِّ المواطنين بمختلف ألوان طيفهم عِرقًا، ودينًا، وعرفًا.

ـ ترسيخ الكرامة؛ كونها قيمة الإنسان اعترافًا وتقديرًا واحترامًا واعتبارًا.

ـ ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسئوليَّات قرارًا وتنفيذًا ورقابةً وتقويمًا.

وعليه فإنَّ كثيرًا من الأشياء يُمكن أن تستبدل أو تباع أو تشترى إلَّا السِّيادة، التي إنْ ضاعت ضاعت الهويَّة معها، وهكذا كل شيء يمكن استبداله بغيره إلَّا الوطن فإنْ ضاع فلن تَجِدَ له سوقًا لتشتريه.

وكثيرٌ من الأشياء بعللِ الضَّرورة أو الحاجة يمكن الاستغناء عنها إلَّا السِّيادة؛ فهي ترتبط بالكرامة والمصير الذي يرسِّخ قيمة الإنسان، والذي متى ما فُقد فُقدت الكرامة معه.

ومع أنَّ السِّيادة إنْ فُقدتْ فلا أسواقَ لها ولا بديلَ، فإنَّ استردادها في دائرة الممكن ليس بمستحيلٍ، ولكنَّ ثمنَ الاسترداد ليس هينًا؛ فالسِّيادة إنْ ضاعت لا تردَّها إلَّا التضحيات.

ومع أنَّ لاستردادِ السِّيادة الوطنيَّة قيمةً فإنَّه لا سيادة إلا بامتلاك الإرادة الوطنيَّة التي تعني: امتلاك الشَّعب لزمام أمره؛ حيث ينتفي الإكراه والتَّوجيه وفقًا لمسار سياسات وأفكار خاصَّة، أو شخوصٍ بعينهم.

ولهذا يُعَدُّ امتلاك الإرادة امتلاك حريَّة اتخاذ القرار الممكِّن من تحقيق مصلحة الوطن العليا مع قبول تحدِّي الصِّعاب؛ من أجل ترسيخ السِّيادة الوطنيَّة، وفي المقابل فقدان الإرادة يلغي كل ما من شأنه أن يجعلَ الشَّعب حرًّا ذا سيادة.

وفي دائرة المتوقَّع لا استغراب أن تُسترد السِّيادة المسلوبة إذا امتلك الشَّعب إرادته بعد أن سُلبت منه تحت ظروف استثنائيَّة، ومن ثمَّ فالقوى التي تظن أنَّها قد قضت

على إرادة الشَّعب الليبي أو أيّ شعب فستفاجأ بما لم تكن تتوقَّعه، مما يجعل التخويف بالموت والتلويح به هو وحده المشجِّع على حبِّ الموت، والمطالبة به، والإقدام عليه من أجل السِّيادة هويَّة وحريَّة وطنيَّة.

وعليه: فمن أجل استرداد السِّيادة الوطنيَّة ستلاحق الشُّعوب الموت أينما كان حتى لا يلاحقهم حيثما يكونون؛ كونهم واثقين أنَّ الموت لا يخيف، بل الاستسلام للقتلة وحده المخيف، مع إيمانهم التَّام أنَّ الموت لا يأتي إلَّا مرَّة واحدة، ولا يتكرر أبدًا، كما أنَّهم يؤمنون أنَّ من يطلب الموت دفاعًا عن الدِّين والشَّرف وسيادة الوطن وهويَّته تُكتب له الحياة الدَّائمة التي لا موت مِنْ بعدها.

ومن ثم فالجبناء وحدهم لا ينعمون في الحياة الدُّنيا، ولن ينعموا بالحياة الباقية؛ ولهذا دائمًا نقول: الخوفُ رحمةٌ، والجبنُ عارٌ.

ولذا فإنَّ الشُّعوب التي تطلب الموت من أجل الحياة قادرةٌ على استرداد السِّيادة الوطنيَّة متى ما سُلبت منها بغير حقٍّ، ولكن: أي إرادة يُمكن بها أن تسترد السِّيادة؟

إنَّها الإرادة المستقلة (غير التَّابعة) التي تجعل من مالكيها لاعبين أساسيين في المشهد الوطني، وليسوا دُمًا تحرَّك بأيدي الغير.

ولهذا فعندما تُفقد الإرادة الوطنيَّة لا يمكن أن يكون للوطن سيادة؛ فالوطن الذي تستباح حدوده لا يمكن لأهله أن يقال عنهم: إنَّهم سادة.

سيادة العقدُ الاجتماعي:

العقد الاجتماعي لا يكون إلَّا عن تفاهم بين النَّاس (أهل الوطن) الذين لا استقرار لسيادتهم إلَّا به، ومن هنا فالعقد الاجتماع وثيقة الاعتراف بين الأنا والآخر من أبناء الوطن، وثيقة تحتوي على كل ما يجنب من المخيفات، ويحقق الاستقرار، ويصون السِّيادة ، ويحفّز على النهضة دون أن يحدث أيّ تماس بين النَّاس، وفي حالة حدوثه تصبح العودة إليه كلمة الفصل.

ومن هنا يعد العقد الاجتماعي وثيقة استقرار الوطن ونهضته، وهو الوثيقة الحاسمة للخلافات متى ما حدثت، وهو الملزم للجميع بالتوقّف عند حدود الاختلاف؛ ولذا ف إنَّ الخلاف بين الأفراد، والجماعات، والمجتمعات يولّد خوف البعض من البعض، ويحفّزهم على صوغ عقد اجتماعي، يضمن لكلّ أحد حريَّة يمارسها، ويقف عندها، دون أن يستغول أحد على آخر، أو يمتدّ ويسود على حسابه.

ولأنَّ لكلّ فرد خصوصيَّة، إذن: لا بدّ وأن يكون لكلّ جماعة خصوصيَّة، ولكلّ شعب خصوصيَّة، ولأنَّها الخصوصيَّة فهي المولود الأوَّل للاختلاف الذي تميّز به النَّاس، والذي لولاه ما تعرَّف البعض على البعض: {يَا أَيُّهَا النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[49].

ولأنَّهم مختلفون، تفرَّقوا بين شعوبٍ وقبائلَ، ولكلٍّ منهم خصوصيَّة تميّزه بما يختلف به عن خصوصيَّات الآخرين؛ ممّا يستوجب إبرام عقد اجتماعي ينظّم علاقات المختلفين على مستوى كلّ خصوصيَّة، سواء أكان ذلك العقد

[49] الحجرات: 13.

مكتوبًا، أم متّفقًا عليه اتفاقًا عُرفيًّا: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}[50].

ولأنَّ العقد الاجتماعي هو عقد إرادي يستمدّ قوّته من شرائع الشُّعوب وأعرافها؛ فهو لن يكون مخالفًا مع أيَّة خصوصيَّة؛ ولهذا لا يكون إلَّا عن تراضٍ، واتفاق، ووفاق، وتفاهم، وتفهّم، ويستوعب الجميع، دون أن يستثني منهم أحدًا.

ولأنَّ العقد الاجتماعي يتعلّق بالإرادة، وممارسة الحريَّة، والحفاظ على كرامة الإنسان، وتنظيم العلاقات الإنسانيَّة؛ فهو عقد سيادي، لا يصاغ إلّا بلغة الجميع، ومنطق الجميع، وحُجَّة الذين لن يتنازلوا عن أمرهم وسيادتهم؛ ذلك لأنَّ أمر الجميع لا يتعلّق إلّا بهم جميعًا، ومن يدّعي أنَّه ينوب عن الجميع، وأنَّه يستطيع أن يحمل حِملهم كلّه فهو في حقيقة أمره لا يزيد عن كونه راغبًا في تزوير الحقائق، أو على الأقل الحياد عنها. وفي هذا الأمر يقول المفكّر الاجتماعي جان جاك روسو: "الاهتداء إلى شكل شركة تدافع عن الشركاء، وتحمي بما لها من القوَّة الجماعيَّة كلّ شخص مشترك وأمواله، شركة ينضم فيها كلّ مشترك إلى شركائه، ويتّحد معهم، ولكنَّه مع ذلك لا يطيع إلّا نفسه، ويظل متمتّعًا بالحريَّة نفسها التي كانت له"[51].

[50] المائدة: 48.

[51] جان جاك روسو، العقد الاجتماعي أو مبادي القانون السياسي، "ترجمة بولس غانم"، بيروت، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1972، ص 25.

لقد شبه جان جاك روسو التعاقد بين النَّاس بالشّركة التي تؤسّس من أجل تقديم الرّعاية، والخدمة لأعضائها، أو تقديمها لمنتسبيها، ولأنَّهم يمتلكونها فبالضرورة سيدافعون عنها، ومن يمسسها بسوء يعد معتدٍ على الحقوق الواجب الدّفاع عنها، ومن هنا فالسِّيادة تترسّخ.

إذن: فالعقد الاجتماعي المرسّخ للسّيادة لا يكون إلَّا عن اتفاق واختيار إرادي، يتمّ بين المتعاقدين: (المتوافقين) على تأسيس مبادئ مشتركة، تستوجب من الشركاء الاحترام، والتقدير، كما تستوجب منهم الاتباع، والتقيد بمواثيقها، وطاعتها؛ كونها الضّامن لممارسة الحريَّة الفرديَّة وفقًا لنصوص التعاقد.

والعقد الاجتماعي الذي يتحدث عنه جان جاك روسو، هو عقد تصوري؛ لتنظيم الحياة الاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة بين المواطنين داخل حدود الدَّولة، وتنظيم حياة النَّاس في كلِّ دولة.

ويهدف العقد الاجتماعي إلى جعل الفرد الواحد وكأنَّه بائع ومشترٍ، ومتابع ومراقب؛ ذلك لأجل أن تكون له حقوق تستوجب المطالبة إذا ما تعرضت للاختراق، أو تعرّضت لاعتداء من الآخر، وتكون له واجبات يؤدّيها، ابتداء من الدّفاع عن حقوقه، ونهاية بأداء ما تقرّه نصوص العقد الاجتماعي، وله مسؤوليَّات لا بدَّ من تحمّلها، بوصفه شريكًا أساسيًّا في الشركة، أو في الدَّولة التي تجعل له سيادة وطنيَّة.

ولهذا يرسخ العقد الاجتماعي عرفًا وطنيًّا بين النَّاس، لا ينبغي الإخلال به، وهو: أنَّ القبيلة ملك لكلّ أفراد القبيلة، وأنَّ المدينة ملك لسكّانها، وأنَّ الدَّولة ملك لمواطنيها، وأنَّ

العالم ملكًا لشعوبه، والفرق بين هذه التنظيمات، هو: قوّة أو ضعف الروابط الشَّعبيَّة، التي تتكوَّن بين المعنيين بها، ودرجة الشفافيَّة التي تفسح لهم بالحركة، والامتداد في مجالات التفاعل الاجتماعي الذي يرسّخ السِّيادة ويصون الكرامة.

ولهذا تعود قوّة العلائق بين أفراد القبيلة إلى قوّة العرف الذي ينظم حياة أفرادها، وكذلك قوَّة العلائق بين سكّان المدينة ترجع إلى قوَّة القانون، الذي وُضع لتنظيم علائق شعبها، وقوَّة علائق المواطنة تعود إلى قوَّة الدستور الذي يسنّه الشَّعب، وقوَّة العلائق بين تنظيمات وشعوب العالم تعود إلى ما تحقّقه القوانين الدوليَّة من منافع للدّول، والجماعات، والأفراد على السواء، ومع ذلك فإنَّ للأديان قوَّتها وأثرها على صوغ العقود الاجتماعيَّة المرسّخة للسيادة، وفي الوقت ذاته وحدها تكون قادرة على استردادها إذا ما تعرضت للانكسار.

وفي هذا العصر هناك محاولات باسم العولمة؛ لإيجاد صياغة جديدة لعقد اجتماعي، بين شعوب العالم، يسمح بهامش الحركة والامتداد للأفراد، والجماعات، والشُّعوب، داخل الحدود وخارجها، حركة تتطلّب إيجاد وسيلة فعّالة في التنفيذ، تكون نواتها المنظمات الدوليَّة الحاليَّة مع إضافة منظمات قانونيَّة جديدة ذات صلاحيَّات وسلطة نافذة؛ ذلك لأنَّ التنظيمات الدوليَّة القائمة حاليًّا يغلب عليها الجانب الحقوقي للإنسان، أمَّا التنظيمات الواجبة الإنشاء فتتعلّق بما يدعم مجالات الحريَّة، في أداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات، أي: لن يعد أمر الحرّيَّات مقصورًا على

ممارسة الحقوق، بل سيتعداها إلى أداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات.

وعليه: فبأسباب الاختلاف والخلاف كانت الضرورة حتميَّة لصوغ عقود اجتماعيَّة، قابلة للتطوير مع تطوَّر الحاجات، وتنوَّع مشبعاتها، ومع تطوَّر الحريَّات، ووسائل ممارستها، ومع أنَّها عقود اجتماعيَّة واجبة الاتباع، فإنَّها لم تكن مطلقة الأحكام؛ كونها لم تكن دينًا منزّلًا.

ولذا فإنْ أريد للعقد الاجتماعي نجاح فلا بدّ أنْ يستمدّ تشريعاته من المصادر المرغوبة لدى الشُّعوب، التي تحوي كمًّا هائلًا من الفضائل الخيّرة المستمدّة من الأديان، ومن القيم الحميدة المستمدّة من الأعراف والتقاليد؛ فالاحتكام بتلك الفضائل والقيم يمكّن من نيل الاعتراف والاعتبار والاحترام، كما أنَّه يُمكّن من غرس الثِّقة بين المختلفين المتعاقدين ويحمي سيادتهم من الضياع، وإذا ما ضاعت السِّيادة بأيَّة علَّة فنصوصه الموثّقة تشرّع لأبناء الوطن وجوب استردادها.

ولأنَّ العقد الاجتماعي مؤسّس على الإرادة فهو المقوّي لها، والمحفّز على تعميمها دون تخصيص، قال روسو: "يجب أن يُفهم أنَّ ما يُعمّم الإرادة ليس عدد الأصوات، بل المصلحة المشتركة التي تؤلف بين الناخبين"[52].

ولأنَّ العقد الاجتماعي بين المتعاقدين يهدف إلى تحقيق العدالة، وممارسة الحريَّة، واحترام كرامة الإنسان؛ فهو الضامن لسيادة النَّاس الذين لا سيد عليهم، ولا قمَّة فوقهم

[52] المصدر السابق، جان جاك روسو، العقد الاجتماعي ص 48.

إلَّا عن اختيار وإرادة حرَّة، وبكلِّ شفافيَّة، وفي هذا الأمر يقول روسو: "من السَّخافة، والتضادّ، والتناقض أن تُقيم هيئة السِّيادة رئيسًا عليها، وإن حصل ذلك؛ فهو عقد غير شرعي"[53].

السِّيادة بطبيعة الحال لا تتطلّب من يُنصّب عليها، ومن يقبل بذلك من الشُّعوب والمجتمعات لا يمكن أن تكون لهم السِّيادة، وعندما تكون السِّيادة للعقد الذي يرتضيه الجميع فلا ينبغي القبول بما يخالف ذلك.

وفي القديم كانت التنظيمات الاجتماعيَّة تؤسَّس على إرادة الفرد وفقًا للعرف السَّائد، حتى العلائق الدِّينيَّة في العصور الوثنيَّة كانت فرديَّة إلى درجة أنَّه كان لكلِّ فرد إلهه الخاص به، ثم أصبح بعد ذلك لكلّ جماعة إلهها الخاصّ بها، وهكذا لكل عشيرة، وقبيلة، ولكل قرية، أو مدينة، وبأسباب الاختلاف والخلاف، وتفاديًا للصّدام، جعلوا السِّيادة للآلهة، وأنَّ لكلّ إله السِّيادة الكاملة على أتباعه الذين اختاروه، ولا سيادة له على من لم يختاروه عن إرادة.

وجاءت الديانات الإبراهيميَّة: (ديانات التوحيد)، بخاتمتها رسالة مُحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، التي لا تؤمن إلّا بإله واحد لا شريك له؛ يخلق ولا يُخلق: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[53]، رسالات رسَخت حريَّة الإنسان، وأكّدت على كرامته، وأمرت بعدم الإكراه حتى في الدّين، كما أنَّها أمرت بالمشاورة، والعدل بين المختلفين؛ فلها من الفضائل الخيّرة ما يجعل المواثيق والعقود الاجتماعيَّة ذات مبادئ، وقيم إنسانيَّة بها يُنصف النَّاس ويعدلون.

[53] الأعراف: 191.

ولأنَّ الاختلاف والخلاف من طبائع البشر، ساد الحوار، والجدل، والبرهنة، حُجج متبادلة بين الذين يؤمنون بإله واحد، والمشركين والكافرين؛ فترتب على ذلك صدام بين المختلفين والمتخالفين، واتسعت دائرة الحوار داخل الحدود وخارجها؛ فأدّى ذلك إلى ضرورة إيجاد عقد اجتماعي ينظم علاقات النَّاس ، ومن هنا فسادت أنظمة الحكم الفردي كما سادت سيطرة الزّعيم والبطل والقائد؛ فكان النظام القبلي، والملكي، والفرعوني، والقيسري، والكسري، والنازي، والفاشي، ظلال تحتها طغى من طغى، وتكبَّر من تكبَّر؛ فكان الظُّلم والإكراه نتاج التفرّد والإقصاء والعزل السياسي وكسر السيادات؛ ولذا الشُّعوب ثارت من أجل استرداد سياداتها الوطنيَّة وكرامة النَّاس.

ولأنَّه الإكراه والتجبّر والقهر، بدأت ظاهرة الولاءات للحاكم أكثر من الولاءات للآلهة، ومن هنا أصبحت السِّيادة للحاكم، وليس للإله، وهذا ما جعل الإمبراطور الروماني كاليجول الذي تولى السِّيادة على الإمبراطورية الرّومانيَّة خلال الفترة من سنة 37م إلى سنة 41م يقول: "كم أتمنى أن يكون للشّعب الروماني رأس واحد لأطيح به بضربة سيف، فليغضبني الشَّعب الروماني، شرط أن يخشى بأسي"[54].

وفي المقابل كانت تؤكّد ديانات التوحيد، أنَّ الحكم لله وحده، وهنا يكمن المشكل الذي لم يقبله الطّغاة، الذين يرون أن لا حكم إلّا لهم، ولا يحقّ لأحدٍ أن يحرمهم منه.

فبدأ الخصام والنّزاع جنبًا إلى جنب مع الحوار والجدل، بين أمم العالم وشعوبه وبلدانه؛ بهدف إيجاد عقدٍ اجتماعيٍّ

ينظم علاقات الأفراد، والجماعات، والشُّعوب، والأمم؛ فكان العقد الاجتماعي الذي تمّ صوغه من قبل بعض مفكري الغرب، عقد قائم على القيم ذات الفضائل المحقّقة للرفاهيَة الاجتماعيَة المأمولة، والضامنة للحياة الآمنة للأفراد، حياة خالية من القيود، والموانع الظالمة، ترسمها رؤى جمعيَة، تستوجب من المواطنين التنازل عن جزء من حقوقهم، أو عن حقوقهم كاملة للحاكم ، ومن هنا بدأت الجهود بغاية الاسترداد الجزئي للسيادات من أولئك الذين نصّبوا انفسهم سيادات على شعوبهم، وهنا يقول جون لوك: "يتنازل الأفراد عن جزء من حقوقهم بالقدر اللازم لإقامة المجتمع المنظم"[54]. إنَّه اشترط التنازل الجزئي عن الحقوق، في مقابل مجتمع منظم، وهذا يعني: أنَّ المواطن لا يحقّ له أن يطالب بممارسة حقوقه كاملة، وفقًا لنصوص هذا التعاقد، وأن يقبل بممارسة الحريَة وفقًا لاشتراطات المتعاقدين.

أمَّا المفكر الاجتماعي توماس هوبز فيرى من اللائق أن يتنازل المواطن عن حقوقه كاملة، بمقتضى العقد للحاكم، ويعد بذلك خالي المسئوليَة التي تعدُّ من مهام الحاكم[55]؛ ولهذا تعدُّ فلسفة جون لوك تحسينًا لفلسفة توماس هوبز، ولكن ألا يكون من المنطق أنَّه إذا قَبل الإنسان أن يتنازل عن جزء من حقوقه فقد يقبل بذات المبررات التنازل عنها كاملة؟

[54] عقيل حسين عقيل، سيادة البشر دراسة في الفكر الاجتماعي. مالطا: دار ألجأ، 1997، ص 315.

[55] يحيى الجمل، الأنظمة السياسية المعاصرة. القاهرة، دار الشروق، ص 67.

أمَّا المفكّر الاجتماعي سان سيمون فيرى غير ذلك، فبعد التدهور الذي حصل عن طريق رجال الدّين المسيطرين على الحكم بسيادة الكنيسة، رأى سان سيمون أنَّه من الأفضل أن يُسلّم الحكم إلى رجال الصّناعة، والعلم، بدلًا من رجال الكنيسة، ويقصد برجال الصناعة، كلّ من له حرفة، أو مهنة، "الفلاح، وراعي الماشية، والنجَّار، والحداد، وصانع الأحذية، والتاجر، وكلّ منتج لأيَّةِ سلعة، أو محصول"[56].

ولأنَّ شعوب العالم على حالة تقدّم علمي، ومعرفي، وثقافي؛ فإنَّ حرّيتهم دائمًا تتعزّز، ممّا دعا من تعزّزت حرياتهم إلى النظر تجاه الآخرين الذين لم تتعزّز حرّياتهم في أوطانهم؛ فكان الرّفض من قبلهم لكلّ من يقيّد حريَّة مواطنيه ويسيء للسّيادة الوطنيَّة، حتى أصبح الصّدام مع من يحاول تقييد حريَّة بعض النَّاس صدامًا مع الدّاخل والخارج معًا.

ولهذا أصبحت نظرة العالم للإنسان قيمة مقدّرة في ذاته فلا ينبغي أن يهان، أو يستهان بحاجاته المتطوّرة، وحقوقه الوطنيَّة، وحقّه في الحياة أينما كان؛ وبذلك في العقد الاجتماعي الجديد لا فرق بين من يتولّى الإشراف على ممارسة السُّلطة، وإقرار الأمن والسَّلام في البلدان، وما يقوم به مَنْ تمّ اختياره رئيسًا لشركة ما.

ولذا يقول هنريك سكوليموفسكي: "يجب أن يتوطد عقد اجتماعي جديد يقوم على التعاون، والتكافل، والتعايش،

[56] زيدان عبد الباقي، التفكير الاجتماعي نشأته وتطوره. القاهرة: مطبعة السعادة، 1947، الطبعة الثانية، ص 212.

وعلى إجلال الحياة، وإجلال الجميع لبعضهم بعضًا، وأن يقوم على القيم الإيكولوجيَّة"[57].

فمع أنَّ هنريك يرى ضرورة إيجاد عقد اجتماعي جديد يقوم على مجموعة من القيم الإنسانيَّة، فإنَّه اشترط في تعريفه أن يقوم هذا العقد على القيم الإيكولوجيَّة (البيئة الاجتماعيَّة)، ولكن إن أُخذ بهذا الشرط؛ فسيصبح هذا الشرط قيدًا، وبخاصّة أنَّ الأفراد والشُّعوب والأمم هم على حالة من الاختلاف والتنوّع؛ ولأنَّهم كذلك فلا قيد، بل الحريَّة التامَّة هي الحريَّة التي تعترف بحريَّة الآخرين، وتقدّرها، وتقف دونها، وتحترم الخصوصيَّات الدِّينيَّة، والعرفيَّة، والأدبيَّة، والذوقيَّة.

ولأنَّ إيجاد العقد الاجتماعي بين النَّاس ضرورة أخلاقيَّة وانسانيَّة ، فبالضرورة لو لم يكن الاختلاف والخلاف بين النَّاس ما كانت ضرورة؛ لذا فلن يكون العقد الاجتماعي ناجحًا إلّا إذا استطاع أن يجيب على المختلف والمتخالف عليه، أو المختلف والمتخالف معه، أو المختلف والمتخالف بشأنه، وهذه لا تتمّ إلّا بتقدير الخصوصيَّة، والاعتراف بأصحابها، وتفهّم ظروفهم الخاصّة، وإذا تمَّ ذلك، كان الإجلال للحياة الإنسانيَّة في بعدها الفردي، والجماعي، والمجتمعي بعدًا أخلاقيًّا وسياديًّا.

ولأنَّه العقد الاجتماعي، فهو: الذي لا يُقَرّ إلَّا من قِبل الجميع، سواء أكان الجميع على مستوى الوطن، أم على مستوى العالم؛ ولهذا فلا إملاءات من أحدٍ على أحدٍ، ولا

[57] Henryk Skolimowski; Living philosophy: Eco-philosophy as a Tree of life; Arkana Paperbacks. P 12.

اشتراطات، أي: إنَّ العقد الاجتماعي هو الشّرط على كلّ اشتراط، ولا شرط عليه، وبهذا الشرط يصبح العقد الاجتماعي هو الشّرط لتنظيم علاقات الأفراد، والشُّعوب، وممارسة الحريَّة عن إرادة.

الفتن تسقط السِّيادة:

وفقًا لمنطق اللغة لا توقد نيران الفتن إلَّا بمفتنين، أي: لا نار تُشعل إلَّا ومن ورائها شاعل؛ ولذا فمع أنَّ السِّيادة قوّة تماسك وترابط بحزام الكرامة ومظلة الهويَّة، فإنَّ نيران الفتنة إن شبّت فيها أكلت التَّاريخ الذي لا يسترد ثانيّة إلَّا على أيدي صُنَّاعة.

ولذا فالفتنة الوطنيَّة اختلاط أوراق مشوّهة دون القبول بفرزها وتصحيح ما تحمله من مكائد، وهي لهو بالمفاسد مع تسويق المعيبات بين الأقارب والأباعد، حتى تسود الفرقة والبغضاء بين البعض والبعض ويلهو فيما هم فيه متخالفون ومتخاصمون ومتقاتلون، وبها في دائرة الممكن تنتشر المظالم حتى بين الأخوة والأقارب، ولا حُجّة للكلمات فيها إلّا بما يؤلم، ويحدث تأزّمًا.

موقدو نار الفتنة يَسعدون كثيرًا بزيادة الخسائر بين أطرافها ومركزها، والمفتونون في غفلة الألم يتدافعون على تقديم المزيد من الخسائر، والعارفون إن أدخلوا أقدامهم في وحل التأزُّم تغوص في القاع وهم يعتقدون أنّهم في الاتجاه السليم، في الوقت الذي من حولهم الأفعال المؤذية والمميتة يتسابق أهل الفتنة عليها وكأنّها المنقذ.

وهنا فالخلاف لا يكون إلّا على عدم تفاهم وعدم اتفاق، فبالنسبة إلى عدم الاتفاق إن لم تُفسح أمامه ميادين الحوار

والنقاش والجدل سيكون مؤدّيًا إلى فتنة بين المتخالفين تحفّز إلى المواجهة والاقتتال دون رأفة حتى تحرق الهويَّة وتكسر السِّيادة.

ولهذا فالفتنة ترتبط بالمفتونين أكثر من ارتباطها بالمواضيع، أي: ترتبط بالأشخاص والأشياء في ذاتها فلا تكاد تنفصل عنها، ومع أنَّ الفتنة تتجسّد في الأفراد والجماعات، فإنَّها لم تقتصر عليهم، بل تتعداهم إلى الأشياء التي عليها يفتنون كما هو حال شجرة الزقّوم التي جُعلت فتنة بين البعض والبعض، وهكذا، حتى النّعمة التي هي خير للنَّاس النَّاس عليها يُفتنون: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[58].

ومع أنَّ الفتنة ترتبط بالأشخاص ارتباطًا مباشرًا، فإنَّ ارتباطها لا يزيد عن كونه طمعًا، وبخاصّة مع الضعفاء والقاسية قلوبهم الذين يطمعون في كلّ ما من شأنه إغواء، ومن هنا يقعون في الفتنة؛ ولذا فـالفتنة عمياء لا تميّز بين قريب ولا حبيب، ولا حتى صحابي من صحابة رسول الله؛ فالفتنة بين علي بن أبي طالب ومن ولاه، ومعاوية بن أبي سفيان ومن ولاه كانت على أشدّها، والقتلى بينهم من المسلمين في معركة صفّين بالآلاف، ولأنّها الفتنة فقد لحقت من قبلهما الخليفة عمر بن الخطاب، والخليفة عثمان بن عفّان اللذان قتلا بعظمة نيرانها، ومن قبل هؤلاء جميعًا نشأت الفتنة مع نشأة الخلق البشري فأدت إلى قتل أحد ابني آدم على يدي أخيه ابن أبيه وأمه.

[58] الزمر 49.

ومع أنَّ الفتنة أشدُّ من القتل، فإنَّ الفتنة تؤدّي إلى القتل، ومع أنَّها تؤدّي إلى القتل، فإنَّ القتل قد يكون لشخص بعينه، أمّا الفتنة فدائرة اتساعها مثل رمي الحجرة في الحوض المائي دائرتها تبدأ صغيرة بحجم الحجرة التي تمّ رميها، ثمّ تتّسع إلى أن تعمّ الحوض المائي بأكمله؛ ولهذا فهي أشد من القتل؛ فعلى سبيل المثال، من يُرمى بحجرة ويُدمغ ويُقتل بها يظل القتل مقصورًا على من أصابته الحجرة، حتى ولو كان المرمى بها عن عمدٍ أو غير عمدٍ، وفي كلّ الأحوال إن كان المرمي بها عن قصد؛ فالقصاص العادل كفيل بمعالجة الأمر، وإن كان عن غير عمد فالدّية والتسامح والعفو كفيلة بطي الصفحة المفتوحة. أمَّا الفتنة عندما تنتشر بين النّاس فهي كالنّار في الهشيم، بدايتها بثّ افتراءات ودسائس وكيد ومكر، ونشر المعيبات بين النّاس، أمَّا نهايتها فسلب ونهب، وشتم وتنابز بالألفاظ، وإقصاء وعزل سياسي وتقتيل بلا رأفة.

ولأنَّ الفتنة أشدُّ من القتل فإن شبّت نيرانها في مَن شبّت يسجّلها التَّاريخ في صفحاته مآسي وآلام وأوجاع وتأزّمات على حساب الهويَّة والسِّيادة، حتى تصبح مضرب مثل كما هو حال الفتنة بين داحس والغبراء التي دامت أربعين سنة، وهي فتنة من فتن الجاهليَّة، وقعت في منطقة نجد بين فرعين من قبيلة غطفان (عبس وذبيان)، وكذلك فتنة بني أصفهان، وفتنة البسوس، وغيرها من الفتن والمعارك الكثيرة التي عاشها وخاضها العرب في الجاهلية وكانت على حساب مكارم الأخلاق والهويَّة العربيّة.

ومع أنَّ حركة التَّاريخ متّصلة زمانًا، ومنفصلة موضوعًا، فإنَّ الفتنة عبر الزّمن لم تنقطع، ومن ثمَّ مآسيها تتكرّر،

ورموزها يتجدّدون؛ فعبد الله ابن سبأ الذي ظهر من اليمن سنة 30هـ مفتنًا، هو عبد الله بن سبأ الذي انتقل إلى الحجاز مفتنًا، ثمّ انتقل إلى البصرة لذات المهمّة ومن بعدها الكوفة، ثمّ انتقل فتنة إلى مصر.

والفتنة كونها ترويجًا للمعيبات مع كمٍّ من الدّسائس فهي المتلوّنة في كلّ عصر، ففي عصرنا هذا (القرن 21) لِحَافها من طبقتين (دين وسياسة) مرّة بمرة، ومرّة بلا لون، وبهذا التلوّن ستظل الفتنة مستمرّة ليس في بقاء أثرها فقط، وإنّما في ممارستها من خلال التعمّد والإصرار على هذا التلوّن، وهكذا هي الأوراق تُخلط، حتى أصبح الدّين عند البعض لا يزيد عن منطق (حلال لنا وحرام عليهم)؛ ولذا فلا إمكانيَة لاسترداد الكرامة والسِّيادة ما لم يتم إطفاء نيران الفتنة بمشروعٍ وطني يمكن الجميع من تجاوزها رغبة وإرادة.

استردادُ السِّيادة:

ولأنَّ صُنع السِّيادة ليس بمستحيلٍ فإنَّ استردادها لا يكون إلَّا ممكنًا، أي: مع أنَّ صُنع السِّيادة ليس بالأمر السّهل فإنَّ استردادها إذا ضاعت يستوجب جهدًا؛ ولذا فالسِّيادة الوطنيَّة بين متوقّع وغير متوقّع قد تبقى هي كما هي هويّة، وقد تصبح بما تعمل أيادي شعوبها هويّات وانتماءات؛ ففي الماضي كانت القراءات السِّياسيَّة المتوقّعة إنَّ الهويّات الوطنيَّة تبقى هي كما هي هويّات، ما لم يتدخل الأجنبي، ولكن في دائرة المتوقّع الآنيّة فالأجنبي يرى أنَّ المحافظة على هويّات الشُّعوب تكفيه كثير من الآلام، ولكن ما يدور من صراعات داخلية في بلدان الشُّعوب التي هي في حاجة للأجنبي، قد تدفعه إلى تبني من يلتجئ إليه مناصرًا، وهنا تكمن علّة السِّيادة.

وبناء على سجلات التَّاريخ لقد سجّل التَّاريخ هويّة للاتحاد السوفييتي، والتَّاريخ ذاته شطب تلك الهويَّة من صفحاته، وجعله على هويّات بعد فترة امتدت من (1922 ـ 1991م)، ومن هنا فلو سألنا من سألنا خلال تلك الفترة: هل يمكن أنّ يشطب التَّاريخ من سجلّاته هويّة الاتحاد السوفييتي وسيادته العظيمة؟

نقول:

في ذلك الوقت هناك من كان يراها في دائرة المتوقّع، وهناك من لم يرها في هذه الدائرة.

إذن: على المفكّرين والسِّياسيين أن لا يقصروا تفكيرهم ورؤاهم وخططهم على المتوقّع فقط، بل عليهم أن لا يغفلوا عن غير المتوقّع، وإلّا سيفاجؤون بما هو مؤلم.

ففي دائرة المتوقّع ستظل هويّة الشّعب الأمريكي هي كما هي، وفي دائرة غير المتوقّع قد لا تكون هويّة هي كما هي، أي: قد تلد الهويَّة الأمريكيَّة من أحشائها هويّات؛ فيصبح من يستظل اليوم بلحاف الهويَّة الأمريكيّة ملتحفًا بهويّات جذورها ضاربة في التَّاريخ.

وعليه: فإنَّ دائرة غير المتوقّع دائمًا مملؤة بالمفاجئات والعجائب والمستغربات، فبالمقارنة بين ما تلعبه أمريكا من أدوار، وما كان يلعبه الاتحاد السوفييتي وحفيده اليوم (روسيا) من أدوار، لا يجعل البعض يتوقّع أنَّ الولايات المتحدة الأمريكيَّة هي التي أصبحت تتبنّى ثورات الشُّعوب، وأنَّ الوريث الشّرعي للاتحاد السّوفييتي (روسيا) هو المتخلّي عن هذا الدّور الذي كان أكبر متبني له. أي: إنَّ الزّمن الذي

هو كفيل بترويض الطغاة، سيكون هو الكفيل باستبدال المواقف بين متوقّع وغير متوقّع، وهو الممكن من استرداد السِّيادة.

في ذلك الزّمن كانت الولايات المتحدة الأمريكيّة لا تقبل أن يصبح الإخوان المسلمون حكّامًا في أوطانهم، وهكذا كان حال الاتحاد السوفييتي بالتمام؛ ولذا في ذلك الزّمن كان هذا الأمر غير متوقّعًا، ولكن في هذا الزّمن أصبح في دائرة المتوقّع، ومع ذلك لكلّ شيء ثمن، أي: أصبحت السِّياسات الفاعلة هي التي تُرسم وفقًا لما هو متوقّع وما هو غير متوقّع؛ ولذلك يخطأ من يغفل عندما يرسم سياساته واستراتيجيّاته عن دائرتي الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

في دائرة غير المتوقّع كان الكثيرون لا يصدقون إنَّ الإخوان المسلمين يحكمون مصر وتونس وليبيا مرّة واحدة، ولكن عبر الزّمن في دائرة المتوقّع كان الكثير من الإخوان المسلمين لا يرون مسافة تبعدهم عن سدّة الحكم وقمّة سُلطانه، وهم في دائرة المتوقّع نفسه كانوا واثقين من أنَّ الشعب سيكون سندهم في ذلك، غير أنَّهم في دائرة غير المتوقّع سقطوا من أوَّل جولة.

وبالعودة إلى بعض القراءات ففي بداية التسعينيات كانت توقعات المنظر الأمريكي صموئيل هنتنجتون حدوث صدام حضاري بين المسلمين والغرب؛ ولذلك رجّح أن تكون علاقات الغرب بالإسلام متوتّرة على نحو ثابت من العدائيّة.

ومن هنا كان الافتراض القائم في دول الغرب والولايات المتحدة الأمريكية: إنَّ المتطرّفين الإسلاميين هم رأس حربة

يجب أن يُكسَر قبل أن يدمي بأهل الغرب، فكانت الاستعدادات بكلّ الوسائل من قبل تلك الدِّول لمواجهة الخطر القادم نحوها، ولكن اليوم بالنسبة لهم أصبح ما كان غير متوقّع متوقّعًا؛ حيث أصبحت الدّول الغربيّة ترسم خططها وسياساتها بما يمكّن المسلمين من المواجهات الداخلية (إسلاميين ضدّ مسلمين)؛ فحفّزت على تمكين الإسلاميين من الحكم، لا لمحبّة فيهم، لكن لكونهم قوّة جذب لغيرهم من الإسلاميين المختلفين والمتخالفين في رؤاهم وأفكارهم، وطموحاتهم؛ فأوجدت أرضيّة لجمع شتاتهم من الخارج، لتكون الصدامات داخل الحدود الوطنيَّة، وليس خارجها (صدامًا مع الذَّات وليس مع الغير).

وبهذا المشروع ستكون رحى الصّراع الدّاخلي دائرة بين الأخوة (المسلمين)؛ فالغرب عازم على أن يلهي المسلمين بأنفسهم (إسلاميين ضدّ مسلمين)؛ وذلك لمعرفته أنَّ بعض منهم يرى من باب الوجوب أن تكون الخلافة الإسلاميّة له دون غيره، وغيره لا ينبغي له ذلك، ومن ثم ينبغي مواجهته صدامًا وخصامًا واقتتالًا، سواء أكان من الإخوان المسلمين، أم أنّه من غيرهم؛ وهنا يصبح العداء والصدام والاقتتال على أشدّه بين الأخوة، وهذا ما توقّعه أهل الغرب الذين افترضوا أنّ المسلمين هم أقدر من غيرهم على تصفية حسابات بعضهم بعضًا. وع ذلك أقول:

العالمُ سيتغير والمستقبل للإسلامِ:

التغيُّر في العالم استبدال ثقافي ومعرفي يدور مع دوائر التَّاريخ بما يُمكِّن الإنسانيَّة من إحداث النُّقلة، وتبوء المكانة رفعة وقمَّة، مع إيجاد علاقة أخلاقيَّة تصهر القيم الكميَّة والكيفيَّة في بوتقة الحضاريَّة وكأنَّها الدين للكافَّة.

ويتضح هذا الأمر من خلال عدد المسلمين في دول العالم الذي أصبح في حالة تزايد أضعافًا مضاعفةً إذا ما قورن بنسبة الزِّيادة السُّكّانيَّة في بلدان ما كان يعرف بالعالم الأوَّل والثَّاني؛ ومن ثمَّ أصبحت الدِّيانة الثَّانية في جميع دِول العالم الدِّيانة الإسلاميَّة؛ ما جعل المستقبل للإسلام ولا منافس.

ولأنَّ لكلِّ عصرٍ ثقافةً، ولكلِّ مجتمعٍ ثقافةً، فإنَّ في دائرة التَّاريخ لا استقرار لأيَّة ثقافة؛ ولهذا فالثَّقافة التي سترِثُها الأجيال القادمة تختلف اختلافًا كثيرًا عن ثقافتنا، وهذا ما تؤكده التقارير البحثيَّة في العالم، وعلى رأسها التقرير الكندي الذي نشر في 20 مايو 2017م، والذي جاء في نصوصه، أنَّ "فرنسا وألمانيا ستُصبحان جمهوريَّتين إسلاميَّتين خلال 40 عامًا، وملامح العالم ستتغيَّر، وأوروبا إلى الزَّوال".

وكما ينصُّ التقرير فإنَّه لا إمكانيَّة لأيَّة ثقافة أنْ تستمر أكثر من 25 عامًا ما لم يكن معدَّل الإنجاب في كلِّ أسرة بمقدار 2.11، ولن تستطيع أيَّةُ ثقافة البقاء أبدًا مع معدل الإنجاب 1.9.

أمَّا مَن يصلُ الحال بهم انحدارًا إلى معدل1.3 فلا إمكانيَّة لرجوعهم إلى ما ينبغي أن يجعلهم يعودون إلى ما كانت عليه ثقافتهم إلَّا بعد أعوامٍ من الزَّمن: 80 – 100 عام؛ لكي تُصحِّحُ الثقافةُ مسارها؛ ولهذا لا يوجد أيِّ نظام اقتصادي يستطيع أن يصمد طوال هذه المدّة.

والعمليَّات الإحصائيَّة تُثبت أنَّ الزَّوجين عندما ينجبان طفلًا واحدًا فإنَّهم قد عملوا على التخلُّص من نصف عدد

الآباء، وهكذا من بعدهم عندما ينجب أبناؤهم طفلًا واحدًا؛ فيصبح عدد المواليد ربع عدد الأجداد.

وعليه: كلَّما تقلَّص عدد السُّكَّان تقلَّصت معهم الثَّقافة، ومن هنا الخطر يهدد الشُّعوب الأوروبيَّة، وثقافاتهم، ففي عام 2007م كان معدل المواليد في فرنسا 1.8، وفي إنجلترا 1.6، وفي اليونان 1.3، وفي ألمانيا 1.3، وفي إيطاليا 1.2، وفي سويسرا 1.1، وكان المعدل على مستوى الاتحاد الأوروبي 1.38، ومن هنا تقول الأبحاث التاريخيَّة: هذه الأرقام لا إمكانيَّة لتراجعها؛ ولذا كان الطلب من الدِّول الأوروبيَّة على الهجرة الشَّابة نوعيًّا: (مهندسين، وفنيين، وأيدي عاملة جيدة، وقابلة للصقل، والتأهيل والتدريب، والتعليم). وللعلم أنَّ 90 % من هؤلاء المهاجرين وفقًا للتقرير الكندي مسلمون.

وبمقارنة النِّسب الإحصائيَّة نلاحظ الفارق الكبير بين نسبة الزيادة عند المسلمين، والأوروبيين، فعندما كانت الزيادة السُّكانيَّة عند فرنسا 1.8، كانت نسبة زيادة المسلمين: 8.1، ومع أنَّ جنوب فرنسا يُعدُّ أكثر المناطق من حيث عدد الكنائس في العالم، فإنَّ عدد المساجد اليوم في هذه الرقعة الجغرافيَّة أصبح يفوق تلك الكنائس، وأنَّ 30% من الأطفال ما بين سن العشرين وأقل هم من المسلمين، وقد ارتفعت هذه النسبة في المدن الفرنسيَّة الكبرى، مثل: نيس، وباريس، ومارسيليا إلى 45%.

وهكذا قد ارتفع عدد المسلمين في بريطانيا بزيادة 30 ضعفًا، وفي هولندا، وبلجيكا 50 % من المواليد الجدد مسلمون؛ وبالتَّالي سيكون نصف سكانهما من المسلمين،

ومن هنا صَرَخَتْ حكومة بلجيكا قائلةً: إنَّ ثلث أطفال أوروبا سيكونون في عام 2025م من المسلمين؛ ومن هنا ستكون ألمانيا، وفرنسا، وبلجيكيا ، وهولندا خلال الثلاثين عامًا القادمة ولايات إسلاميَّة، وهكذا سيكون حال أوروبا بكاملها فلا يأس ولا قنوط؛ لأنَّ الله تعالى شاء أن تكون الرِّسالة (الإسلام) للكافَّة، ولا إكراه في الدين.

وفي روسيا هناك ما يزيد عن 25 مليونَ مسلم، وحسب التقرير الكندي: سيكون في السنين المقبلة على الأقَّل 40% من الجيش الرُّوسي من المسلمين.

أمَّا الولايات المتحدة الأمريكيَّة فنسبة الزيادة السكانيَّة تبلغ: 1.6 ، وهذه لا تكفي للحفاظ على الثَّقافة؛ ومن ثمَّ فهي متحكِّمة في نوعيَّة المهاجرين إليها بما يحافظ على الثَّقافة، ما جعل نسبة معدل الزيادة: (بعد المهاجرين) تبلغ: 2.11 ، وهذه النسبة تكفي للحفاظ على الثَّقافة، ووفقًا للتوقُّعات الإحصائيَّة فإنَّ عدد المسلمين خلال الأعوام غير البعيدة سيكون في الولايات المتحدة الأمريكيَّة متجاوزًا خمسين مليونَ مسلم، وهكذا نسبة زياد المسلمين تتزايد في مواجهة مع نسبة الزيادة الكنديَّة، التي لم تتجاوز نسبة 1.6 من المواليد الكنديين.

ومع هذه الأضعاف المضاعفة كمًّا وكيفًا اسلاميًّا متزايدًا لا يمكن أن تكون العمامة عنوانها، بل الفضائل الخيِّرة، والقيم الحميدة، والاستنارة العلميَّة الرَّفيعة، والتسامح، والسَّلام، والاستيعاب؛ حيث الرُّشدُ فيها قد تبيَّن من الغي، ولا إكراه.

ومن هنا أقول:

لا مستقبل للإسرائيليين إذا لم يصلحوا حالهم مع العرب من الآن؛ ذلك لأنَّ المستقبل في دواليب السّياسة الدوليَّة سيكون بمؤثرات إسلاميَّة؛ سواء أكان في مجلس الأمن، أم في الأمم المتحدة، والجمعيَّة العامَّة، أم في البرلمانات الأوروبيَّة، والأسيويَّة، والأفريقيَّة، والأمريكيَّة، والأستراليَّة.

وأقول أيضًا: إنَّ أيَّ اتفاق يجري الآن مع الفلسطينيين تحت مظلَّة المغالبة لا مستقبل له؛ ولذا فما يؤخذ الآن محبَّةً، ووِدًّا، وعن تراضٍ يبقى حيًّا بين النَّاس ودًّا، وما يؤخذ من النَّاس كرهًا، سيحيي الكره والثأر فيهم، وكأنَّه لم يمضِ دهرًا.

استرداد السِّيادة استنارةً:

الاستنارة استجلاء الاستظلام وبقاء النُّور مرشدًا، لمن شاء الاهتداء بنوره، حتى تزاح العتمة التي تحول بين النوُّر ونفاذه لمن هم في حاجة إليه استرشادًا؛ ومن ثمَّ فالاستنارة أخذٌ مِن نُورٍ.

ومع أنَّ الاستنارة استمداد النُّور من مصادر نوره، فإنَّها لا تكون إلَّا عن علمٍ أو دراية، ومع ذلك العلم ليس بالدِّراية؛ فالعلم لا يكون إلَّا من عليمٍ أو عالمٍ، أمَّا الدِّراية فلا تكون إلَّا من مُدرٍ مستنير.

وعليه فإنَّ الفارق كبير بين مفهوم الاستنارة، التي لا تكون إلَّا عن استجلاءٍ بيّنة ورؤية؛ حيث لا استظلام، وبين مفهوم الإنارة التي لا تكون إلَّا في وسط ظلمة.

ولأنَّ الاستنارةُ لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ؛ فهي ترشد إلى ما يجب اتباعه، وترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا؛ ومن ثمَّ فلا استنارة.

وعليه: إنَّ استنارة العقل مع أنَّها لا تكون إلَّا عن وعيٍ ودرايةٍ وترشد لما يجب اتباعه، فإنَّها ترشد أيضًا إلى ما لا يجب اتباعه بوضعها علامة: (قف) قيدًا دونه؛ ومن هنا فالواعون لا يقدمون على مخالفة منظومة القيم التزمًا بقيدها خُلقًا، وفي المقابل عقول غيرهم ممن هم دونهم قيمًا لا تخشى قيد القيم، بل تقدم على كسره دون أن تنتظر وقتًا.

فعندما تظل الشُّعوب منتظرة لاستيعاب الثّقافة بغاية كسر قيدها، فإنّها ستكون في حاجة لمزيدٍ من الوقت؛ وفي المقابل عندما تعي الشُّعوب الحقيقة تُصبحُ قادرة على تجاوز الواقع واحداث النُّقلة؛ ومن ثمَّ فزمن الانتظار لن يجد مكانًا له ليحلَّ فيه أمام الدّراية التي بتجاوزها لزمن الأميَّة تتجاوز زمن الثّقافة والوعي؛ فالدّراية تجاوز معرفي لكلِّ ما من شأنّه أو يوصف جهلًا، أو أميَّة، أو علمًا، أو فكرًا وثقافةً وهي التي تحدثُ النُّقلة من معرفة الممكن إلى معرفة المعجز والمستحيل.

ولذا فالشُّعوب العربيّة التي كشفت حقيقة حُكَّامها كرهًا؛ ثارت على زمنهم بلا رأفة، وطوت صفحاتهم: (ثورةُ وعي ولا قيد ثقافة)، ومع أنَّ الثقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل

قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملَّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزّمن قادرٌ على قيد الأميّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة فلا إمكانيّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميّة غير قادرين على إحداث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

ولأنَّ الوعي استنارة لا يقيده الزَّمن فهو العقل ولا قيد عليه، وفيه يتساوى الأمي معرفة مع من يدري ويتدبَّرَ؛ أي: يتساوى الأمي فيه مع من تعلّم وتثقَّف ودرى؛ قال تعالى: {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[59]، في هذه الآية الكريمة ارتبطت الأذن مع الوعي ولم تستقلّ عنه، وهنا فهي الأذن المميّزة لما تسمعه أو تنصت إليه؛ إنَّها المميزة بين المسموع معرفةً والمتجاوزة له؛ كونها الأذن الواعية التي لا تأخذ بالمسموع إلَّا دراية.

ولأنَّ الوعي يُمكّن من معرفة الحقيقة المراد البحث عنها، فإنَّه المؤدّي إلى الفطنة الممكِّنة من التمييز واتخاذ القرار المناسب حتى وإن كان صاحبهُ أميًّا، فالحقيقة كما يلمّ بها الأمي ويعرفها يلمّ بها كلًّا من المتعلّم والمثقّف ويعرفانها، وبخاصّة في الزَّمن الذي لا شيء فيه يُخفى؛ إذ كلّ شيء على البلاطة.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على

[59] الحاقة: 12.

رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود وسط الازدحام.

ولهذا فالوعي ليس دائمًا مولود تعليمٍ، فمن المتعلّمين مَنْ لا ثقافة لهم ولا وعي ولا دراية، وفي المقابل من الأميين ما لهم من الحكمة والمعرفة ما لهم، ومع أنَّ كيفيَّة البحث والتقصي عن الحقيقة في المدارس والجامعات منهجيًّا تُعلّم، فإنَّ الحقيقة عبر التَّاريخ تروى وتسمعها أذنٌ واعية.

ومع أنَّ الأذن الواعية تسمع فتتعظ وتتدبّر، فإنَّ الأذن غير الواعية وإن سمعت فإنَّها لا تتعظ ولا تتدبّر؛ ولهذا جاء قوله تعالى {وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، ففي هذه الآية الكريمة جاء الوعي مرتبطًا بالسّمع ولم يأتِ مرتبطًا بالأذن السَّامعة؛ إذ جاء ارتباط الأمر بالسّمع وليس بالأذن؛ ذلك لأنَّ الوعي مقدرة على التمييز بين ما يجب وما لا يجب أخذًا وانتهاءً.

ومع أنَّ الأذن في دائرة الممكن تسمع ما يقال أو تستمع إليه، فإنَّ الأذن الواعية لا تأخذ بكل ما تسمعه، فهي وإن سمعت قادرة على الغربلة والتفحّص والتمييز؛ ولذا فبمعرفة الحقيقة يستوي وعي الأمّي مع وعي من تعلَّم وتثقّف ودرى؛ ومَن غفل منهم بأيّ علّة فقد استوى في غفلةٍ مع غيره؛ ومن هنا فالعقل قيد أمّيّة ودراية.

والدَّاري: مصدر الدِّراية؛ إذ لا شيء يُدرى به إلَّا من عنده.

والمدري: الذي ألم بالدِّراية.

والمدرى: الذي تمت درايته من الدَّاري.

والمدرى به: النبأ أو الرِّسالة أو العلم أو الحكمة أو الأمر (أيُّ أمر).

ومن ثمَّ يكون مفهوم درى: بمعنى المَّ، ومفهوم يدري: مُلم، أمَّا مفهوم الدّراية، فهي: الالمام بالشيء وما يتعلَّق به من أمرٍ؛ قال تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}[60]، والنُّور هنا ليس نور قمر أو نور زيت أو شيء من ذلك، بل النُّور هنا هو محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أمَّا الكتاب المبين فهو القرآن.

ولأنَّ محمَّدًا نورٌ من الله؛ فإنَّه لا هداية خاتمة ألَّا به وبنوره والكتاب المبين، ولهذا فنور محمَّد: يسري في العقل نورًا، وفي القلب نورًا، وفي النَّفس نورًا، وفي الروح نورًا؛ ذلك لأنَّ نور محمَّد مستمدّ من نور الله: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[61].

ولأنَّه لا نور إلَّا من الله؛ إذن فمن يستمدّ نوره من الله فنوره لا يطفئ: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}[62] ، ومع أنَّ بعض الأضواء بالأفواه نفخًا تطفئ فإنَّ النُّور لا تطفأه الأفواه وإن نفخت؛ ومع ذلك فإنَّ المقصود بالنوّر في هذه الآية الكريمة هو نور الحقّ المبين، أي: يريدون أن يبطلوا قول الله وهو الحق الباقي الذي لا يمكن للباطل أن يبطله؛ ولذا فمن يستنير صدره بالحق المنزَّل فلا يكون على الاستنارة إلَّا

[60] المائدة 15.

[61] النور 35.

[62] التوبة 32.

وصدره مشروح بالإسلام: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[63].

ومن ثمَّ نقول: إنَّ الاستظلام حيرة عقليّة ترهق عقول المفكرين حتى تقتنص عقولهم حلًّا يخرجهم من التأزُّمات، التي من بعدها سيرون الحقيقة ماثلة أمامهم وعيًا واستنارة.

ومع أنَّ الاستظلام حيرةُ عقل، وعدم وضوح رؤية؛ فإنَّ الاستظلام ليس بتظلُّمٍ؛ ذلك لأنَّ التظُّلم اشتكاء بغاية طلب الإنصاف وسيادة العدالة، وفي المقابل الاستظلام التماس عذرٍ في زمن انعدام المعرفة الوافية.

إذن: الاستنارة بالشّيء استدلال به واسترشاد، وفي المقابل الدِّراية إلمام تام بما يجب أن يكون ظاهرًا للمشاهدة أو مختبئًا للملاحظة؛ ولهذا فالدّراية حُجَّة بيّنة (يقين)، أمَّا الاستنارة تبيُّن بالبيّنة (عن يقين).

وعليه فمفهوم الدِّراية يدلُّ على الإلمام التام ولا شيء مجهول، وفي المقابل مفهوم العلم يدل على المعرفة النسبيَّة، أمَّا الاستنارة فهي نتاج النسيج علمًا ودرايةً؛ ولهذا فمعارف المستنير وعلمة أوسع من معارف المتعلّم وعلمه؛ ومن هنا فالمستنير هو من المَّ بعلم الدِّراية حتى تغيَّرت أحواله وفقًا لما هو متوقّع وغير متوقّع؛ ذلك لأنَّه أصبح يدري بكلّ ما ألمَّ به، أمَّا المتعلّم فمهما تعلّم فلن يدري إلَّا تخصُّصًا في دائرة المتوقّع؛ أي إنَّ العلم والتعليم لا يخرج عن دائرة المقررات المنهجيَّة، أمَّا الدِّراية فلا تقف عند حدّ

[63] الزمر 22.

العلوم الممنهجة، بل تتجاوزه إلى كل ما من شأنه أن ينير العقول والأنفس؛ ومن هنا أيضًا فإنَّ المدري على مقدرة لإنارة عقول الغير كما هو حال الأنبياء الكرام الذين دروا وأدروا.

إذن: العلم سيكون معرّضًا إلى النسيان والتبدّل، أمَّا الدّراية فلا نسيان؛ وذلك أنَّ العلم يلامس العقل، أمَّا الدِّراية فتلامس العقل والفكر معًا؛ ولهذا متى ما تمكّن الإنسان من الدِّراية تغيّرت نفسه وتغيَّرت أحواله، وفي المقابل المتعلّم يمكن أن تتغيَّر أحوله ولكنَّ نفسه قد لا تتغيَّر.

ولمزيدٍ من التوضيح أقول:

ـ العلم لا يزيد عن كونه ملاحقة بين معلومٍ حاضر ومعلومٍ مفترض، أمَّا الدِّراية فتلاحق المعلوم والمجهول بالمرتقب يقينًا؛ أي في الوقت الذي يلاحق العلم فيه الجهل ليحل محلّه، تلاحق الدِّراية فيه الأميَّة لتحل محلّها.

ولذا فالمستنيرين متى ما كشفوا حقيقة حُكَّامه على المفاسد، ثاروا على زمنهم بلا رأفة، وطووا صفحاتهم وعيًا واستنارة، ومع أنَّ الثقافة استنارة عقلٍ، فإنَّها أمام العقل قيدٌ على ما ينبغي اختياره والإقدام عليه، وما لا ينبغي اختياره والإحجام عنه؛ ومن هنا فعندما تغيب الدّراية يصبح زمن الانتظار معطية من معطيات الأميَّة التي لا تملَّ من الانتظار وإن طال زمنه، ولهذا فالزّمن قادرٌ على قيد الأميّة وتجاوزها وعيًا، أمَّا الأميَّة فلا إمكانيّة لها بذلك؛ ذلك لأنَّ أهل الأميّة غير قادرين على إحداث النُّقلة وصُنع المستقبل أملًا ومأمولًا.

والوعي لا يقتصر على المتعلّمين والمثقّفين، بل الأميون لهم من الفطنة ما لهم؛ ذلك لأنَّ الوعي والفطنة لا يقتصران على من تَعلّم، فمع أنَّ المتعلمين تحصَّلوا على رخص قيادة (شهادات ومؤهلات جامعيّة وعليا) فإنَّ بعضهم لا يستطع أن يقود ما رُخِّص له قيادة وسط الازدحام.

ولذا فالعقلُ دراية هو تلك الحيويّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشيء بعد أن كان لا شيء وكان مجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تُخفي من ورائها سرًّا.

والعقل دراية ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة وثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من دخول دائرة المعجز؛ ومن هنا فالأنبياء والذين يلمُّون بالمنزّل ويؤمنون به هم أصحاب العقول الدَّارية.

ومع أنَّ الدِّراية عمليَّة عقليَّة فإنَّ مَن تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية لا تُعلّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فذلك النبي الأمي محمَّد -عليه الصَّلاة والسَّلام- بعد أن أعلمه الله بالمعجزات أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمّدًا نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أُنبأ به إنباءً.

ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشّيء لن يكون له من الشّيء شيئًا به يدري؛ ولهذا فلا علاقة بين الأمّيّ وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلُّم، أو بين التيه والمعرفة، أمَّا الأميّة فليس لها علاقة إلّا بعدم الدِّراية؛ ولذلك فالنَّبيُّ الأميّ هو الذي أُنبأَ بما لا يدري حتى

أصبح نبيًّا يدري، وهذه معجزة وقد وُهبت لمحمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام.

وعليه: إنَّ الأميّة حالة غير دائمة وهي قابلة للمحو من عقول الجميع في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، فمن يكن أميًّا يمكن أن يصبح في دائرة الممكنِ عالـمًا فلا استغراب؛ وإذا كان بالعلم تستنير العقول وتطمئن الأنفس والقلوب، إذن: فما بالك باستنارة النّبأ اليقين الذي نسخ أميَّة محمَّد بعد أن أمره الله بقوله: (اقرأ) فقرأ باسم الله ما لم يكن يقرأ ويعلم؟!

ومن هنا: فالإنسان الذي يعرف ليس بالضرورة أنَّه يدري، فعلى سبيل المثال: الأميون مع أنَّهم يعرفون ما يعرفونه من شئون وأمور فإنَّهم لا يدرون بقوانينها، ولا يدرون بالأسرار التي تختفي وراءها، وهكذا العلم لا يكون إلَّا في مواجهة الجهل مما يجعل المتعلّمين يعلمون ما يعلمونه ولكنَّهم مهما علموا فهم لا يبلغون علم الدّراية الذي وحده يُمكِّن من معرفة الحكمة وما تخفي مِن ورائها مِن سرٍّ.

ولذا فالنّبي محمَّد قبل الرّسالة لا دراية له بها (أمّي)، ومِن بعدها أصبح يدري (نبيّ)؛ ومن ثمَّ فمفهوم الدّراية يدلُّ على: (الإلمام بعلم اليقين؛ حيث لا شيء يخفى، ولهذا فالأميّة قيدٌ وهي أعظم أثرًا من الجهل.

وعليه: فإنَّ علم الدّراية لا يأتي إلَّا من خارج العقل؛ ومن ثمَّ لا يمكن أن يكون من بناة أفكاره، فعلى سبيل المثال: أمر الوحي الموحى لا يأتي إلَّا من خارج العقل (من السّماء إلى الأرض)؛ ولأنَّه يأتي من خارج العقل إليه من

السَّماء فلا أحد يعلم أو يعرف أو يدري شيئًا من ذلك؛ ولهذا فالكل أميٌّ بأمر السّماء، وما محمَّد إلَّا واحدٌ من الأميّين بأمرها إلى أن أعلمه الله، وأنبأه بالأمر: (كن)، فكان محمَّدُ قارئًا بالأمر: (اقرأ) فقرأ.

ولأنَّ محمَّدًا لم يعد أميًّا بأسباب امتلاكه الدِّراية بعد أن قرأ دون سابق قراءة، فيجوز له حقّ النهي عن المنكر وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}؛ ولذا عندما كان محمَّدُ أميًّا لم يُعط له هذا الحقّ، أو هذا التفويض، أو هذه الصلاحيَّات كما تسمى لدى البعض تحت مظلة لغة العصر، وإلا هل يُقبل أن يكون أمر التصرّف بأمر الطَّاعة بيد من لا يعلم الأمر ومعجزاته؟ وهل يُقبل التحليل والتحريم والنّهي ممن لا يعلم بما يأمر أو ينهى أو يُحَلِّل أو يُحرِّمُ؟

هنا أقول: بالطّبع، لا.

فمحمَّد -صلّى الله عليه وسلّم- بعد أن قرأ بأمرٍ من الله -تعالى- فهو القارئ وليس الأميّ، أي: إنَّ محمَّدًا قد كسر قيد الأميَّة؛ ولهذا لم يعد حاله كما كان قبل الرِّسالة، وعليه: الكلام أو التحدّث عن محمَّد قبل الرِّسالة كلامٌ أو حديثٌ عن أميّ، والكلام أو التحدث عن محمَّد بعد الرِّسالة -صلى الله عليه وسلم- حديث أو كلام عن رسول يعلم؛ ولذلك علينا أن نُفرِّق بين الحديثين والشّخصيّتين (شخصيّة محمَّد الأميّ، وشخصيّة محمَّد الرَّسول النبي الذي أصبح يَعلم) وإلّا هل يُقبل أن يوصف النبي الكريم

بالأميّ، ويوصف الذين آمنوا وتعلموا على يديه بالعلماء والحكماء؟!!

وكيف يُقبل أن يكون محمَّدُ هو صاحب الرِّسالة الخاتمة للنّاس كافَّة ويقبل أن يوصف بالأميّ؟

وكيف لا نكتشف التناقض في الأمرين:

الأمر الأوَّل: أمرُ محمَّد الأميّ.

الأمر الثَّاني: أمر الذين تعلموا مما علّمهم به حتى أصبحوا علماء وحكماء؟

وعليه: هل يقبل أن يكون للرّسالة مرجعيّة ورسولها أميّ؟

ولأنَّ محمَّدًا -عليه الصَّلاة والسَّلام- رسول للنَّاس كافَّة؛ مصداقًا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأمي الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[64] أي: إنَّ محمَّدًا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يكن رسولًا خاصًّا بالعرب، بل هو الرَّسُول الخاتم وللكافَّة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافَّة لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لَا يَعْلَمُونَ}[65].

إذن: كيف يُقبل أن يكون رسول الكافَّة أميًّا والنَّاس على يديه علماء وحكماء ويعلمون؟!

64 الأعراف: 158.

65 سبأ: 28.

أقول: رسول الكافَّة ليس بأميّ، بل هو بما أُعلِمَ عَلَّم وبشَّر وأنذر وحرَّض وحلل وحرّم وأمر ونهى، وهو قبل الرِّسالة محمَّد الأميّ، وبعدها محمَّد رسول ونبي؛ ولذا فالفرق كبير بين محمَّد الأميّ الذي لا صلاة ولا تسليم عليه في زمنها، ومحمَّد الرَّسول النبي الذي يصلّي الله وملائكته عليه، ومن بعده يصلي عليه ويسلم المؤمنون الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين؛ قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}[66]. الأميّون في هذه الآية الكريمة لا تعني الذين لا يقرءون ولا يكتبون، بل تدلُّ على أنَّ الأميّة هي: (في دائرة النسبيَّة)، وإلَّا هل هناك من يصدّق أنَّ العرب جميعهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون وكأنّهم قوم جهالة بالمطلق؟ هذا القول لا يستقيم إلّا بعدم علمهم بالقرآن قبل نزوله على رسولهم الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا مع أنَّهم حقًّا أميّون إلّا أنَّ البعض منهم يقرؤون ويكتبون؛ ولذا فهم بالنسبة إلى الدين الجديد جميعهم أميّون، وأنَّ أوَّل من أُعلِمَ دراية هو رسولهم النبي محمَّد صلوات الله وسلامه عليه، الذي كان أميًّا قبل نزول القرآن، ولأنَّه أوَّل من أُعلم كان مكلّفًا بتلاوة القرآن عليهم وبتزكيتهم، وبتعليمهم الكتاب والحكمة بوصفهم كانوا أميّين بما أُنزل؛ ولأنَّه كذلك فكيف يحقّ لنا أن نصفه أميًّا؟

وعليه: فإنَّ الكلمة التي بها كُسِرَ وهمُ الأميّة (اقرأ) لا يمكن أن يكون صاحبها من بعدها أميًّا.

ولتوضيح الفارق في المفاهيم أقول:

66 الجمعة: 2.

إنَّ الجهل لا يعني عدم المعرفة، بل يعني أن جزءًا كبيرًا من المعرفة غائبٌ؛ فالذي يعلم بمحمَّدٍ رسولًا، ولا يعلم عن رسالته إلَّا قولًا مسموعًا يعد جاهلًا، وليس بأميّ؛ ذلك لأنَّ الجاهل هو من تحوطه العلوم والمعارف والأنباء ولا يسعى إلى معرفتها.

أمَّا أهل الأميَّة كونهم لا يدرون بوجود ما يحوطهم فلا ينتبهون إليه ولا يسعون إلى معرفته؛ ولذا فهم على أميَّتهم لا يدرون؛ ومن ثَمَّ فهم أميّون بما يحوطهم وكذلك بما لم يولد بعد أو يخلق، ومن هنا نحن نجهل أمر ما خُلق ما دمنا لم نتعرَّف عليه بعد، وبعضنا جاهلٌ بما يعلمه البعض وسيظل الجاهلُ جاهلًا حتى يعلم ما عَلِمهُ غيره.

وهنا فالجهل لا يعني غياب المعلومة، بل يعني عدم البحث عنها والسّعي إليها، أمَّا الأميَّة فلا وجود للمعلومة على الأرض حتى نسعى إليها بحثًا واستنارة.

ومع أنَّ الاستنارة تفتح آفاقًا واسعة أمام المدركات العقليّة وعيًا ومعرفةً واستقامةً، فإنَّها تضع قيودًا على السُلوكيَّات والأفعال التي كانت مِن قَبلها تُفعل وتُسلك بكل حريّة وإرادة.

ولأنَّ الأميّ تحوطه الأميَّة من كلِّ جانب فلا يرى شيئًا سواها، ومَن تحوطه الاستنارةً قيدًا فلا يرى الأيَّام والأعوام من بعدها إلَّا استقامة.

ومع أنَّ العقل الأميّ لا يُمكِنه أنْ يَرى ما يراه عقل المستنيرِ؛ فإنَّه في غيبوبة الأميَّة لا يُسأل عمَّا لا يدري كما يُسأل من يدري في صحوة واستنارة؛ ذلك لأنَّ الإنسان

المستنير عقله متقصٍ ومتفحّص للمعلومة بالمعلومة؛ ومن ثمَّ يستطيع أن يكتشف سرًّا كان يجهله، ثمَّ يستطيع أن يصحح ويقوّم المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصَّحيحة والصَّائبة.

وعليه: فإنَّ العقل المستنير قادرٌ على التبيّن والتمكُّن من المعرفة الواعية التي تجعله قادرًا على معرفة الحقيقة، التي من بعد معرفتها يتقيّد استنارة بما يجب أخذه أمرًا ونهيًا.

ومن ثمَّ علينا أن نميِّز بين العقل الأمّي الذي قيّدته الأميّة عن غير دراية، والعقل المستنير الذي قيدته المعرفة وعيًا ودراية؛ فالعقل الأوَّل تقيّده حياة الفطرة أميَّة وشهوة، والعقل الثّاني تقيّده حياة المعارف (حيطة وحذرًا).

ولأنَّ الاستنارة قيدٌ، فإنَّ المستنيرين كما يتجنَّبون ما يؤلم أنفسهم يتجنبون ما يؤلم الغير؛ وبهذا فهم يميّزون بين ما يجب الأقدام عليه أو أخذه وما يجب تجنّبه والابتعاد عنه، وهم أيضًا بقراءتهم لعلوم المستقبل المتوقّع يرسمون السِّياسات والخطط، ويعملون على إنجازها مع إصرارهم على إزالة ما يعيق سبيلهم من قيود تجاه الغايات المرجوة والمأمول نيلها.

ولأنَّ الاستنارة صحوةُ بصيرةٍ فهي لا تُبلغ إلَّا من بعد أنْ يُكسر قيد الأميّة درايةً، ومع أنَّ المستنير هو من كشف قيود الأميَّة وعمل على كسرها، فإنَّه بذات الاستنارة يُقيَّد؛ ذلك لأنَّ المستنير هو مَن بلغ مراتب المعرفة قمّة وبها تمكّن من قول: (نعم) لما يجب أن يقال له، وقول: (لا) لما ينبغي أن يقال له، وهذه لا تقال إلَّا عن مسئوليَّة؛ ولهذا فالمسئوليّة

قيد على مَنْ حملها وتحمّل ما يترتّب عليها من أعباء جِسام؛ ذلك لأنَّ أقوال الإنسان المستنير وأفعاله وسلوكيَّاته يفترض أن تكون للغير مثالًا وقدوة؛ ولهذا فإنَّ أخلاق المستنير قيدٌ عليه أمام نفسه والغير.

ومع أنَّ العقلَ حيويَّةٌ إدراكيَّة تُمكّن من المعرفة والتمييز الممكّن من الاختيار إرادةً، فإنَّه قيدًا ضابطًا للفكر والسُّلوك وفقًا للمعايير الأخلاقيَّة والقيميَّة وما تسنّه الأعراف والأديان والدّساتير والقوانين المنبثقة منها.

ولتلك الحيويَّة مستويات بشريَّة وإنسانيَّة؛ فهي على المستوى البشري لا تزيد عن كونها فطريَّة، أمَّا على المستوى الإنساني فتمتد إلى أن تصبح في دائرة الاكتساب أخلاقيَّة.

وعلى المستوى البشري خُلق الإنسان في أحسن تقويم، وعلى المستوى الإنساني كانت القيم عند البعض قمّة، وفي المقابل كانت عند البعض قاعًا.

وبين هذا وذاك كان الاختلاف على المستوى البشري تنوّعًا مغريًا للاختيار وفقًا للرَّأي والرّؤية والرّغبة، وفي المقابل كان الخلاف بين البعض صدامًا واقتتالًا وأفعالًا مُرعبة؛ ولهذا أصبح العقل في حيرةٍ من أمره: هل يطلق العنان لجموحه البشري، أم يمسك لجامه إنسانيّةً.

ومن هنا تصدّرت ملكة التفكير ذلك المشهد، ومع أنَّها المتصدِّرة لذلك المشهد العقلي حيويّةً، فإنَّها تترك للنفس ما في غاياتها؛ تقديرًا للرّغبة والذّوق، فتجعلها بين خيارات متعدّدة لتختار ما تشاء، ووفقًا لاختياراتها تتحمّل المسئوليَّة وما يترتّب عليها من أعباء جسام (ثوابًا وعقابًا).

ومع أنَّ العقل ملكة التفكير للنّفسِ، فإنَّه لا يلزمها بما لا تشتهي، أو ما لا تحب ولا ترغب؛ فالعقل بلا إكراه مصدر الخيارات سالبها وموجبها، والنّفس بين هذا وذاك تختار؛ ومن هنا فاختيارات النَّفس ورغباتها تتنوّع، وصفاتها تمتدُّ لينة وشدّةً.

ولأنَّ النَّفس مليئة بالأمزجة والشَّهوات، فإنَّ أنا النّفس في كثير من الأحيان يتحفّز ظهورًا على حساب الغير؛ ومن هنا في ساعة ولادة أقوال الإكراه وأفعاله يتواجه الإكراه والقمعِ مع الرّفض والثورة.

ومع أنَّ النَّفس هي التي يتمّ قيدها، فإنَّها ذات أثرٍ على العقل، فهي عندما تقيّد إرادتها تلتجئ إلى العقل ليجدَ لها مخرجًا؛ فإنْ خَلُصَ معها أعطاها خيارات متعدّدة تمكّنها من فكّ القيد أو كسره، وإن لم يَخلُص معها فقد يزيدُها على قيدها قيدًا.

ومع أنَّ رغبات النَّفس وشهواتها كثيرة، فإنَّ خَلقها البشريّ فطرة لا يمنحها رغبةً في القيودِ، وفي المقابل أنَّ خُلقها الإنسانيّ لا يعطها حريَّةً إلَّا والقيود خيارات من خياراتها.

ولذا فإنِ اطمأنت النّفس لشيء أخذت به، وإنْ لم تطمئن إليه اجتنبته وعنه ابتعدت؛ ومع ذلك لن تأخذ به أو تبتعد عنه إلَّا وخيارات العقل أمامها؛ ولهذا فإن أخذت بما أجازه العقل لها كانت اختياراتها صائبة، وفي المقابل إن اختارت ما لم يُقرّه العقل لها فقد هربت من قيوده إرادة، مع العلم أنَّ إرادتها هذه قد تكون مخالفة لتلك القيود

(القيم، والأعراف، والأديان، أو ما يستمدّ منها بغاية ضبط العلاقات والسُّلوك الإنساني).

وعليه: بما أنَّ النَّفس الإنسانيَّة بين حريَّة بلا ضوابط إنسانيَّة وضوابط العقل الإنساني وقيوده، فإنَّها لا تكون إرادة إلَّا بين قيدٍ وانفلاتٍ.

ولأنَّ القيد ضدّ الانفلات، إذن: ليس دائمًا القيد بلا محاسن، أي: إذا لم تقيّد نفسك إنسانيًّا (قيمًا ودينًا وعرفًا) فلا تستغرب إن تعرّضت لقيدٍ وأنت مُكرهًا، أي: لا تستغرب إنْ زُجَّ بك في السّجون مذنبًا في حقّ نفسك التي لم تحترم وتقدّر ما يحترمه ويقدّره العقل الإنساني خُلقًا.

ومن هنا أقول: لو لم تكن الفكرة قيدًا ما كانت الأيدي صانعة لحلقاتها؛ فالإنسان عندما لا يستطيع ضبط نفسه عن إرادة يجد نفسه يفكّر والحيرة تملؤه حتى يجد قيدًا لضبطه، وبعد أن يُقيّد بما أوجده من قيد، يبدأ في البحث عن كيفيّة فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حيلٍ.

ولذا فمن يريد أن يكون إنسانًا في أحسن تقويم فعليه أن يتمسّك بعقله الذي به يتميّز عن غيره، وإذا أراد الحرّيَّة فعليه أن يقبل التنازل عن عقله؛ كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنَّه نهاية سيعرف أنَّ للحرّية ثمنًا، وهكذا إذا أراد الاثنين معًا؛ فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار.

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا الوهم والموهوم به، ولا المحلّل والمحرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قفْ

وسرْ)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ فإنْ لم يقيّد الإنسان نفسه أخلاقًا إنسانيّة، سيجد نفسه مقيّدًا من قِبل الغير بفكرة القيد التي أنتجها عقله.

ومع أنَّ السّجن هو السّجن قيد؛ فإنَّ الإنسان إن فكَّر في نفسه عقلًا وقيدًا؛ أصبح على الأقل يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرهًا؛ فهل يُمكن له أن يكون على شيءٍ من الإرادةِ؟

وإذا سلّمنا أنَّ العقل هو الذي يقيّد نفسه، ألا نسلّم بأنّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟

لا شكّ أنَّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده وكسر الوهم، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير وهمًا؛ ولكن إن تمدّد وهمًا؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا.

ولذا فبالثَّقافة رفعة تفكّ القيود، وبها توضع قيودًا: (تُفك من قيد الجهل المعرفي وتوضع به)؛ ومن ثمَّ فالمارقون الذين تمكّنوا من الاستيلاء على مقاليد السُّلطة في بلدانهم حكموا النَّاس قيدًا، كما كان حال فرعون الذي قال كما جاء في القرآن الكريم: {مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}[67]، فهؤلاء لا يرون شيئًا يعلو على رؤاهم، ومن يخالف رؤاهم ضلّ، ومن يضلّ عن رؤاهم المخالفة للحقّ تواجهه المكائد، والدّسائس وصولًا إلى إقصائه بعد أن يلبّس بكمٍّ من التّهم التي تلفّق له قيدًا؛ ليُدانَ بتلك القوانين التي سنّت من أجل الطّاعة للظلمة،

[67] غافر 29.

ولكن لأنَّ هذه الأفعال مضادة لنواميس الحياة وسُننها الطبيعيَّة، ترفضها الإرادة الإنسانيَّة كلّما كسرت القيد الذي يكبّلها ويحول بينها وبين ممارسة الحريّة؛ ولذا عندما يبلغ الإنسان الصّحوة لا بدَّ له أن يرفض بقوّة الإرادة كلّ أسباب القيود وعللها، كما يرفض مَنْ قيّد النَّاس بها، ومَن أمر بوضع القيد في الأيدي، والطوق في الأعناق.

فتلك هي النّفس التي تطمئن حينًا وتأمر بالسّوءِ حينًا، أي: إنَّها إذا رشدت مع العقل اطمأنت، وإذا وهمت مع نفسها ساءت؛ ومن ثمَّ وجب كسر الوهم بقيد العقل رُشدًا.

ومع أنَّ القيد بمفاهيم العموم سالبًا، فإنَّه بالمفاهيم الموضوعيَّة ملئ بالموجبات وخير مثال: تلك المعجزات التي أنزلت على الأنبياء بغاية كسر قيد الوهم الذي كبّل عقول النَّاس وجعلهم يتخذون من دون الله آلهةً وأربابًا.

ومِن أعظم الأوامر التي أنزلت قيدًا على النّبي محمَّد - عليه الصَّلاة والسَّلام-هي فعل الأمر (قُل)، وهو فعل الأمر الملزم الأخذ به والتقيُّد؛ حيث لا اجتهاد من بعد (قُل)؛ ومن ثمّ فإنَّ (قُل) قد قنَّنت كلّ ما قِيل من بعدها، ولم تتركه فضفاضًا للتناقض وسوء التفسير وأوهام البشر؛ فهي من أهم الكلمات التي نقلت المبلّغ به إلى المبلّغ إليه دون أن تترك له رأيًا فيما أمرت به وقيَّدته.

ومن هنا فإنَّ الإرادة أمام الأمر المطلق أو الأمر كرهًا لن تُعد مطلوقة العنان، فهي بقدر ما يقيّدها الدين فإنَّ الدِّين يفتح أمامها آفاقًا واسعة، وكذلك بقدر ما تقيّدها القيم تسمح لها بالامتداد، وهكذا الدّساتير والقوانين تقيد حركة امتداها، وقد تقوّض المقدِمينَ عليها وتقودهم قيدًا إلى

داخل الجدران وأقفاص الحديد؛ ومع ذلك لا تجعل الخوف قيدًا عليك، بل اجعله قيدًا بين يديك تقوض به أيدي من يريد أن يقوِّض إرادتك ويشكل عليك خطرًا.

ومع أنَّ الدَّساتير الوطنيَّة لا تكون إلَّا باختيارات الشُّعوب إرادة، فإنَّها لا تزيد عن كونها قيدًا ديمقراطيًّا؛ ومن هنا فالإنسان إذا أراد ارتقاء؛ فعليه أن يستوضح نفسه مثلما يحاول استيضاح أنفس الغير؛ حتى يتمكّن من إزاحة النقاط المظلمة فيها، وأن يتنزّه في نفسه حتى يستبصر من هو؟ وما له؟ وما عليه؟ ثمّ يعمل على التصحيح، ويتحدّى عقله تفكيرًا في نفسه؛ حتى يدرك أسرارها وخفاياها؛ ومن ثمّ يعرف أنَّ قوّة البصيرة بقوّة التفكير فيها، وهي لا تضعف إلّا إذا دخلتها الغفلة وسيّرتها الشّهوة وكبَّلتها القيود؛ ولهذا فالفكر ارتقاء يُمكّن الآخذين به من التفكير فيما يفكّرون فيه، حتى يفكّروا فيما هو أحسن منه.

والفكرة سواء أكانت استنارة أم قيدًا لا تكون إلّا من إعمال العقل، الذي بإمكانه أن يستمدّ الشيء المجرّد من الشّيء المشاهد أو الملاحظ، كما هو استمداد القوانين من المعطيات الكونيَّة والطّبيعيَّة، ولأنَّ الفكرة مولود العقل؛ فهي متى ما وُلدت فيه وَلَّدَتْ منه رؤية لشيء قابل للتحقّق بين أيدي النّاس، وهي لا تكون كذلك إلّا بتلاقح الآراء (سالبها وموجبها)، وكلّما كثرت المستفزّات الخَلقيّة والخُلقيّة أثارت العقل انتباهًا لما يجب؛ فتدفعه حيويّة الحيرة تجاه التخلّص من العَتَمة التي تَحول بين الغرض وتحقيقه.

ومع أنَّ الفكرة تخلّص من الحيرة، فإنَّها لا تكون ارتقاء إلّا من بعدها، فالحيرة بالنّسبة إلى الفكرة تعدّ مخاض ولادة، وولادة الفكرة من دون حيرة تسبقها: هي ولادة قسريَّة؛ فلا يمكن أن يتطابق الزّمن الافتراضي لولادتها مع زمن قسريّتها، فتولد مشوّهة؛ ومن ثمَّ ستكون الحلول أو المعالجات أو الإصلاحات المترتّبة عليها منقوصة، أو منحرفة تجاه المخالف لتحقيق الأغراض ارتقاء.

ومع أنَّ هذا الأمر يعدُّ سالبًا بالنّسبة إلى الفكرة ارتقاءً، فإنَّه الأمر المحيّر والمستفزّ لعقول الآخرين إيجابًا، ممّا يحفّزهم ويدفعهم إلى الالتفات تجاه المحيّر، حتى تلد الحيرة فكرة، تُخرج من التأزّم وتكسر القيد.

ومع أنَّ زمن الحيرة الفكرية مُقلق لمن ألمت به وألمّ بها، فإنَّه المخاض الذي ينذر بولادة ما يسرّ العقل والنّفس؛ ولذلك فالبحوث العلميَّة ارتقاءً تسبقها الحيرة المؤدّية إلى ولادة الأغراض المحفّزةِ على حيرة جديدة، من بعدها حيرات تُمكّن من تحقيق غايات هي الأخرى تمكّن من كسر القيد؛ ومن ثمَّ إحداث النُّقلة ونيل المأمول.

ولهذا فلا داعي للقلق من الحيرة؛ فقلق الحيرة يُمكّن من الإلمام بالمحيّر حتى يقتنص له حلًّا، ومن لا حيرة تستفزّه؛ فعليه أن يفكّر في الشّيء استحالةً أو إعجازًا أو ممكنًا؛ حتى يقتنص حيرة بها يقتنص فكرة، تلد له حلًّا يمكّنه من تغيير أحواله رفعة، أو أن يضيف له جديدًا، أو على الأقل يتمكّن مِن كسر قيدٍ من بعده ينهض.

وعليه فالعقل بقدر ما هو الطّليق (خَلقًا فطريًّا)، فإنَّه المقيد خُلقًا مكتسبة، ففي خَلقه الفطري يجسّد الحياة

الأميَّة (حياة الفطرة البشريَّة)، وفي خُلقه المكتسبة يجسِّد حياته الإنسانيَّة قيدًا (إنَّه العقلُ الطليقُ قيدًا).

والعقل مع أنَّه الطّليق اختيارًا فهو المقيّد تسييرًا؛ أي: مع أنَّه المخيّر في مشيئة خَلقه، فإنَّه المسيّر في مشيئة خَالقه.

ويعدّ العقل قيدٍ؛ لأن كَّل القيود التي تلمّ به وتطوِّق حريّته لا تكون إلَّا وليدة أفكاره، أمَّا الأديان مع أنَّها جاءت مخففة لآلامه ومواجعه من تلك القيود التي طوّق بها نفسه، فإنَّها لا تخلو من قيودٍ في دوائر التحليل والتحريم والثواب والعقاب.

وأوَّل القيود التي فكّر العقل البشري فيها أنْ يتّخذ له معبودًا ويتقرَّب إليه زلفى، معبودًا يُصنع من طينة ليست من صنع يدي الصَّانع، أي: معبودٌ لا شأن له حتى نستطيع أن نقول عنه: إنَّه أفضل شأنًا من شأن صانعه إلهًا.

ومن هنا نقول: إنَّ الخَالِقَ الذي يجب أن يعبد لا يكون إلَّا أعظم من المخلوقِ؛ ولأنَّ الخالق أعظم من المخلوق فيكف لخالقِ مصنوعٍ أن يتخذ له إلهًا من صنع يديه ولم يتخذ له معبودًا كان من وراء خَلقه ووراء يداه اللتان صَنعَ بها معبودًا من دون خالقه؟

إذن: العقل وفقًا لامتلاكه حيّز التخيير وفسحته قد حاد عن حياة الفطرة (الحياة الأميَّة) وذلك بتعظيمه من هو أقل شأنًا منه وفقًا لقاعدة: كل مخلوق من ورائه خالق، والمخلوق دائمًا أقل شأنًا من شأنِ خالقه.

ولأنَّ العقل قيدٌ على ممارسة الحريَّة فقد ابتدع لنفسه صفة لا علاقة لها بالحياة الأميّة، إنَّها صفة (الدّكتاتور) التي بها قاد غيره، حتى تمكَّن غيره من الانقلاب عليه بأسلوبها قيدًا دكتاتوريًّا.

ومن هناك فالعقل الدّكتاتور إذا حكم الشَّعب يُصبح هو المشرّع، وإذا غاب وكأنَّ القانون غاب؛ والشُّعوب التي ركنت سنينًا تحت عقل الدّكتاتور قيدًا لا ترى نظامًا ضابطًا للعلاقات بينها إلَّا ذلك النظام الذي ربط العلاقة بين الخوف والجبن حتى جعلهما وكأنَّهما التوأم؛ مع العلم أنَّ الخوف موجبٌ كما هو حال الخوف من الله، ومن الظلم، والذنوب، والعيوب، أمَّا الجُبن فسلبي؛ ذلك لأنَّه لا يكون في الميادين واقفًا إلَّا شاهد زورٍ.

ولذا أصبحت الدّكتاتوريَّة لدى البعض مطلبًا يُقيّد عقلًا لا ينضبط إلَّا بها، فالعقل الذي ركن السّنين قهرًا تحت وطأتها فلا يرى قيدًا ضابطًا للعلاقات إلَّا قيدها.

ومع أنَّ العقل الدّكتاتور قادرٌ على توليد الحيويَّة كرهًا، فإنَّه المميت لها عند المستنيرين والمتطلّعين إلى بلوغ الأمل ونيل المأمول حريّة وكرامة وإرادة[68].

السِّيادة تُحدثُ النُّقلة:

لا شكّ أنَّ من يمتلك السِّيادة يستطيع أن يقرّر عن إرادة حرّة، ومن يستطيع أن يقرّر عن إرادة حرّة لا شكّ أنَّه يستطيع أن يصنع مستقبلًا ناهضًا؛ ومع أنَّ المستقبل لا يكون إلَّا في الزّمن الآتي بعد كلِّ قول أو فعل أو عمل، فإنَّ

[68] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، 92 – 116.

صُنعه لا يكون إلَّا في الوقت الآن؛ ولذا فصُنَّاع النُّقلة من الوقت الآن إلى المستقبل يعملون ليلًا نهارًا من أجل تحقيقها عملًا به تتغير الأحوال من مستوياتها الدنيا إلى المستويات المأمولة رفعة.

ومن هنا فصُنع المستقبل تَفكير وتخطيط وعمل مُضني بغاية إحداث النُّقلة إلى الأفضل والأجود مما عليه الإنسان في زمنه الحاضر إلى مستقبلٍ يأمله وهو الأرفع مما هو عليه من أحوال علميَّة وسياسيّة واقتصاديَّة ونفسيَّة وأخلاقيَّة، ولأنَّ نيل التقدير والاعتراف يحقّق النُّقلة النّوعيّة، فهو الممكِّن من تجاوز المستويات القيميّة الثلاثة (الذاتيّة والانسحابيّة والأنانيّة) والامتداد إلى المستوى القيمي التطلّعي والمستوى القيمي الموضوعي، اللذين يعتمد فيهما الإنسان على المنطق والعقل حُجّة في الحوار، وحجّة في استقراء واستنباط الأمور المتعلّقة بالعلائق الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والذوقيّة والثقافيّة، كما يعتمد على التعليم والتعلّم استطلاعًا لإحداث نُقلة عظيمة تغيّر الأحوال إلى أحوال مملوءة منفعة وطمأنينة مع وافر الرّضا.

ولهذا فالقاعدة هي:

ـ العمل على تحقيق النُّقلة.

والاستثناء هو:

ـ البقاء على حالة من التخلّف.

ولذا فالاعتراف بما يُبذل من جهود، يؤدّي إلى تحقيق الطمأنينة النفسيّة والرّضا النفسي ويغرس الثّقة، التي تمدّ الإنسان بالمزيد من العطاء الموجب، وتمدّه بقوّة الالتزام

الأخلاقي الذي يحسّس الآخرين بأهميَة العمل على رد الجميل أو الفضل بما هو أجمل وأفضل منه.

ولأنَّ التقدير قيمة رفيعة وكذلك الاعتراف قيمة رفيعة بين النَّاس الذين يميّزون بين ما يجب وما لا يجب، فإنّ نيل كلّ منهما مبدأ أخلاقي وإنساني، وهنا يقول فرنسيس فوكو ياما: إنَّ الرَّغبة في الاعتراف والتقدير المحركان للتاريخ هما الحلقة المفقودة بين الاقتصاد الليبرالي والسياسة الليبراليّة، وكذلك يؤكد هيجل كيف أنَّ رغبة الإنسان في سبيل نيل الاعتراف والتقدير قد زجت به في فجر التَّاريخ في معركة دمويَة من أجل المنزلة والمكانة الرفيعة.

ولأنّ التقدير والاعتراف يمكّنان من إحداث النُّقلة النوعيّة؛ لذا فإنّ النُّقلة تحقّق التميّز والمكانة الرّفيعة والمنزلة العالية عند من يبادلك الاعتراف، أو ينتظر أن تقدّمه له قيمة؛ فالعبد على سبيل المثال: في الوقت الذي يقبل فيه بالعبوديّة، يأمل أن يكون سيّده راضيًا عنه؛ ولهذا يكدّ ويجدّ ويتحمّل التّعب من أجل شيء مهم جدًا هو نيل التقدير والاعتراف من سيده، بأنَّه عبدٌ مخلصٌ ومطيعٌ ومهذبٌ؛ ولذا فهو لا ينبسط إلا بانبساط سيّده منه، وهكذا حال المتعلّمين الذين يتنافسون على أخذ الصّدارة والفوز بها، تراهم يبذلون الجهود المثمرة (المحقّقة للفوز) من أجل أن ينالوا الاعتراف والتقدير من والديهما، ومن ذوي العلاقة بهم، ومن محيطهم الاجتماعي والإنساني وإلّا لماذا يبدلون المزيد من الجهد، وأيضا هكذا حال من يقول الحقّ، ويعدل إذا حُكّم، وحال من يعمل ويزرع ويصنع ويتصوّف أو يتعبد بموضوعية، أو يدخل المنافسات في المناشط المتعدّدة (الرياضيّة والفنيّة والثقافيّة والعلميّة والجماليّة)

فهؤلاء جميعهم يسعون لنيل الاعتراف والتقدير من الآخرين الذين هم في محيطهم البيئي؛ إذ لا نُقلة بدون اعتراف وتقدير لما يجب ولمن يجب.

أمَّا الذين يعانون من حالات انسحابيّة فأمرهم غير ذلك؛ فهم يحتاجون إلى دراسة حالاتهم وتحديد مستوياتهم القيمّية التي هم عليها، ثمّ إعادتهم لِما يجب، ثمّ بعد ذلك نقلهم إلى ما يُسهم في تحقيق المستقبل الأفضل والأجود الذي يحقّق لهم النُّقلة.

وعليه:

- كن إيجابيًّا لتنل التقدير والاعتراف.
- كن متفهّما لتحدث النُّقلة.
- اعترف بالآخرين يتمّ الاعتراف بك.
- قدّر الآخرين تنل التقدير منهم.
- ثق أنَّ الاعتراف يحقق قيمة التقبُّل.
- ثق أنَّ الجحود مفسدة.
- ثق أنَّ مبادلة قيمة الاعتراف تبادل قيمة التقدير.
- استوعب الغير يستوعبك.
- ثق أنَّك لن تحدث النُّقلة بدون جهود تعاضدك.
- ثق أنَّ الصِّعاب لا تصمد أمام التحدّي نُقلة.
- ثق أنَّ صُنع المستقبل نُقلة لا يكون إلَّا في الوقت الحاضر.

ـ ثق أنَّ الصّبر على تحدي الصّعاب يهزمها، ويحدث النُّقلة.

ـ ثق أنَّك بالاعتراف والتقدير تنال الاحترام وتزال من أمامك المعوقات.

وعليه ينبغي على المسئولين أنْ لا يغفلوا عن:

ـ تفعيل منطق (النّحن) بين أفراد المجتمع وجماعات التعلّم والعمل والجماعات الممارسة للمناشط المتنوّعة، والجماعات الممارسة للسياسة والاقتصاد، والذين يشتركون في رسم الخطط والإستراتيجيّات لمجتمعاتهم أو دولهم أو لوضع رؤية مع الغير.

ـ تمكين أفراد المجتمع من تكوين إحساس عام مشترك، مفاده أنَّهم مفردات أساسيّة في الدّولة، ولهم حقوق يجب أن تمارسها، وواجبات ينبغي أن تؤدّى، ومسئوليَّات ينبغي أن تُحمل؛ حتى يصبح منطق الجميع: (نحن معًا) من أجل إحداث النُّقلة للجميع.

ـ التركيز على القيم الاجتماعيَّة التي تستوعب الأفراد والجماعات دون استثناء، مع تفطين الأفراد بأهميَّة هذه القيم الاستيعابيَّة، وحثهم على احترامها وتقديرها والوقوف عندها والابتعاد عمّا يُبعدهم عنها؛ فهذا الأمر يجعلهم تحت مظلة الاحتضان الاجتماعي الذي يمدّهم بالدّفء والطمأنينة.

ـ حث أفراد المجتمع وجماعاته وفئاته على استيعاب بعضهم لبعض، وتقبُّلهم كما هم يُمكِّن من تكوين علائق قيميَّة ذات أبعاد أخلاقيّة وأبعاد إنسانيّة جليلة.

ـ ضع خطط وبرامج لتحقيق الألفة والمحبّة والموائمة الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بين العاملين والمتعلمين، وبين أفراد الأسر والممارسين للمناشط المتعددة، وبين أصحاب الحضارات وأصحاب الأديان المتعدّدة، وبين أصحاب الحاجات المنقوصة والحاجات المشبعة؛ ذلك لأنَّ الرّب واحد والدّين واحد، والنُّقلة العظيمة لا تكون إلَّا بالجميع ومن أجل الجميع.

ـ دفع الأفراد تجاه الأفعال الاستيعابيَّة التي تُسهم في زيادة قوّتهم قوّة بغاية إحداث النُّقلة رفعة إنسانيَّة.

ـ المواءمة بين مطالب الأفراد وحاجاتهم، ومصادر الإشباع المتاحة في بيئتهم الاجتماعيَّة.

ـ التحريض على ممارسة أساليب الدّيمقراطيّة بما يحقّق المعاملة الحسنة بين الذين تربطهم علائق قيميَّة أو بين الذين تربطهم مصالح ومنافع مؤقّتة.

ـ غرس قيم الشفافيَّة واتباع أساليبها بين المتعلمين والممارسين لحقوقهم والمؤدّين لواجباتهم والحاملين لمسئوليَّاتهم.

ـ تفطين أفراد الأسرة من غفلتهم عن متطلبات المراحل العمريَّة للأبناء وأثر المتغيرات التي تحيطهم في البيئة الاجتماعيَّة أو في القرية الصغيرة؛ حتى يتمّ الاستيعاب الموضعي وتقدير الحاجات المتطوّرة عبر الزّمن، والعمل على إشباعها ونقلهم مما هم عليه إلى ما يجب أن يكونوا عليه نُقلة.

ـ دفع الأفراد للتعامل بأسلوب ديمقراطي مع بعضهم بعض، ومع الآخرين في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر سواء أكان هذا الأمر علائق أسريّة، أم علائق جيرة، أم عمل، أم سياسة داخلية أو خارجية، أم أمر سلم، أم حرب، أو أيّ أمر من أمورهم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة.

ـ تفطين المجتمعات والفئات الاجتماعيَّة إلى أهميَّة الاستيعاب في تبادل المعارف والعلوم والمكاسب التي تنمو بالجهود المشتركة والتعاون والاستيعاب المتبادل.

ـ مشاركة الأفراد والجماعات في كلّ ما يتعلّق بهم من أمر دون إنابة عنهم في أمر من أمورهم التي يقدرون على القيام بها أو أدائها، ولا داعي للأحكام المسبقة التي تقول: (أنّهم لن يكونوا قادرين)؛ ولذا فلا إمكانيَّة لتحقيق النُّقلة ما لم يتمكن الجميع من المشاركة البناءة.

ـ التأكيد على أهميَّة ممارسة الديمقراطيّة بشفافيّة، يزيل الشّكوك التي تظهر بين الحين والحين بين أفراد المجتمع أو جماعته، ويطوي الهوة بينهم إلى أن يجعلهم يدا واحدة في مغالبة الصّعاب وصُنع المستقبل المأمول نُقلة.

ـ التأكيد على أهميَّة الاستيعاب في تنمية رأس المال الاجتماعي وتحقيق الوحدة الوطنيّة رفعة.

ـ ترشيد الأفراد والجماعات على التمسّك بقيمة الاستيعاب؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق مجتمع القوّة الممكن من إحداث التغيير وبلوغ النُّقلة علمًا ومعرفةً ودرايةً.

ـ تفعيل المشاركة والتعاون بما يؤكّد أهميَّة كلّ فرد من أفراد المجتمع بالنسبة للآخر وحاجته إليه.

ـ التخطيط إلى كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى توزيع المسئوليّات حسب الاختصاصات والأدوار والصّلاحيّات قانونًا ودستورًا؛ لأجل تفعيل مبررات الاستيعاب المثمر.

ـ المشاركة في المؤتمرات العلميّة والسياسيّة والاقتصاديّة، للتعرّف على المتغيرات المستحدثة، التي تؤدّي إلى نتائج موجبة في العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، والإفادة منها في وضع البرامج وإعداد الخطط ورسم الإستراتيجيّات التي تحقق النُّقلة ورفعة الشأن للفرد والجماعة والمجتمع، بل وللإنسانية جمعاء مع وافر المحبَّة.

ـ تشجيع أفراد المجتمع على إقامة صداقات خارج حدود الوطن من خلال شبكات المعلومات الدّوليّة؛ تحقيقًا للتواصل مع الآخر واستيعابه بما يحقّق التقارب وتبادل المنافع المشتركة.

ـ ترسيخ لغة ومفهوم (النَّحن)، حتى لا تسري الشخصانيّة والأنانيّة في سلوك وأفعال بني الوطن؛ ذاك لأنَّ كلمتي (أنا) و(أنت) تسمح بمسافة امتداد فراغي لتجذب مشاعر الخوف إليها، ومن ثمَّ فكلّما زاد تمسُّك الأنا بأناته اندفع (الأنت) لإعادة حساباته، وهذه تزيد من الظّنون وتقلل من الثّقة، التي ينبغي أن تسود بين بني الوطن؛ ولهذا وجب سيادة (أنا) الفرد ينبغي أن أسود بكرامتي، وأنا الحريّة ينبغي أن أعم النّاس، وأنا الشفافيَّة ينبغي أن أكون في السّلوك والفعل، وأنا الوطن يجب أن أكون خالصًا لأهلي، وأنا الأبوّة والأمومة والأخوة والأسرة والجيرة التي لا ينبغي أن يُحرم أحد من مشاعري وانتمائي، وأنا دين الله الذي كُرِّمت به الآدميّة، وأنا المنطق الذي يجب أن أسود بينكم حجّة إذا

أردتم التفاهم والتواصل وتبادل الاحترام، وإذا أردتم الاعتراف والتقدير، وأنا النّاس كلّ النّاس الذين لهم حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسئوليَّات تُحمّل، وأنا كلمة حقّ لا بدّ أن أقال، وأنت الباطل لا بد أن تُزال، وأنت العبد يجب أن تتحرّر، وأنت الاستعمار يجب أن ترحل، وأنت القيد يجب أن تُفك بإرادة أو تُكسر بالقوّة، وأنا صاحب السُّلطة ومالك الثروة، وأنت الذي استولى عليهما بغير حقّ؛ فأرحل خير لك من أن ترّحل؛ ولذا فأنت لم تكن أنا فلماذا لا تفهم؟ وفي المقابل نحن معًا نحدث الثُّقلة.

من هنا تتَّضح قيم (النّحن) الاستيعابيّة، التي تُمكِّن الأفراد من الالتقاء على الحُجَّة والتفاهم والاحتكام، لا على التعصّب بلا حُجَّة ولا برهان.

وعليه:

ـ استوعب النَّاس يتم استيعابك.

ـ اعترف بحقوق النَّاس يتمّ الاعتراف بحقوقك.

ـ قدّر النَّاس تنل التقدير منهم.

ـ عامل النَّاس بشفافية تُعامل بها.

ـ عامل النَّاس بمرونة يمدوك بالاحترام.

ـ اعتمد المنطق حُجّة حتى يصبح قاسم مشتركًا.

ـ تفهَّم ظروف النَّاس يتم تفهّم ظروفك.

ـ التفت للنَّاس يلتفتون إليك، وفي المقابل إن أعطيتهم بظهرك فلن تجد إلّا ظهورهم في وجهك.

ولأنَّ التمسّك بالمنطق تمسّكٌ بالقواسم المشتركة. إذن: (التمسّك بالقواسم المشتركة) قاعدة، والتخلّي عنها استثناء.

ومن هنا، ينبغي العمل على تفطين أفراد المجتمع إلى أهميَّة التمسّك بالقواسم المشتركة؛ حتى يتوحّد الجميع على منطق (نحن)، الذي لا يقبل التفرقة والتجزئة والإقصاء والتهميش.

ولهذا من أجل إحداث النُّقلة ينبغي أن تتمركز قواعد المنطق على الآتي:

- الحُجَّة إقناع واقتناع.
- البرهان دليل إثبات موضوعي.
- التقريب القيمي بالقواسم المشتركة.
- الاستيعاب بإعطاء الهامش.
- التوافق تمركز على عناصر القوّة.
- التفرّق تمركز على عناصر الضّعف.
- التقبّل رضا إرادي.
- الاعتراف إقرار بالفضيلة.
- الاعتبار إعطاء مكانة للآخر.
- التقدير معياري النجاح.
- التواصل استمراريّة علائقيّة.
- الشفافيّة وضوح في القول والفعل.

ـ الأخذ بما يجب يمكّن من إحقاق الحقّ.

ـ إحقاق الحقّ يمكّن من إحداث النُّقلة.

وعليه:

إنَّ تفعيل العلائق الاجتماعيَّة والإنسانيّة يؤدّي إلى التطلُّع والقّوة والنّمو ويحدث النُّقلة؛ أمّا إهمالها فيؤدّي إلى التراجع والانسحاب والضّعف الذي لا يؤدّي إلّا إلى الخسارة والانهزام.

ولذا فالتمسّك بحجّة المنطق يستوجب سيادة التفهُّم بين أطراف الحوار الذي به يتم تقدير الظّروف الاجتماعيَّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسيّة والذوقيّة والثقافيّة، فهذه الظروف من طبيعتها لا تتساوى بين الأفراد؛ حيث الفروق الفرديَّة، والفروق في الإمكانات المتاحة.

ولأنَّ المنطق يستند على الحُجَّة والبرهان وفقًا لمعطيات أو مسلّمات تتضمّن حقائق ودلائل واثباتات موضوعيَّة؛ فإنَّ اعتماد المنطق والحُجَّة بين الأطراف المشتركة في وحدة الموضوع يُعد تمسكًا بالقواسم المشتركة بين الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات التي ينبغي دفعها إلى صُنع المستقبل بنُقلة بها تتغير الأحوال إلى ما يفيد وينفع ويعظم المكانة ويرسخ السيادة الوطنيَّة.

صُنع المستقبل نُقلة:

مع أنَّ صُنع المستقبل نُقلة لا يكون إلَّا في الزّمن الحاضر فإنَّ بلوغه نُقلة لا يكون إلَّا لاحقًا في الزَّمن الآتي؛ ولذا فالنُّقلة إلى المستقبل لا تحدث ولا تتحقّق إلى بجهود عظيمة مع حيويّة جادّة في نيل المأمولات الرّفيعة، وهي

التي لا تُبلغ إلَّا بتطلّع إلى بلوغ ما هو أعظم، وهو الذي يجعل الشّخصية في حالة ميل من المستوى الذّاتي إلى المستوى الموضوعي، ويجعل علاقاتها الاقتصاديّة علاقات مجتمعيّة لأجل خدمة الجميع دون تمييز أو تحيّز، ومثل هذه الشخصيّة المتطلّعة بغاية إحداث النُّقلة عقلها العلمي لا يفارقه المنطق حجّة بحجّة، مما يجعل الاكتشاف العلمي من مميّزاتها الموضوعيّة والإبداعيّة؛ ولهذا فهي في حالة رغبة للعمل المنتج؛ لأجل إبراز قدراتها المتميزة عن غيرها من العاملين أو المنتجين، ولأنّها شخصيّة متطلعة للمستقبل فإنّها تميل إلى التّعرف المباشر على التقنية؛ ولذلك لا تتأخر عن الاتصال مع الغير لأجل استعارة التقنية التي ترى فيها معطيات التّقدم ومبررات العصرنة؛ ولذا فهي الشخصيّة المنسجمة مع ذاتها ومع ما يجب أن يحدث لها النُّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود، ومن ثمَّ فهي القادرة على التوفيق بين ظروف المجتمع ومتغيرات الحداثة وما يحدث النُّقلة دون أن يكون على حساب الفضائل الحميدة والقيم الخيّرة وما يشبع الحاجات المتطورة دون مظالم.

إذن: فالشّخصية المتطلّعة بغاية إحداث النُّقلة هي التي تتطلّع لِما هو أفضل على مستوى الأنا ومستوى الآخر، ولهذا بالنسبة لها الاعتدال في قول الحق حقُّ، والاعتراف به اعتراف بما ينبغي ويجب، وإنكاره إنكار للحقيقة، مع العلم أنَّ إنكار الحقيقة لا يُلغيها.

وعليه: إنَّ الشّخصيّة المتطلِّعة هي التي تتمسّك بحقوقها وتمارسها، وتؤدّي واجباتها، وتتحمّل مسئوليَّاتها، وتعترف بأنَّ للآخرين ما يماثل ما لها، فهذه الشخصيّة تعيش حالة التقمّص القدوة الحسنة؛ حيث تستعير شخصيّة

الآخر وتسعى للذوبان فيها بما أنَّها مثال للاحتذاء، بوصفها القدوة التي تعتقد أنّها الأفضل، وهذا يدلّ على أنَ الشّخصيَة في حالة تطلّع لِما ينبغي أن يحدث النُّقلة، وبالمنطق ينبغي على الإنسان أن يفكّر ويسعى لأن يكون على مستوى أفضل ارتقاءً، وعندما يسعى لِما هو أفضل بالضّرورة سيجد نفسه في ظروف تمكّنه من الاختيار بإرادة والعيش الرّغيد، وهذه الظّروف تمكّنه أيضا من الاقتران بذاته ولا ينفصل عنها، سواء في حالة التمركز التّام، أم في حالة التطلّع لِما ينبغي أن يحقق النُّقلة للأفضل والأنفع والأجود ارتقاءً، هذه هي الشخصيّة المتطلِّعة، التي تحتكم إلى المنطق عند كلّ تصرف، وتنتقي تصرفاتها وأفعالها حسب كلّ ظرف وكلّ حالة، ولا تعمم سلوكيّاتها في المواقف المختلفة، ومن صفاتها الإخلاص في أداء الواجبات والمهام المناطة بها، إنّها الشّخصيّة التي توصف بذاتيّة تميل إلى الموضوعيّة؛ وذلك لإقبالها على ما يظهر الحقيقة، وحصرها للأهداف الممكنة التحقيق، وسعيها للإنجاز كمتوقّع منطقي، إنّها الشخصيّة التي تميل إلى المشاركة في الأحداث الموجبة بغاية بلوغ النُّقلة ونيل المأمولات المترتبة عليها.

إذن: الشّخصيّة المتطلّعة لإحداث النُّقلة المعرفيّة والعلميّة والحضاريّة عقلها استنتاجي، ومن ثمَّ فهي قادرة على الاستنباط المعرفي المجرَّد؛ حيث تلتجئ إلى التمييز بين المواضيع بمعطيات عقلية أكثر من التجائها إلى التفسير المادّي المباشر؛ وذلك نتيجة لتجاوزها مستويات الذاتيَة الاجتماعيَة، ولبلوغها مستويات ذاتيّة تميل إلى الموضوعيّة، تنتهج الأساليب العلميّة في سلوكها المعرفي وتعتمد في أحكامها على المعايير التي تمكّنها من التمييز

علمًا ومعرفةً ودرايةً، إنَّها الشخصيّة الطموحة المتطلعة للأفضل والأجود، التي ترى أن التحصيل العلمي هو المؤدّي إلى الوصول إلى ما هو أجود أو أفضل؛ فتبني كل طموحاتها على هذا المبرر القيمي مع توظيفها وتسخيرها لكل ما تستطيع من إمكانات ماديّة وبشريّة مساندة.

وعليه: فإنَّ النُّقلة ارتقاء تُمكِّن من بلوغ المكانة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان قمّة، وهي القيمة التي لا تُبلغ إلّا بمزيد من الجهد العقلي جدًّ ومثابرةً، وفي المقابل هناك من لا يُميّز بين إحداث النُّقلة، وما يجري من تغيّرات وتطوّرات متّسقة كما هو الذي يطرأ على الكائنات الحيّة، وما يطرأ عليها من تغيّر في الجينات والسّمات.

ولأنَّ الإنسان في دائرة الممكن بين متوقّع وغير متوقّع؛ فهو مؤهّل لأن يرتقي إلى ما هو أفضل قيمة ونُقلة؛ ولأنّه كذلك فالأمل لا يفارقه؛ ولهذا فهو يبحث من أجل بلوغ القمّة التي لا تُبلغ إلّا بالمزيد العلمي والمعرفي، والعمل المنتج، وإصلاح ذات البين، وتحدي الصّعاب بكلّ ما يمكّن من قهرها.

فالكائنات التي يظنّ البعض أنَّها متطوّرة، نعتقد أنّ التطوّر يستوجب إرادة تمكّن من اتخاذ قرار من وسط مجموعة بدائل، وهذه الخاصيّة غير متوافرة عند الكائنات التي لم تُخلق في أحسن تقويم؛ ولذلك فالكائنات قابلة لأن تتغيّر وفقًا لقاعدة التكيّف بأسباب الضّرورة الطبيعيّة، وحتى إن دُرِّب منها ما دُرّب أو عُلّم؛ فهو لن يتطوّر كما هو حال الإنسان وارتقائه نُقلة؛ فالإنسان خُلق متميّزًا بخصائص وصفات الارتقاء التي لم تكن من خصائص بقية الكائنات

وصفاتها؛ ولذلك فالإنسان في دائرة الممكن ارتقاء يتذكّر ما يؤلم وما يفرح، ويؤهّل حاله عن تدبّر بما يمكّنه من العمل المنتج الذي يمكّنه من بلوغ النُّقلة ونيل المأمول ارتقاءً، وفي الوقت ذاته يفكّر في كيفيّة تمكّنه من بلوغ ما يجب أن يكون أفضل وأجود وأكثر ارتقاء.

ومع أنَّ الإنسان ارتقاء خُلق في أحسن تقويم، فإنّه بعلّة المعصية والشّهوة والرّغبة قد انحدر هبوطًا منذ خلقه الأوّل، ومع ذلك منذ تلك اللحظة التي قُبلت فيها توبته، ظلّ آدم ومن بعده بنوه على الأمل في حاضرهم، ومع إنّه الأمل في الزّمن الحاضر، فإنّه يتعلّق ارتقاء بما هو ماضٍ (تلك الجنّة التي خُلق فيها آدم)، وهو ما لم يتحقّق بعد.

ولذلك فالتطوّر يمكن أن يكون خاضعًا للمشاهدة مثل الإعمار وبناء الحضارات، وهذه من خاصيّة الإنسان التي لا يشاركه فيها غيره، ومن هنا يُصبح الارتقاء نُقلة في دائرة الممكن يستوجب بحثًا علميًّا مضنيًا، وجهدًا ينجز وفقًا للأهداف المحدّدة والآمال المرجوة، والأغراض التي من ورائها، والغايات التي لا تبلغ إلَّا قمّة ورفعة. وفي المقابل يمكن أن يكون التطوّر خاضعًا للملاحظة، مثل السّلوك وما يطرأ عليه من تغييرات مقصودة، وهذه تشترك فيها كلّ المخلوقات بما فيها من خُلق في أحسن تقويم.

فالإنسان في دائرة الممكن، ارتقاؤه القيمي يُرسّخه قيمة في ذاته، قيمة تستوجب مزيدًا من الاحترام والتقدير والاعتبار؛ وذلك بما يفسح له مجال العدل الممكّن من العلم، والعمل، والتملّك، والتمدّد إلى النّهاية دون أن يكون له تمدّدٌ على حساب الغير.

وهنا فالممكن ارتقاءً هو المتاح تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا، وهو ما يمكن بلوغه قدرة واستطاعة، وهو ما لم يكن مستحيلًا حتى وإن كان صعب التحقّق، وهو الذي ليس له وجودًا لو لم يسبقه وجود خَلق ونشوء، ومع ذلك وجوده لا يعدّ إن لم يلاحق الخَلق والنشوء ارتقاء.

ولأنَّه الممكِن ارتقاء فهو بين متوقّع وغير متوقّع؛ فالمتوقّع منه هو الذي بحدوثه لا تحدث المفاجأة، ولا الاستغراب، ولا توضع علامات التعجّب، أمّا غير المتوقّع فهو الذي لا تتوافر معطيات حدوثه بين أيدي النَّاس، ومع ذلك يقع، ممّا يجعله في حالة تساوٍ نسبي مع المتوقّع في دائرة الممكن؛ ولهذا إذا ما حدث غير المتوقّع حدثت المفاجأة أو التعجّب والاستغراب.

فغير المتوقّع يقع أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو نتيجة قصور في القراءات والحسابات السَّابقة على وقوعه، ممّا يجعله يقع (هو كما هو) إثباتًا، ومن هنا ينبغي أن يتمَّ التعرُّف على غير المتوقّع وعلى علله ومسبّباته لاحقًا؛ ليتمَّ التعرُّف على نقاط الغفلة، أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المتوقّع، وهكذا بالتقييم والتقويم تصلح الأحوال وتحدث النهضة الممكّنة من بلغ النُّقلة المأمولة.

فالمتوقّع وغير المتوقّع متغيران رئيسان في دائرة الممكن، التي فيها تتساوى فرص ظهور كلّ منهما بنسبة ثابتة قدرها (50%)، والمتوقّع يمكن أن يكون سالبًا، ويمكن أن يكون موجبًا؛ فالموجب منه لا يكون إلّا وفقًا لما هو مأمول نُقلة، والذين لا يأخذون حذرهم يرسمون خططهم وسياساتهم وفقًا لِما هو موجب متوقّع، وكأنَّ الحياة لا

تُحفُّ بالمخاطر، وكأنَّ العلائق بين النَّاس لا تُبنى إلّا على الصّدق فقط؛ ولذلك فهم دائمًا يفاجئون؛ كونهم لم يحدّدوا لغير المتوقّع موضعًا، ومن ثمَّ فلا نُقلة.

وعليه:

ينبغي من أجل بلوغ النُّقلة أن تُرسم الخطط والسّياسات النَّاهضة والإستراتيجيَّات وفقًا لدائرة الممكن التي تحتوي ما هو متوقّع موجبًا وما هو متوقّع سالبًا، وما هو غير متوقّع موجبًا، وما وهو غير متوقّع سالبًا.

وبما أنَّ الممكن ليس مستحيلًا فعلى الإنسان أنْ:

ـ يفكّر فيما يفكّر فيه قبل أن يقرّر ويعمل.

ـ أنْ يخطّط لما هو غير متوقّع مثلما يخطط للمتوقّع.

ـ أنْ يعمل ارتقاء بلا تردّد ولا يأس؛ حتى يُرتَقَ الممكن بالمستحيل قمّة.

ـ أنْ يقبل تحدّي الصّعاب؛ فالصّعاب تُقهر، ولا مستحيل في دائرة الممكن، ولا استغراب، بل الاستغراب ألّا يتمّ تحدّى الصّعاب التي تحول بين الإنسان وبين ارتقائه نُقلة وقمّة.

ومن ثمَّ فمن يرسم الخطط والإستراتيجيّات ويعدّ البرامج وفقًا لِما هو متوقّع، عليه أن يعرف أنَّ ما يفكّر فيه معرّض لمواجهة غير المتوقّع، ممّا يلفت انتباهه إلى التفكير في غير المتوقّع بخطط بديلة تواجه ما يمكن مواجهته من مواقف أو أضرار أو مخاطر قد تحدث؛ ولذلك فالزّمن الحاضر هو زمن التخطيط والتدبّر والتذكّر والتفكّر، وهذا

يعني: أنَّ دائرة الممكن هي التي فيها ينصهر الزّمن حاضرًا، أي: إنَّ التذكّر الذي يرتبط بما هو ماضٍ، لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وكذلك التفكّر الذي يتعلّق أمره بما لم يتحقّق بعد لا يكون إلّا في الوقت الحاضر، وفي الوقت ذاته يتدبّر الإنسان أمره وكأنّه لا يعيش الزّمن إلّا حاضرًا، أي: إنَّ الذي يتذكّر في دائرة الممكن لا يجب أن ينظر لما يتمّ تذكّره من الماضي وكأنّه لن يتكرّر، بل ينبغي أن يراه وكأنَّه الآن يواجهه تحدٍ، ممّا يجعله في وقته الحاضر متحدّيًا له بحلولٍ حاسمة تمكّن من بلوغ النُّقلة، وهكذا ينبغي أن يفكّر فيما يمكن أن يواجهه مغالبة، حتى لا يحدث وتحدث المفاجآت المؤلمة التي تؤدّي إلى الانتكاسة أو الانحدار، بدلًا من أن تؤدّي إلى بلوغ القمّة ارتقاء نُقلة.

ولذا فالممكن احتمالًا يسبق ما يمكن أن يكون محتملًا أو غير محتملٍ؛ ولهذا فلا يتحقّق الممكن إلّا في دائرة الحاضر، حتى وإن أصبح ذلك المتحقّق في دائرة الزّمان مسجّلا؛ فالممكن المتوقّع وغير المتوقّع في زمنه الحاضر يسبق حدوث الفعل، ومن ثمّ يظل الممكن تحت الانتظار إلى أن يتحقّق أو لا يتحقّق، ومن هنا، يصبح للممكن مصادق تثبت حدوثه أو تبطل حدوثه.

فالممكن في زمنه الحاضر يُلاحق العبر والمواعظ، ويتزامن مع التدبّر، ويسبق المأمول حتى يتمّ بلوغه ارتقاء نُقلة؛ ففي الزّمن الحاضر لا انتظار لشيء يعود إلّا استدعاء ذاكرة، ولا انتظار لشيء يأتي وهو لم يكن شيئًا، ولا شيء يحدث إلّا في الزّمن الحاضر.

وبما أنَّ في دائرة الممكن لا وجود للمستحيل، إذن: فمن الممكن التفكير في المستحيل حتى معرفته مستحيلًا، وعندها يدرك الإنسان أنَّه في حاجة لمزيد من الارتقاء، ومع أنَّ الإنسان يتوقّع ما هو ممكنٌ، فإنَّه قد لا يستطيع تحقيقه بأسباب قصور قدرته ومحدوديّة إمكاناته، وعلى الرّغم من ذلك؛ فعليه أن يعمل مع من يمكّنه من الارتقاء تحدٍّ؛ فالصّعاب لا تصمد أمام التحدّي بغاية إحداث التغيير نُقلة.

ولهذا فالإنسان يتذكّر ويتدبّر ويفكّر في كلّ ما من شأنه أن يُظهر له ممكنًا، ويمكّنه من إنجازه، أو تحقيقه بغرض الارتقاء إلى ما هو غاية مأمولة البلوغ.

وبما أنَّ كلّ شيء ممكنٌ؛ فلِمَ لا نفكّر فيه بلا قيود؟ حتى وأن وضعت عليه القيود علّة بأيّة علّة؛ فيجب أن تفكّ العلل مع القيود، ولكن إن لم تفكّ العلل والقيود؛ فعلامات الاستفهام والاستغراب وأفعال المواجهة ستكون ارتقاء في الميادين والشّمس في كبد السّماء؛ ولذلك فالاستغراب يَحدث عندما يَحدث غير المتوقّع في الزّمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقّع، وهنا تكمن المفاجأة، التي لا تظهر إلّا بغفلة عمّا هو غير متوقّع.

وعليه فصُنع المستقبل نُقلة يستوجب الآتي:

ـ دفع أفراد المجتمع إلى العمل المنتج الذي يُمكِّنهم من الوفرة التي تُسهِم في إشباع حاجاتهم الضّروريّة؛ ليعيشوا حياة تعليميّة وصحيّة واقتصاديّة مزدهرة ومرضيّة.

ـ دفع الأفراد إلى ميادين العمل المنتج التي فيها يتمكّنون من إشباع حاجاتهم للمشرب والمآكل والملبس

والتنقّل، وإلَّا سيظلون في عازة ممّا يجعلهم بعيدين عن محققات الرّفاهية الاجتماعيَّة وصُنع النُّقلة ارتقاء.

ـ تفطين أفراد المجتمع إلى ما يؤدّي إلى إشباع الحاجات الضّروريّة، وإلى ما يؤدّي من بعدها إلى إشباع الحاجات الكمالية المتطوِّرة.

ـ دفع أفراد المجتمع إلى زيادة الإنتاج حيث الحاجات المتطوّرة التي تبحث عن مشبعات غير ثابتة، فما كان لا يعدّ حاجة ضرورية في الزّمن الماضي أصبح من الأولويات في هذا العصر، وهكذا هي الحاجات تتطوّر عبر العصور وستظل دائمًا على هذه الحالة ارتقاء.

ـ تفطين مؤسّسات المجتمع الخدميَّة والإنتاجيّة وهيئاته وشركاته لاستيعاب أفكار العاملين والمتعلمين والاستجابة لمطالبهم المتطوّرة ورغباتهم المتنوّعة مع حركة التغير والتطوّر الاجتماعي.

ـ تنظيم العلاقة بين رغبات العملاء وظروفهم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة، التي قد لا تمكِّنهم من بلوغ مشبعات رغباتهم ما لم يستثمروا كلّ ما لديهم من طاقات مع مضاعفة الجهد المبذول تجاه محقّقاتها.

ـ تفطين الأفراد من انغلاقهم داخل دائرة الذّات الاجتماعيَّة إلى الانفتاح على الآخرين أصحاب العلم المتقدّم، والتعرّف على ما يمتلكونه من منافع وعلوم وتقنية، وتعلّمها والأخذ بأسبابها.

ـ تنمية روح الطموح والتّجدد لدي أفراد المجتمع؛ حتى يتطلّعوا إلى صناعة المستقبل الذي يمدّهم بأسباب إحداث

النُّقلة وبناء الذّات حتى تتمكّن من دخول ميادين المنافسة والإنتاج العلمي والبناء الحضاري.

ـ ترشيد الأفراد بما يؤدّي بهم إلى تنظيم حياتهم وتقدير ظروفهم في ضوء الظّروف المحيطة والمتطوِّرة؛ ليكوِّنوا علاقات موجبة معها، حتى يتمكّنوا من مواكبة حركة التطوّر والتغير الاجتماعي والإنساني في القرية الصّغيرة.

ـ استيعاب المتغيّرات الجديدة التي جعلت من العالم قرية صغيرة والترابط مع شبكاتها المعلوماتيَّة؛ لأخذ المزيد المعرفي من أجل تحقيق حياة إنسانية شاملة بغاية تحقيق النُّقلة للجميع.

ـ تفطين أفراد المجتمع إلى أخذ ما هو نافع وترك ما هو غير نافع؛ فالقرية الصّغيرة مملوءة بالجديد النّافع والجديد غير النّافع؛ فيجب التمييز قبل الإقدام، ومن هنا يجب الاهتمام والانتباه.

ـ عدم الإغفال عن حقيقة مفادها: (أنّ الحياة بطبيعتها في حالة تطوّر) فلا داعي للغفلة وضياع الوقت.

ـ تفطين الأفراد إلى استثمار ما لديهم من إمكانات وطاقات والتطلّع إلى ما يفيد من قِبل الآخرين؛ حتى يتمكّنوا من العيش برفاهية اجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة وأخلاقيَّة وإنسانيَّة.

ـ حث أفراد المجتمع على التطلّع بغاية أخذ المفيد النافع للفرد والأسرة والمجتمع كلّه مع الإسراع بهم إلى أخذ المزيد وتطويره حتى بلوغ النُّقلة من بعد النُّقلة تطوّرًا.

ـ دفع الأفراد لمواكبة حاجاتهم المتطوّرة، وعدم التأخر عن ممارسة ما من شأنه أن يُعجِّل من طي المسافات بين النقطة التي هم عليها، ومحققات الرّفاه الاجتماعي.

ـ التأكيد على أهميَّة بلوغ الجديد المفيد الذي يُعزز ثقة الأفراد بأنفسهم وبذواتهم الاجتماعيَّة، ويحقّق لهم أبعادًا إنسانيّة في المجالات العلميَّة والاقتصاديّة والسياسيَّة والنفسيَّة والذّوقيَّة والثقافيَّة.

ـ تحريض مؤسّسات المجتمع على اختيار المعروض الأجود ممّا وصل إليه التقدّم العلمي والتقني، والإقدام على تطويره، فالقوّة المبدعة في العالم لن تنتظر وستواصل التقدّم والتطوّر، فعلى مؤسّسات المجتمع وهيئاته وشركاته دخول ميادين السّباق العلمي وإلّا سيظل المجتمع قعيدًا في مؤسّسات الرعاية الاجتماعيَّة؛ ذلك لأنَّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانيّة، ولأنَّ إشباع الحاجات ضرورة إنسانيَّة، تأسّست هيئات وجمعيَّات ومؤسّسات دوليّة إنسانيّة لتقديم المساعدة لمن هم في حاجة إليها، سواء دول بحالها أم جماعات منها.

ولذا تأتي المخاطر أو تظهر الإشكاليّات من فقدان مشبعات الحاجة المتطوّرة، ولا يتحقّق الأمن والاستقرار والرّضا الاجتماعي إلا بالإشباع؛ فالجوع والخوف والإكراه والانحرافات ذات علائق، وفي المقابل الإشباع والأمن والرّضا هي الأخرى ذات علائق، ومن هنا يجد التعسير مكانًا له، ويجد التيسير مكانة لمن شاء أن يُحدث في نفسه نُقلة تحقّق له نُقلة أعظم.

ولذا لا يستقرّ البلد (أيّ بلد) إلَّا باستقرار أمنه، وارتقاء اقتصاده، وشفافيّة نظامه، وقوّة إرادة شعبه، وهيبة مشبعات حاجاته؛ ولذلك فإشباع الحاجات ضرورة فطريَّة وغريزيَّة وأخلاقيّة وإنسانيّة فلا ينبغي غض النّظر عنها بأيّ علّة من العلل أو أيّ مبرر من المبررات الواهية.

إذن: من باب الضرورة والوجوب والأخلاق نقلة لا مفرَّ من إشباع الحاجات البشريَّة المتطوِّرة عبر الزّمن، ومن يُهمل أو يغفل عن ذلك يجد نفسه في حالة مواجهة مع الذين فقدوا مشبعات حاجاتهم[69].

السِّيادةُ نُقلة ارتقاء:

مع أنَّ مفهوم النُّقلة يشير إلى تغيير الأحوال إلى الأفضل فإنَّ مفهوم الرّفعة ارتقاء يشير إلى بلوغ قمّة التغيير الذي كان مستهدفًا؛ ولذا فالنُّقلة ارتقاءً لا تكون إلَّا عن وعي ودراية مسبقة بالإقدام على ما يجب؛ من أجل تحقيق تقدّم تجاه نهضة علميَّة وحضاريّة وإنسانيَّة بها تُغيَّر أحوال من عزموا على إحداث النُّقلة اجتماعيًّا أو وطنيًّا أو إنسانيًّا.

والنُّقلة ارتقاء لا تكون إلّا والمأمول نافع ومفيد، وأنّ الآمل لا يسعى إلّا لما يفيد، ومن هنا يوصف المأمول بالقمّة؛ فيصبح الارتقاء رفعة عن كلّ ما يؤدّي بأصحابه إلى السُفليَّة والدّونيَّة، فيؤخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيرة

[69] عقيل حسين عقيل، النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصرية للنشر والتوزيع، القاهرة: 1021م، ص 14 – 36.

مع وافر التقدير والاحترام للأفراد والجماعات والمجتمعات والحضارات والثقافات والأديان، كما أنّه يمكّن من التوافق والاندماج الذي فيه الإنسان قيمة في ذاته؛ فلا يهان ولا يقلّل من شأنه، ولا يحرم من ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسئوليَّاته. والنُّقلة ارتقاء قد تكون بأسباب العلم والثّقافة وحسن المعرفة، وقد تكون نتاج التربية وتهذيب السُّلوك، وقد تكون بأسباب مقصودة وفقًا لفرضيَّات منبثقة من أهداف واضحة ومحدّدة وقابلة للإنجاز.

والنُّقلة ارتقاء هي التي فيها تُتّبع أساليب الاحترام والتقدير والاعتبار والتّفهم، وهي التي بها يتمّ الإنجاز أو الإنتاج دون أن يسود استغلال للجهد الذي به أنجز العمل أو أنتج.

ولأنّ النُّقلة ارتقاء ووعيًا لا تكون إلَّا عن دراية فبلوغها دائمًا في دائرة الممكن ميسّرًا، ومن هنا ينتقل المستهلكين من خانة الاستهلاك الذي يشكل عبء على كاهل الآخرين إلى خانة المنتجين والمبدعين ومتحدّي الصّعاب بدون كلل ولا ملل.

إذن: النُّقلة ارتقاء تستوجب عملًا وجهدًا يبذل مع خالص النيّة، أي: لا أمل ولا عمل ولا إنتاج إلّا والجهد يبذل، والجهد هنا قد يكون فكريًّا وقد يكون عضليًّا، وقد يكون فنيًّا ولوجستيًّا (خبرة ومهارة)، وهذه من مجوّدات العمل نُقلة و ارتقاء؛ فلا ينبغي الإغفال عنها وعن أهميّتها وعن أدوار أصحابها، أي: يجب أن تقدّر تقديرًا عاليًا من حيث الحوافز والدّوافع وكلّ ما من شأنه أن يشجّع على المزيد أو يشجّع آخرين ليلتحقوا بخانة الآملين بغاية إحداث النُّقلة ارتقاء.

ومن ثمّ فالأمل نُقلة وارتقاء يستوجب دراية ومعرفة واعية، المعرفة بما يجب ويتّبع، وما لا يجب ليجنّب أو يبتعد عنه، مع معرفة وافية بقوانين وتشريعات العمل، والمهنة والوظيفة، وحمْل المسئوليّة، حتى وإن كانت عبئًا جسيمًا؛ كونها تمكّن من بلوغ النُّقلة.

وعليه:

ـ الأمل ولنُّقلة ارتقاءً لا يكونان إلّا عن وعي.

ـ النُّقلة ارتقاء لا تكون إلّا والعمل جودة لا تفارقه.

ـ النُّقلة ارتقاء تحقّق الرّفعة الذّوقيّة والخلقيّة والماديَّة.

ـ الأمل ارتقاء يُحدث النُقلة إلى الأجود والأنفع والأفيد.

ـ الأمل ارتقاء حقّ لا ينبغي التنازل عنه، بل التمسّك به منقذ من التخلف وميسّر لإحداث النُّقلة نهضة.

ـ العمل ارتقاء حُسن تدبّر ينبغي الأخذ به بغرض تحقيق النُّقلة.

ـ النُّقلة ارتقاء لا تكون إلّا نتاج تفكّر فيما يجب وأدائه وفقًا لما يجب.

ـ النُّقلة ارتقاء تجاوز للكسل والاتكاليّة والطّمع واعتماد على المقدرة في دائرة الممكن تحدٍّ.

ـ الأمل ارتقاء تحدّي صعاب يُمكِّن من النُّقلة.

ـ النُّقلة ارتقاء تجاوز للمألوف، وتجاوز للرتابة المميتة، ووعي بما يجب أن يتم الاقدام عليه؛ كونه المحقق للنُّقلة وعيًا ودراية.

ـ النُّقلة ارتقاء صنع مستوى قيمي رفيع.

ـ النُّقلة ارتقاء انفتاح موضوعي واستيعاب للأفضل والأجود مع الاقدام على ما من شأنه أن ييسر سبل تجاوزه إلى ما هو أعظم وأنفع.

ولذا فالنُّقلة ارتقاء فيها رفعة شأن وتقدّم تجاه ما هو أفضل وأجود وأنفع، ولكنّها لا تكون إلّا ببذل الجهد وعن دراية مع سابق تخطيط وفقًا للإمكانات الممكنة، ومن ثمّ فلا إمكانيّة للتقدّم ما لم تتوافر معطياته من بحث علمي وأخذ بالقيم الحميدة والفضائل الخيّرة مع طموح وغايات من ورائها نيل المأمولات العظيمة.

فالكلمةُ الأمل مهما عظمت إن لم تتجسّد في سلوكٍ يدفع إلى العمل المنتج تظلّ كلمة في حاجة للحياة، ولا حياة لها إلّا العمل، ولكن أيّ عمل؟ إنّه العمل ارتقاء (بناء وإصلاحًا وإعمارا مع ارتقاء الأخلاق قمّة)، والعمل ارتقاء هو إنشاء الشيء من الشيء، كما أنشأ نوح عليه السّلام سفينة النّجاة من جذوع الشّجر إبداعًا، والفضائل والقيم من ورائها إنقاذًا.

ولأنَّ الأمم والشّعوب التي تقدّمت لم تتقدّم إلّا بالعمل نُقلة؛ فَلِمَ لا يُقدِم المتأخّرون عنهم على العمل الممكّن من طي الهوة بينهم وبين المتقدِّمين الذين ارتقوا علمًا وتقنية وحُسن إدارة؟

ولأنّ الأمل ارتقاء لا يكون إلّا عملًا؛ فينبغي على من يرغب ارتقاء أن يُقدِم على العمل النّافع، وينبغي أن يجوِّد

منتجاته لتكون منافسة لمنتجات الغير؛ ذلك لأنَّ المنتجات غير المنافسة لن تجد لها مكانًا في أسواق المستهلكين.

وهذا يعني: إن لم تَقدِم الشّعوب وبكلّ طاقاتها على العمل المنتج والمبدع فستظل متخلّفة وتابعة لمن يمتلك القوّة المنتجة ويسيطر على السّوق، وقد تصبح مدانة بما لم تستطع تسديده، وهنا ستجد نفسها أمام خيارات قد لا تكون محمودة، ويومها لن ينفع النّادمين ندم.

ومن هنا فالنُّقلة ارتقاء تجعل المكانة لمن لم تكن لهم مكانة؛ ولذا فمن رغب مكانة ويأمل تبوئها فعليه بالعمل المنتج ويحرّض من تربطهم به علاقة على العمل؛ لتكون المكانة بينهم فرديّة وجماعيّة وإنسانيَّة؛ فعلى سبيل المثال: جميع الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام عملوا وحرّضوا النَّاس على العمل: {وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}[70].

فهكذا هم الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام أُرسلوا للنَّاس من أجل الهداية والعمل نُقلةً وارتقاءً؛ فكانت القيم الحميدة والفضائل الخيّرة جنبًا إلى جنبٍ مع الإصلاح والبناء والإعمار ارتقاء عبر التّاريخ، وكانت الآمال لا تفارق عقول النّاس، فذلك الإنسان الأوّل (آدم) عليه السَّلام الذي خُلق في الجنّة رأى الارتقاء بأمّ عينه، بل عاش الارتقاء حياة نعيم، ولكن بأسباب المخالفة والمعصية ارتكب خطأً فأخرج به هبوطًا من الجنّة إلى الحياة الدّنيا، والتي من بعدها أصبح واضعًا نصب عينيه أمل العودة إلى تلك الجنّة التي ضاعت من بين يديه وهو يتحسّر، بما أقدم عليه شهوة وإرادة، حتى وإن

[70] التوبة 105.

كان بأسباب الإغواء، ولكن بعد أن استغفر ربّه، ظل يعمل من أجل العودة إلى ذلك العيش الرّغد الذي حُرم منه بما ارتكبه من فعل منهي عنه، ومع ذلك ساد الصّراع بين النّاس إلى يومنا هذا (بين من صدّق الرّسل ومن كذّبهم)؛ فمن صدّق الرُّسُل يأمل كما أمِلَ الإنسان الأوّل الارتقاء إلى الجنّة التي عاشها حياة فردوس، ومن لم يصدّق؛ فلا يرى جنّة، وهنا تكمن العلّة.

وهكذا فالإنسان النُّقلة لم يقف عند ما يأمله، بل بالعمل تجاوز الصعاب، حتى صعد إلى القمر الذي كان يعتقد أنَّه الجنّة، ثم تجاوز القمر كونه لم يكن كذلك، فغزى الفضاء اكتشافًا، وهو في سعيه لم ييأس ارتقاء من بلوغ ما هو أعظم، ولا غاية له من وراء ذلك إلّا إحداث النُّقلة الممكّنة من بلوغ الجنّة، إنّها رسالة الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ومن أخذ بها ارتقاء أخذ بما يجب الأخذ به نُقلة، ومن لم يأخذ بها؛ فلن يبلغ التقدّم والارتقاء المحقّق لإشباع الحاجات المتطوّرة والمتنوّعة وبناء الحضارة التي ترتقي بصُنّاعها إلى صناعة المزيد نُقلة من بعد نُقلة.

ومع أنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء خَلقا، فإنَّه لم يحافظ على ارتقائه فأُهبط به من علوٍ إلى دنيا، ومع ذلك عيناه لم تفارق السّماء، بل ظلّت تبصر هناك بأمل العودة، وهذا الأمر هو الذي حفّزه على العمل ودفعه إليه ارتقاء.

فالإنسان لو لم يكن مؤهّلًا للارتقاء، ما فكّر وتدبّر حتّى تمكّن من اقتناص الفكرة التي مكنته من غزو الفضاء نُقلة وهو يأمل في المزيد ارتقاء ونُقلة، ولأنّ حاجات الإنسان متنوّعة ومتطوّرة؛ فهي إن لم تواكب من قِبله بالعمل

المتطوّر تصبح ضاغطة عليه ألما شديدًا؛ فعليه بالعمل وتحدّي الصّعاب، ولا يخشى شيئا سوى الحقّ الذي يمكّنه من التقدّم والنّهوض وتحقيق الرّفعة والمكانة قمّة.

ولهذا فما بلغه الإنسان من ارتقاء علمي وثقافي وحضاري يؤسّس قاعدة عريضة للمزيد المعرفي الممكّن من الإصلاح والبناء وقبول التحدّي من أجل الأفضل والأفيد والأنفع والأرقى، ومن أراد أن يرتقي إلى المأمولات العظام فلا إمكانيّة له إلّا بذل الجهد والعمل الذي له من الأهداف ما له وله من الأغراض ما له ومن وراء كلّ ذلك غايات تُبلغ ومأمولات يتمّ نيلها أو الفوز بها، ولهذا فالارتقاء عملا يحقّق:

- النُّقلة.
- الرّفعة.
- تبوء المكانة.
- القدوة الحسنة.
- الاعتماد على الذّات.
- بلوغ الغايات.
- نيل المأمولات.

ولأنَّ الأمل ارتقاء لا سقف له، فإذن: لا تجعل من مستوى الجودة الذي بلغته مظلة لتجلس تحت ظلّها وكأنّها الغاية، بل عليك أن تعرف أنَّ الجودة درجات سُلم يتمّ الصّعود عليها، ولا يتمّ الصعود إليها؛ ذلك لأنّ الوسيلة ليست الغاية ولا المأمول، ولأنَّ السّلم وسيلة فلا تقف عنده وكأنَّه المهم الذي لا شيء مهم من بعده.

وعليه: فعليك بالعمل، فالعمل الصّالح كما يرضي القائمين به جهدًا مبذولًا يرضي الله، ولكلّ جزاؤه: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[71] . أي: لكلٍّ حسابه؛ ولذا فللعمل الرّاقي حسابه، وللعمل الواطي حسابه.

السِّيادةُ نُقلة التَّحدّي:

مع أنَّ النُّقلة صعود من المستويات الدُّنيا إلى المستويات العليا فإنَّ النُّقلة تحدٍّ لا تكون إلَّا عن عزيمة وإصرار مع صبر على مغالبة الصّعاب؛ إذ لا توقّف حتى تقهر؛ ولذا فالنُّقلة تحدٍّ هي الحيويّة التي بها يتمّ تجاوز الصِّعاب وإن عظمت، والصّعاب هي تلك الأعمال التي تستوجب مزيدًا من الجهد دون أن تكون مستحيلة التحقّق؛ فهي التي تواجه من يأمل ولا تواجه الكسالى، وهي التي لا تصمد أمام المتحدّين لها صبرًا وعملًا مع مزيدٍ من الثبات وبذل الجهد الممكّن من إنجاز الأهداف، أو تحقيق الأغراض، أو بلوغ الغايات ونيل المأمولات، أو الفوز بها نُقلة.

إذن: فلا مستحيل في دائرة الممكن، حتّى وإن كان الصّعب يملأ نصفها، ومن هنا، وجب العمل على تذليل الصّعاب كي تتيسّر الأمور ارتقاء؛ فالصّعاب إن لم تداهم ارتقاء، لا بدّ وأن تداهم من لم يداهمها، وحتى لا يحدث ما لم يحمد عقباه ينبغي تحدّي الصّعاب تهيؤًا، واستعدادًا، وتأهّبًا، وعملًا راقيًا تنجزه الإرادة والأمل لا يفارق.

ومع أنَّه لا صعب أمام مزيد من بذل الجهد ارتقاء، فإنَّه لا ارتقاء لخرق المستحيل؛ فمن المستحيل أن يكون الإنسان

[71] الزلزلة 7، 8.

عالما بلا علم، وفي المقابل يمكن له أن يصبح عالما بالرّغم من الصّعاب.

وعليه:

فالقاعدة: (تحدَّي الصِّعاب).

أمّا الاستثناء: (الاستسلام إليها).

ولأنَّ الممكن ارتقاء يُمكّن من تحدّي الصّعاب، فَلِمَ لا يتهيأ الإنسان إليها قوّة تدبّر والأمل لا يفارقه، ممّا يجعل التهيّؤ للعمل لا مكان فيه للتردّد في نفس المتهيئ لأدائه أملًا؛ ولذلك فمن يتوقّع أنَّ أداء العمل ميسَّر؛ فلا يستغرب إن واجهته صعاب تحول بينه وبين تنفيذه.

وعليه: فمن تهيّأ واستعد لتحدي الصّعاب والمأمول لا يفارقه لا يمكن أن يتهيّأ لِما يُغيّره عن الاستمرار من أجل النُّقلة ونيل المأمولات المترتّبة على بلوغها؛ ولذا فالتهيّؤ للقول الصّعب يؤدّي إلى الاستعداد لأنّ يقال بإرادة، والتهيّؤ للعمل المنتج يؤدّي إلى الاستعداد لأن يُفعل بعد تأهّب، ومن ثمّ فالتهيؤ لبلوغ المأمول يؤدّي إلى نيله نُقلة.

ومع أنَّ الممكن ارتقاء لا استحالة فيه، فإنَّه بلا استعداد وبلا تهيؤ لا إمكانية لنيلهِ مأمول ونُقلة؛ ولذلك فإنّ غياب الأمل يغيّب كلّ من التهيؤ والاستعداد، ومن ثمّ، تقوى درجة الاستعداد المترتِّبة على الإرادة والتهيّؤ بقوّتهما وتضعف بضعفهما وحينها لا إمكانيّة لتحدي الصّعاب؛ أي: لا تحدّ بلا أمل وإرادة، ولا تهيؤ، ولا استعداد، وحتى وأن اجتمعت في دائرة الممكن تظلّ منقوصة ما لم يتمكّن الإنسان من التأهب لأداء العمل وبلوغ المأمول والفوز به نُقلة.

وعليه:

إذا أردت تحدّى الصّعاب أملًا ونُقلةً فعليك بالآتي:

ـ أنْ لا تحصر التفكير في شؤونك أو شؤون الغير الذي تربطك به علاقة وأهميَّة على المتوقّع فقط، بل تجاوزه إلى ذلك غير المتوقّع، حتى وإن كان صعبًا.

ـ تأكّد أنَّ الصّعب لا يستطيع المقاومة إذا تحصّنت له متحدّيا رغبة وإرادة وإعداد عدّة.

ـ اصّمد فالصّعب لا يصمد، وعليك أن تعرف أنّ ما يبدو صعبًا للبعض لا يبدو كذلك لدى البعض الآخر، ولهذا عليك بقبول التحدّي حتى تهزمه كما غيرك هزمه.

ـ الصّعب لا يزيد عن كونه حيويّة؛ فينبغي أن يواجه بها ولا يواجه بغيرها؛ ولذا فلا يمكنك أن تهزم خصمًا وأنت لم تمتلك ذات السّلاح الذي يمتلكه تقنية، وعندما تمتلك ذات السّلاح؛ فليس له بدّ إلّا أن يقدّرك ويحترمك ويعترف بك مساويًا له على كفّة العدالة: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}[72].

ـ مواجهة الصّعب لم تكن مستحيلة، فَلِمَ لا يواجه إلّا من البعض؟

أقول:

لأنَّ البعض أفضل من البعض، أي: دائمًا أصحاب الآمال العريضة والواعون والصّابرون والمؤمنون يواجهون التحدي بتحدٍ.

ـ أقبل بدفع الثَّمن جهدًا ووقتًا وإمكانات تنال أضعافها مكاسب وفوائد متى ما استسلم لك الصّعب قهرًا.

ـ تحدّى الخوف الذي يقنعك كسلًا، أو يخالجك جبنًا، فاعمل وابذل المزيد من الجهد، وفي المقابل إن استسلمت فستجد نفسك متسوّلا مع المتسوّلين على الأرصفة وبين الأزقة.

ـ أهّب نفسك للعمل تجد العمل بين يديك، وأهّب نفسك للتحدّي تجد نفسك متحدِّيًا، وأهّب نفسك لمواجهة الصّعاب تجد الصّعاب مستسلمة.

ولذلك فالغاية بعد معرفة الحلّ هي بلوغ المكانة الممكّنة من بلوغ الأمل رفعة، وعيش النّعيم، وهذه مع أنَّها غايات، فإنَّها ستظل في دائرة الممكن ارتقاء بين متوقّع وغير متوقّع، والعاملون عليها هم وحدهم يتهيَّؤون لها، ويستعدّون إليها، ويتأهّبون لتحدّي الأمر الصّعب، ثمّ يفعلون ويعملون حتى يبلغوا الغايات، ومن بعدها نيل المأمول وإحداث النُّقلة. ولكن وفقًا لدائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع) كلّ شيء قابل لأن يتغير كلّما توافرت معطياته أو اشتراطاته.

ولذلك تتماثل دائرة الثابت والمهتز مع دائرة المتوقّع وغير المتوقّع، من حيث: إن 50% من الدّائرة هو ثابت أو متوقّع، وإنّ 50 % من الدّائرة هو المهتز أو غير المتوقّع، وهذا يعني: أنَّ النسبي سيكون بين موجبٍ وسالبٍ، أي: أنَّ الثّابت والمهتز كلّ منهما معرّض لأن يكون سلبيًّا أو إيجابيًّا، أو أن يكون نتاج الأعمال السَّالبة أو الموجبة، ولهذا تتداخل

الحركة مع السّكون، ويتداخل السّكون مع الحركة من أجل التغيير وإحداث النُّقلة.

وعليه: لو لم يكن الثّبات نسبيًّا، ما تغيّرنا وما تغيّرت أحوالنا، ولو لم يكن الاهتزاز نسبيًّا ما أُصلحت أحوال المنحرفين، ولما تمكّن الأخصائيّون الاجتماعيّون والنفسيّون من إعادتهم للقاعدة (الإنسان قوّة)، ومن هنا فيجب أن يكون الإنسان على القوّة ويقبل تحدّي الصّعاب من أجل بلوغ المأمول ونيله، ولا استغراب؛ إذ (كلّ شيء ممكن).

ولذلك فتَوافر الرّغبة في دائرة الممكن المتوقّع يُسهِّل من عمليات التحصيل والإنجاز، ويُسرّع من عمليات الإقدام ويحقّق نجاحًا رائعًا، أمّا في دائرة الممكن غير المتوقّع فقد لا يحقّق ذلك؛ فعلى سبيل المثال: الشّاب الذي ذّهب إلى أحد حكماء الصّين ليتعلَّم منه سرّ النّجاح وسأله "هل تستطيع أن تذكر لي ما هو سرّ النجاح؟ فرد عليه الحكيم الصّيني قائلًا: "سرّ النّجاح هو الدّوافع" فسأله الشّاب: ومن أين تأتي هذه الدّوافع؟ فردَّ عليه الحكيم "من رغباتك المشتعلة" ، وباستغراب سأله: وكيف تكون عندنا رغبات مشتعلة؟ وهنا استأذن الحكيم الصّيني لعدّة دقائق وعاد ومعه وعاء كبير ملئ بالماء وطلب من الشّاب أن يقترب من وعاء الماء وينظر فيه، فنظر الشّاب إلى الماء عن قرب وفجأة ضغط الحكيم بكلتا يديه على رأس الشّاب ووضعها داخل وعاء الماء ومرّت عدّة ثوانٍ بدأ الشّاب يشعر بالاختناق، وبدأ يقاوم بشدّة حتى نجح في تخليص نفسه وإخراج رأسه من الماء، ثم نظر إلى الحكيم وسأله بغضب: ما هذا الذي فعلته؟ فرد عليه: ما الذي تعلمته من التجربة؟ فقال الشاب: لم أتعلّم شيئًا.

قال الحكيم: لا يا بني لقد تعلمت الكثير؛ ففي الثّواني الأولى أردت أن تُخلِّص نفسك من الماء، ولكن دوافعك لم تكن كافية لعمل ذلك، وبعد ذلك كنت دائمًا راغبا في تخليص نفسك فبدأت في التحرُّك والمقاومة ولكن ببطء حيث إنَّ دوافعك لم تكن قد وصلت بعد لأعلى درجاتها، وأخيرًا أصبح عندك الرّغبة المشتعلة لتخليص نفسك وعندئذ فقد نجحت.

ومن هنا وجب غرس الثّقة في أنفسنا ثمّ استمداد القوّة منها إن أردنا بلوغ المأمول نُقلة، والّا سنكون ضعفاء ولا شيء لدينا إلّا الأمنيات التي لا يمكن أن تصنع لنا مستقبلًا، ولهذا لا ينبغي أن نغفل عن:

ـ تهيئة الاستعدادات النفسيّة والبدنيّة والماليّة لما هو متوقّع ومأمول ولما هو غير متوقّع حتى لا تحدث المفاجئة.

ـ غرس الثّقة في النّفس، حتى يتم التمكّن من تحدي الصّعاب.

ـ تحديد الأدوار الواجب لعبها؛ لتحقيق الأهداف المحددة من قبل المجتمع أو مؤسّساته أو هيئاته وجمعياته.

ـ غرس الثّقة في نفس الفرد وفي القيم الاجتماعيّة الموجبة.

ـ غرس الثّقة في أنفس الجماعة من خلال المشاركة الفعّالة في إعداد البرامج والمشاركة في تنفيذها والقيام بها.

ـ تنمية قدرات أفراد الشَّعب كلّه وغرس الثّقة بينهم؛ حتى يتمكّنوا من تحقيق أهدافهم الاجتماعيّة والسياسيّة

والاقتصاديّة والثّقافيّة والنفسيّة والذوقيّة وفقا للخطط والاستراتيجيّات المرسومة والمرجّوة نُقلة.

ـ تهيئة استعداد الأفراد والجماعات لما يجب والتطلّع بهم إلى ما يُحدث النُّقلة إلى ما يفيد وينفع ويخلّص من الآلام والتأزُّمات.

ـ غرس الثّقة في أفراد الشَّعب من خلال مؤسّسات الدّولة، دون الإغفال عن مشاورتهم فيما يتعلّق بهم من أمر، وأخذ وجهات نظرهم تجاه المستقبل الذي يأملونه أو يتطلعون إليه نُقلة.

ـ تنمية قدرات الأفراد والجماعات مع مراعات أصحاب الحاجات الخصّة وتأهيلهم وتدريبهم ورعايتهم مع دراسة حالاتهم وتوظيفهم كونهم مفردة من مفردات المجتمع المستهدف صُنع مستقبله.

ـ تقوية الإمكانات المادّية وتدعيمها بالمعلومة والمعرفة الواسعة المساندة للتطوّر والتقدّم واستثمارها فيما يفيد.

ـ تحفيز أفراد الشّعب على المشاركة الفعّالة، ودفع مؤسّسات الدّولة إلى الإقدام على ما يفيد وينفع خدمة وإنتاجًا.

ـ استثمار الإمكانات البشريَّة والمادّيَّة في تحسين أحوال الأفراد والجماعات وتحسين أحوال البيئة.

ـ إشعار أفراد المجتمع بأهميّة المشاركة الاجتماعيّة في اتخاذ القرارات وتنفيذها وتقويمها من الانحراف.

ـ حث الأفراد على الاستفادة من الإمكانات المتاحة والبحث عن إمكانات أخرى أو إمكانات بديلة في حالة نقص الإمكانات أو شُحّها، واستثمار ما يتوفّر منها إلى أقصى درجة ممكنة، تحقيقا لعمليات التغيير الموجب.

ـ تأكيد أهميَة المشاركة ودورها في بناء الثّقة بتحريض الأفراد على ممارستها من أجل تأكيد منطق (النّحن) المستوعب للأنا والآخر، حتى تتضاعف القوّة ويزداد العطاء وتعم المكاسب ويتم نيل المأمولات نُقلة.

ـ دفع الأفراد والجماعات وهيئات ومؤسّسات الدّولة إلى استيعاب الجديد والعمل على تطويره.

ـ الإصرار والتصميم على إزالة الشّكوك والمخاوف وكلّ ما من شأنه أن يجعل المواطن في حالة خوف أو قلق بأمل يحفّزه ويدفعه إلى المشاركة في صناعة المستقبل.

ـ تمكّين الأفراد من إدارة شؤون حياتهم بإرادتهم الحرّة دون أيّ إكراه أو إجبار وغرس الثّقة في أنفسهم وفي مقدرتهم على إدارة ما يتعلّق بهم من أمر مع إرشادهم لِما يفيد عمليات الاستثمار للإمكانات المتاحة، وتعريفهم بأساليب البحث عن البدائل كلّما دعت الضّرورة لذلك.

إذن: الارتقاء قيمة مرغوبة لا يُبلغ إلّا بجهد يبذل، وهو القيمة التي لا تجعل للإحباط والانطواء والانكفاء مكانًا ليستقر فيه، ترفضه الإرادة والرّغبة والتحدّي والإصرار؛ ولذلك فالحياة بدون أمل محفّز على الارتقاء لا تكون إلّا مللًا؛ ولذا فاصنع لنفسك أملا يخرجك من التأزّمات، واعلم أنَّ الذين

صنعوا لأنفسهم آمال ارتقوا حتى بلغوا القمم علما ومعرفة وتقدّما وحضارة.

إذن: الارتقاء قيمة تفضيليَّة خصّ الله بها الإنسان خَلقًا وخُلقًا؛ وهو الذي في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمّا في خُلقه فينبغي عليه أن يكون على الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة التي أمر بها الخالق: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[72].

نلاحظ في هذه الآية الفرق الكبير بين تلك الزّواحف مكبّة الأوجه، ومن يمشي سويًّا (مقوّمًا)؛ ذلك هو أمر الخالق فلا يتبدّل، أمَّا المتبدّل فهي الأخلاق التي هي بيد المخلوق فإن شاء ارتقاء كان بها راقيًا، وإن لم يشاء تصبح أخلاقه مكبّة.

ولذا فلا إمكانيَّة لتلك المخلوقات أن تتطوَّر وترتقي كما يظنّ البعض لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه، وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويًّا أن ينحدر خُلقًا؛ فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقًا.

وهذا ما حصل مع الإنسان الأوّل (آدم) الذي خُلق في أحسن تقويم، ولم يُخلق على الكمال، إنَّه الإنسان بين التسيير والتخيير، وبين هذا وذاك يستغفر فيتاب عليه، ومن ثمّ فمخالفة أبينا آدم هي مخالفة تخييريّة ذات علاقة بالإرادة والرّغبة والشّهوة، وهذه مكامن العلل والضّعف النّفسي التي تجرّ لما لا ينبغي (للمخالفة) كما تجرّ لما ينبغي (الطّاعة والاتباع)؛ ولذلك فحسن التقويم لا يتغيّر، أمّا حُسن الأخلاق في دائرة الممكن يتغيّر بين سُفليّة وارتقاء،

[72] الملك 22.

ولهذا يصبح الإنسان في حاجة لنُقلة تخرجه من التأزّمات وترتقي به قيمة وفضيلة.

ولأنَّ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع رُقيًّا، إذن: فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألَّا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة أن كشف عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[73]؛ ذلك لأنَّ الكلمات الصّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق، ولا تتعلق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

ففي دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمّا الاستثناء في دائرة الممكن ألا يُصحح، ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة: وهي متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصّائبة حتى حدوث النُّقلة وتتحقق الرّفعة.

وعليه:

فالارتقاء قيمة خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}[74]، ولأنَّ الإنسان الأوّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنّة، كان خلقه في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[75].

---

[73] البقرة 37.

[74] الأنبياء 30.

[75] التين 4.

ولذا فأساس خلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمَّا الاستثناء ألَّا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خلقًا، وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: ألَّا يأكلّ من تلك الشّجرة: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[76].

ومن هنا، جاء انحدار أبينا آدم عوضًا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خلقا: (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)؛ حيث الهبوط على الأرض التي فُتقت من السّماوات فأصبحت أرضًا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍ (في السّماء). ولكن آدم عليه السّلام خُلق على حُسن التقويم فتدارك أمره؛ فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[77]؛ ولهذا فقد استثنى آدم من الوجود السُفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه نُقلة عظيمة، (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا).

وعليه:

ـ كلّما تكتشف أنّك على شيء من الخطأ؛ فاعرف أنَّ معلومات خاطئة قد علقت بك؛ فتخلّص منها وصحّح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة ولا تتردّد.

ـ الخُلق وحده يمكّنك من الصّمود الموجب، وانعدامه يجعلك في سُفليّة ودونيَّة؛ فعليك بالخُلق ولا تفارق.

[76] البقرة 35، 36.

[77] البقرة 37.

ـ الأخلاق تجعلك على الارتقاء وتمكّنك من بلوغ ما هو أكثر نُقلة ورُقيّا ورفعة ونهضة.

ـ ثق في نفسك إن أردت التحدّي، ولا تلتفت لمن يريد إغواؤك عشرة من بعد عشرة.

ـ اعمل والأمل لا يفارقك؛ فالإنسان بلا أمل لا فرق بينه وبين من خُلق في دونيّة، أو أصبح عليها.

ـ ضع الدّروس نصب عينيك، ولا تنسى ذلك الدّرس الذي تركه لنا أبونا آدم عليه السّلام، فهو بعد أن عصى ربّه بأسباب الأكل من المنهي عنه، عرف أنَّ ما يُنهى عنه لا يكون إلّا مخالفًا للفطرة الخلقيّة (في غير مرضاة الخالق)، أي: إنَّ المنهي عنه لا يكون إلّا لضررٍ ودونيَّة، سواء أكان نفسيًّا، أم صحيًّا، أم خُلقيًّا؛ فآدم بعد أن أكل من تلك الشّجرة المنهي عن الأكل من ثمارها ندم وتألّم، وظلّ على ما ألمّ به من ندمٍ وألمٍ حتّى غفر الله له ذنبه، ومع ذلك صدر عليه حكم الهبوطٍ من الجنّة ارتقاء، إلى الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا.

ولأنَّ الآمال هي ما يحتويها الزّمن كلّه فلا تقصر آمالك على المستقبل وحده، فهناك من الآمال ما قد أنجز، ممّا يستوجب الأخذ به عبرة وموعظة، أو العودة إليه كنز لا يفنى.

وعندما تتاح لك فرص الاختيار فلا تتسرّع، وكذلك لا ينبغي أن تتأخر فلكلّ حسابه، فلا تغفل.

وعليك أن تعرف أنَّ زمن تحديد الأهداف ليس زمن حصاد نتائجها، فزمنها زمن الزراعة والبدر؛ ولذلك فالنّاس يحدّدون أهدافهم، ثمّ يعملون على إنجازها وبلوغ الغاية

التي من ورائها، مع العلم أنَّ الزّمن بين تحديدها وبلوغها يحتاج إلى أعوام، وهذا يعني: أنَّ زمن تحديد الأهداف لم يكن هو زمن إنجازها ولا تحقيق الغاية التي من ورائها، مع أنَّ الزّمن الذي حُدّدت فيه قد أصبح ماضٍ، وهو في ذات الوقت بالنّسبة لإنجازها أو بلوغها لا يعدّ إلّا مستقبلًا، وهكذا يتعاقب الزّمن والنُّقل على أيدي صُنَّاعها تتعاقب نُقلة من بعد نُقلة.

المؤلِّفُ في سطورٍ

ـ أ د. عقيل حسين عقيل

ـ مواليد ليبيا 1953م

ـ بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوَّل جامعة الفاتح (طرابلس).

ـ معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

ـ ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

ـ دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

ـ أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

ـ شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

ـ شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 ـ 1990).

ـ انتخب من قبل مؤتمر الشَّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

ـ شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 ـ 2009م.

ـ انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

ـ صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

ـ صدر له (206) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

ـ أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسِّياسة.

4 ـ الإسلاميات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (206) مؤلّفا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 ـ الموسوعة القيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

3 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 ـ الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7 ـ موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالداخل والخارج.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسِّياسة.

4 ـ الإسلاميَّات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجأ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجأ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجيَّة القيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجيَّة القيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجيَّة القيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18ـ الموسوعة القيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007 م.

19 ـ البرمجيَّة القيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010 م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل والياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم واسماعيل واسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة وألنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرَّار وحقَّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السِّياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويَّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 ـ نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 ـ

90 ـ هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 ـ صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 ـ لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 ـ إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 ـ إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 ـ إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 ـ يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 ـ يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 ـ شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 ـ أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100ـ ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 ـ يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 ـ موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 ـ هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 ـ إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 ـ اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 ـ داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 ـ سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 ـ زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 ـ يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 ـ محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 ـ الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 ـ صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 ـ الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 ـ مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 ـ من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 ـ التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 ـ منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 ـ الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 ـ المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 ـ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 ـ الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 ـ مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 ـ المعلومة الضَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 ـ الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 ـ مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 ـ الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 ـ تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 ـ العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 ـ غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 ـ مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 ـ الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب واحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر وألتوزيع، القاهرة، 2019.

139 ـ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 ـ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 ـ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 ـ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 ـ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 ـ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 ـ إحداث النُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 ـ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 ـ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 ـ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 ـ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي واحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 ـ أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 - موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرِّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172- الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173- النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة واحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الضَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023 م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201 ـ الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 ـ أرسول ويغزو؟!، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

203 ـ الخلق من العدم إلى الاستخلاف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

204 ـ الفضائل مصادر النِّعم، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

105 – الصّبر مفتاح التحدّي، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

106 – السِّيادة الوطنيَّة إرادة وهوية، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**